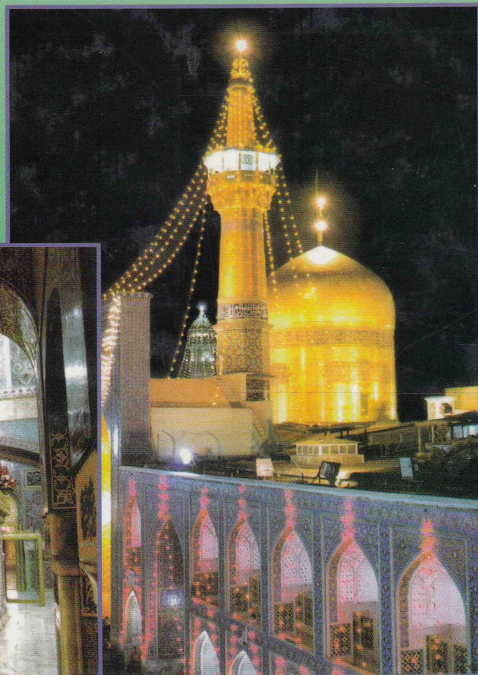


عَرِيْبُ طُوُسٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْإِمَامِ عَلِيِّ الرِّضَا

الدكتور حسين الحاج حسن

عَلِيُّ الرِّضَا



الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

دائرة معارف

الدكتور حسين إبراهيم الحاج حسن
أستاذ الأدب العربي والحضارة العربية
ومشرف على قسم الماجستير والدكتوراة
في الجامعة اللبنانية

دار المرتضى

طباعة، نشر، توزيع، لبنان - بيروت

ص.ب: ٢٥/١٥٥ الغبيري - تليفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail: mortada14@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن
يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

صدق الله العلي العظيم

القرآن الكريم



المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

إنَّ عهدي بالأستاذ الدكتور حسين الحاج حسن سلمه الله تعالى في كتاباته عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ^(١) أن يستوعب الحديث، ويلم بالموضوع، فكل كتاب من كتبه يعطي صورة مصغرة عن الإمام الذي كتب عنه؛ الماماً بسيرته الكريمة، وقبساً من كلامه المنير، وأرجو أن يكون هذا الكتاب الذي بين يديك لا يقصر عن كتبه السالفة.

وحدثني مع اخواني القراء في هذا التقديم القصير عن أمرين:

الأمر الأول: عندما نقرأ سيرة أحد الأئمة عليهم السلام علينا أن نقتبس من آثارهم، ونهتدي بهديهم، ونسير على نهجهم، وأنا معك، فليس ممناً من يطيق صلاة ألف ركعة في كل يوم وليلة كما كان يفعل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ^(٢) والإمام الحسين عليه السلام ^(٣) وقيل لعلي بن الحسن عليه السلام: ما كان أقل ولد أبيك؟

فقال عليه السلام: العجب كيف ولدت له، كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة فمتى كان يتفرغ للنساء ^(٤).

وأجمع المؤرخون على أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يصلي في اليوم

(١) طبع له (الإمام السجّاد جهاد وآمجاد) (الرسالية في الثورة الحسينية) الإمام الصادق عليه السلام النبوة ومنهج حياة (الإمام الكاظم باب الحوائج).

(٢) الغدير/المجلد الخامس عن مصادر كثيرة.

(٣) أعيان الشيعة: ١٢٤/٤.

(٤) العقد الفريد: ٣٨٤/٤.

والليلة ألف ركعة^(١).

وأيضاً ليس منا من يستطيع أن يحجّ خمساً وعشرين حجة مشياً على الأقدام كما كان يفعل الإمام الحسين عليه السلام^(٢).

وهكذا بقية سيرهم عليهم السلام، ولكن ينبغي لنا أن نجعل أماننا ما جاء في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف) رضي الله عنه، وقد استعرض فيه بعض سيرته عليه السلام، وما هو عليه من خشية العيش فقال: ألا وإن لكل مأموم أماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرון على ذلك ولكن اعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد^(٣).

والمعنى: فبدلاً من صلاة ألف ركعة علينا المحافظة على الفرائض اليومية، وإدائها في أوقاتها، ومراعاة شروطها، وبدلاً من خمس وعشرين حجة مشياً على الأقدام، تؤدّي حجة الإسلام، وهكذا، وبغير الأخذ بتعاليمهم عليهم السلام تكون الكتب والخطب التي نسمعها من القراء الحسينيين علينا وليست لنا، إنها حجة علينا نؤاخذ بها والأمر الثاني الملفت للنظر بالنسبة للأئمة عليهم السلام هو كثرة زائريهم، فكأننا سمع أنّ زوار الحسين عليه السلام في النصف من شعبان بلغوا خمسة ملايين زائر، وفي زيارة الأربعين لعام ١٤٢٤ هـ ذكرت الاذاعات العالمية أنهم بلغوا أربعة ملايين زائر، وهو أمر خارج عن المعهود؛ فالعالم يعيش في ضائقة مالية، والناس مشغولون بأنفسهم، وأعظم من هذا وذاك العوائق التي وضعها الطغاة - قديماً وحديثاً - أمام الزائرين حتى آل الأمر إلى قصفهم بالطائرات في زيارة الأربعين، عام ١٩٧٩ م.

إنّ هذا الأمر، أعني كثرة الزائرين للعتبات المقدّسة ملفت للنظر، ويُنْبئ عن

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/٢٥١. الخصال: ٥١٧ الفصول المهمي: ١٨٣. نور الابصار: ١٢٧. مطالب السؤل: ٢/٤٧. كشف الغمة: ٢٠٠. صفة الصفوة: ٢/٥٦. إسعاف الراغبين: ٢٠٨. بحار الأنوار: ١١/٩١.

(٢) مطالب السؤل: ٧٣. أسد الغابة: ٢/١٢٠. الشرق المؤبد لآل محمد: ٧٢. تاريخ ابن عساكر: ٤/٣٢٣. تذكرة الخواص: ١٣٤. العقد الفريد: ٤/٣٨٤.

(٣) نهج البلاغة: ٥٤٧.

إرادة الإهية، أو هو بعض العطاء الإلهي للأئمة عليهم السلام، تمييزاً لمواقفهم المشرفة في الذب عن الإسلام، وأيضاً: هو وسيلة لنجاة الخلق لما ورد في ثواب زيارتهم عليهم السلام ولا تتصور أنّ الحسين عليه السلام وحده يتميز حرمة كثرة الزائرين، تأمل - سلمك الله - حرم الإمام الرضا عليه السلام، وزائريه الذين يبلغون في كل يوم مئات الألوف.

إنّ معظم شركات الطيران العالمية استبدلت بخطوطها الجوية بين العواصم وطهران إلى مشهد، حيث معظم مسافريها قصدهم زيارة الإمام الرضا عليه السلام.

إنّ كاتب هذه السطور وفق في شعبان سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣ لزيارة الإمام الرضا عليه السلام، وفضلاً عن أنّ الضريح الشريف لا يمكن تقبيله لزدحام الزائرين، فإنّ الشوارع المؤدية للحرم الشريف مكتظة بالزائرين ليلاً ونهاراً، رغم أنّ الحرم الشريف لا يغلق أبداً وأكثر من هذا، فحرم السيدة المعصومة فاطمة بنت الإمام موسى الكاظم أخت الإمام الرضا عليه السلام في قم المقدّسة يكاد يضاهي حرم الإمام الرضا عليه السلام في كثرة الزائرين، وهناك صعوبة في الوصول إلى تقبيل الضريح الشريف وهنا يتجلّى الإعجاز النبوي في الإخبار من قبل ألف وأربعمائة عام عمّا سيؤول إليه قبور الأئمة من عترته عليه وعليهم السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: لتقتلن بأرض العراق وتدفن فيها.

فقال: يا رسول الله ما لمن يزور قبورنا، وعمرها، وتعاهدنا؟

فقال: يا أبا الحسن، إنّ الله جعل قبرك وقبور ولدك بقعة من بقاع الجنة، وعرصه من عرصاتها، وأنّ الله تعالى جعل قلوباً من خلقه، وصفوة من عباده تحنّ إليكم، وتحمل الأذى فيكم، فيعمرون قبوركم تقرباً إلى الله جلّ وعلا، ومودة لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي، الواردون حوضي، وهم زوّاري غداً في الجنة، يا علي من زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام، وخرج من ذنوبه حين يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمّه، فابشر وبشر أولئك ومحبيك من النعم وقرّة العين، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر^(١).

(١) ارشاد القلوب: ٢٣٩/٢.

وذكر الشيخ الأقدم أبو جعفر ابن قولويه رحمته الله أن العقلية زينب عليها السلام حينما مرّوا بها وببقيّة آل الحسين عليهم السلام شاهدت جنح ابن أخيها الإمام زين العابدين عليه السلام ، فقالت له: مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جذي وأبي وإخواني؟! فقال عليه السلام : وكيف لا أجزع وأهلح وقد أرى سيدي وإخوتي وعمومتي وولد عمّي مصرّعين بدمائهم، مرمّلين بالعراء، مسلمين، لا يكفنون ولا يوارون، ولا يعرج عليهم أحد، ولا يقربهم بشر، كأنهم أهل بيت من الديلم والخزر.

فقلت عليه السلام : لا يجزعك ما ترى، فوالله إن ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جدك وأبيك وعمك؛ ولقد أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأمة، وهم معروفون في أهل السماوات، أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة فيوارونها، وهذه الجسوم المضرّجة، وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء لا يُدرس أثره، ولا يعفو رسمه على كرور الليالي والأيام، ولتجهدن أئمة الكفر، وأشياح الضلالة في محوه وتطميّسه فلا يزداد إلا ظهوراً، وأمره إلا علواً^(١).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، ونسأله تعالى أن يجمع القلوب على ولائهم عليهم السلام ، وأن يأخذ بأيدينا جميعاً إلى نهجهم إنّه سميع مجيب.

علي محمد علي دخيل

(١) كامل الزيارات: ٢٦٣.

فاتحة

يا الله! نعطر أفواهنا بذكرك ونحي قلوبنا بكتابك، ونستدل الطريق بنورك.
يا رفيع الدرجات، يا ذا العرش العلي أدعوك مخلصاً لك الدين.. فاستجب لي وثبت قلبي بروح من أمرك على محبة أهل بيتك، ومحبة من تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين. يا الله! ارفعني فوق نفسي درجة أو درجات لأتخلص من قيود شرورها وأثقالها وأغتسل بمطر الفطرة الأولى التي فطرتني عليها؛ فأولد من جديد وأشم أطياب الحقيقة.

سمعت بخبر المباراة التي دعا إليها جماعة من المؤمنين المخلصين لمحبة أهل البيت عليهم السلام، عن الإمام الثامن المعصوم الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فاعترتني رعدة وذهول وفرحة وفضول، ووقفت على أعتاب خاتم النبيين محمد عليه السلام صامتاً، خاشعاً حتى حركتني اليد المباركة، يد العمل الصالح وهي ترفع الكلم الطيب لتعلم الناس الشرف، كيف يرتفعون فوق نفوسهم درجات.
سمعت صوتاً خفياً يناديني فيهب أعماقي: ألا انهض وتشجع واكتب في إمامك المعصوم «علي الرضا واستعن بالله الكريم».

بعد ذلك ازداد قلبي ثباتاً وقويت عزيمتي وأنا أصعد إلى مدارج الغيب إلى مأدبة الله التي دعا إليها الرسول الأعظم عليه السلام جميع المؤمنين ليطلوا على حدائق اليقين.
وفي حديقة منها أنيقة جداً أو جميلة جداً ارتحت إليها كثيراً، فأثقلتني مواسم الفرح سألت ما هذه الحديقة؟ فقالوا: هذه حديقة الإمام علي بن موسى عليه السلام: سليل رسول الله عليه السلام.

ثم هويت وهويت حتى وجدت نفسي على الأرض، ومعني أحسن الفصول عن ابن بنت الرسول عليه السلام.

يا رحيق أقلام الكتاب المؤمنين المتوافدين من شتى بلاد العرب، ويا شمعة تضيء طريق المحبين إلى دوحة الحق اليقين...

سيرة الأئمة المعصومين هي سيرة الحق والحقيقة، وقصة العرفان والمعرفة، وقصة الوفاء والفاء، وقصة الإصلاح والصلاح، وقصة الحب والمحبة: الحب في الله والمحبة من أجل كلمة الله، والدفاع عن رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

علم الله آدم الأسماء كلها، واستخلفه في الأرض ليعمرها ويصلح من فيها، ثم أعد جميع الأنبياء بعد آدم عليه السلام إعداداً جميلاً، فأعد محمداً أربعين عاماً وألقى إليه الروح من أمره، فجدد كتب الأقدمين وكان رحمة للعالمين.

وأعد محمد علياً، أباً تراب، من أقرب الأقربين في عشيرته فتحمل أثقال الخلافة عاملاً بكتاب الله وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وأعد علي أمير المؤمنين سبطيه الحسن والحسين عليهما السلام سيداً شباب أهل الجنة إعداداً كافياً لحمل أثقال الرسالة المحمدية، فكانا خير خلف لخير سلف، وأعد الإمام الحسين ولده علي زين العابدين فتحمل مسؤولية الخلافة وقاوم المنحرفين عن الخط الإلهي القويم صابراً مجاهداً.

وأعد الإمام زين العابدين ولده محمد الباقر الذي أسس مدرسة عظيمة تخرج منها كبار العلماء من المسلمين الفقهاء. وأعد الإمام الباقر عليه السلام ولده الإمام جعفر الصادق الذي أتاحت له فرصة مباركة أثناء انهيار الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية فأسس المذهب الجعفري وتابع رسالة والده حتى انتشر المذهب الجعفري في جميع الآفاق الإسلامية، وتخرج من جامعته عدد غفير من كبار العلماء ورؤساء المذاهب الذين تتلمذوا على يديه ونهلوا من نعيم علومه.

وأعد الإمام الصادق عليه السلام ولده الإمام الكاظم الذي كظم غيظه زمناً طويلاً، وعانى الكثير من ويلات الحكام العباسيين في السجون المظلمة، لكنه وهو في السجن كان له رواده وطلابه توزعوا في الآفاق جاهدين في نشر تعاليمه القويمة المنورة.

وأعد الإمام موسى الكاظم عليه السلام ولده، علي الرضا خليفة له من بعده، ونحن الآن في رحاب علومه وفي ضيافته نعمل بكل ما لدينا من طاقة علنا نحيط بماله من معارف وعلوم وحكم في جميع حقول المعرفة؛ أملين التوفيق والله الموفق والمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا الكتاب

إن سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام دعوة مباركة لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ^(١) .

«فإنما» أداة حصر والذي يدل على الحصر عادة - دليل على أن هذه المنقبة خاصة بأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله . وجملة «يريد» إشارة إلى إرادة الله التكوينية . ولا ريب أن الأئمة عليهم السلام . وجملة «يريد» إشارة إلى إرادة الله التكوينية . ولا ريب أن الأئمة عليهم السلام معصومين، ولهم أهلية اكتسابية عن طريق أعمالهم، ولهم لياقة ذاتية موهوبة لهم من قبل الله تعالى . وتعبير أوضح فإن المعصومين نتيجة للرعاية الإلهية وأعمالهم الطاهرة، لا يقدمون على المعصية مع امتلاكهم القدرة والاختيار في اتيانها . وهذه الحالة تنبعث من أعماق وجود الإنسان نتيجة المبادئ الفطرية والطبيعية دون أن يكون في الأمر جبر أو إكراه . ولفظة الرجس تعني الشيء القذر، سواء كان نجساً أو قذراً من ناحية طبع الإنسان، أو بحكم الشرع أو العقل أو جميعها ^(٢) . وهنا تسمى الألف واللام التي وردت بألف الرجس أما التطهر الذي يعني إزالة النجس فهو تأكيد آخر على مسألة إذهاب الرجس ونفي السيئات . ويعتبر ذكره هنا بصيغة المطلق تأكيداً آخر على هذا المعنى .

وأما تعبير «أهل البيت» الوارد في الآية الكريمة فإنه إشارة واضحة إلى أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله باتفاق علماء الإسلام والمفسرين، وهذا شيء يفهم من ظاهر

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

(٢) ذكر الراجب في مفرداته في مادة (رجس) المعنى المذكور أعلاه.

الآية، لأن البيت وإن ذكره هنا بصيغة مطلقة إلا أن المراد منه بيت النبي ﷺ بقرينة الآيات السابقة واللاحقة^(١) وخلاصة القول: إن المخاطبين في هذه الآية الكريمة هم خمسة أفراد فقط: وهم محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام. والآية تختص بهؤلاء الخمسة وحدهم.

وأضاف المفسر الكبير صاحب الميزان: يستفاد جيداً من روايات كثيرة أن هذه الآية قد وضعها الإمام علي عليه السلام مع هذه الآيات لدى جمعه آيات القرآن في عصر النبي ﷺ.



(١) إن ما ذكره البعض من أن البيت هنا إشارة إلى بيت الله الحرام، وأهله لا يتناسب إطلاقاً مع سياق الآيات لأن الكلام هنا عن النبي ﷺ وأزواجه لا عن بيت الله الحرام.

أهل البيت في الحديث النبوي الشريف

الحديث المشهور المعروف باسم: حديث الثقلين. قال ﷺ: «أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي. ثم أخذ بيد علي فقال: هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض، فأسألهما عما خلفت فيهما»^(١).

ورود عن النبي ﷺ قوله:

«اللهم إني أشهدك أنني محب لمن أحبهم، ومبغض لمن أبغضهم، وسلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم، وعدو لمن عاداهم، وولي لمن والاهم» كما روي عن النبي أيضاً قوله ﷺ:

«اللهم إني أشهدك أنني محب لمن أحبهم، ومبغض لمن أبغضهم، وسلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم، وعدو لمن عاداهم، وولي لمن والاهم».

كما روي عن النبي أيضاً قوله ﷺ:

«اللهم إنك تعلم أن هؤلاء أهل بيتي وأكرم الناس علي، فأحب من يحبهم، وأبغض من يبغضهم ووال من والاهم، وعاد من عاداهم، وأهن من أهانهم، واجعلهم مطهرين من كل رجس، معصومين من كل ذنب، وأيدهم بروح القدس يا رب العالمين».

(١) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢٢ وسنن الدارمي ج ٢ ص ٤٣٢ وسنن الترمذي ج ٢ ص ٣٠٧ ومسنند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٤ و ١٧ وخصائص النسائي ص ٣٠ ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ١٠٩ و ١٤٨ وابن كثير الدمشقي ج ٤ ص ١١٣ في تفسير آية المودة وفي تفسير آية التطهير. ولسان العرب لابن منظور ج ٦ في لغة العترة. وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٦ في معنى العترة ص ١٣٠، والعلامة السيد مير حامد حسين الهندي قد رواه عن جماعة تقرب من المائتين من أكابر علماء المذاهب.

وقد تحدث الأئمة عليهم السلام عن موضوع أهل البيت لأنه يعينهم أكثر مما يعني سواهم. وكان حديثهم حديث الواثق من نفسه، المدافع عن حقه مستندين في ذلك لما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وأول من تحدث عن أئمة أهل البيت الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقال فيهم:

«لا يقاس بأل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً: هم أساس الدين، وعماد اليقين إليهم يفىء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والورثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله، ونقل ألى منتقله»^(١).

وقال الإمام الحسن عليه السلام: في خطبة من خطبه:

«أنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

وقوله أيضاً: «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً» فاقتراف الحسنه مودتنا أهل البيت».

وروى إسماعيل بن عبد الخالق عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «أنها نزلت فينا أهل البيت أصحاب الكساء هذه الآية المباركة: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾»^(٢) وقال عليه السلام: «ولايتنا أهل البيت وأهوى بيده إلى صدره. فمن لم يتداولنا لم يرفع الله له عملاً»، تلك الآيات الكريمة التي أوحى الله بها إلى نبيه في أهل البيت عليهم السلام.

وهذه الأحاديث النبوية جعلت حب أهل البيت نوراً يضيء قلوب المؤمنين وبصورة خاصة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: فأبو بكر الصديق رضي الله عنه يدعو المسلمين إلى الاقتداء بأهل البيت، والسير على نهجهم، وتقديراً يليق بمكانتهم التي رفعهم إليها الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله. قال أبو بكر: «ارقبوا محمداً في أهل بيته»^(٣).

(١) نهج البلاغة ص ٣٨.

(٢) سورة فاطرة: الآية، ١٠ وراجع مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٢٨٣.

(٣) صحيح البخاري ج ٥ باب مناقب الحسن والحسين.

وجاء في كتاب الأديب المعروف عباس محمود العقاد «عبقرية الإمام علي» قال: أحاديث الرسول في فضل علي ومحبته متواترة في كتب الحديث المشهورة من حديث (الخيمة) رواه أبو بكر الصديق قال رضي الله عنه:

«رأيت رسول الله خيمَ خيمة، وهو متكئ على قوس عربية، وفي الخيمة: علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال معشر المسلمين: أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة وحرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب الولادة، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة».

ثم دلل أبو بكر تدليلاً واضحاً على تعظيمه لأهل البيت بشخص علي بن أبي طالب فقال في زيارة قام بها وعلي لقبر رسول الله ﷺ:

«ما كنت لأتقدم رجلاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مني بمنزلتني من ربي»^(١).

لذلك وجب علينا أن نقرأ سير الأئمة المعصومين قراءة دقيقة وواعية غير قراءة كتب التاريخ والتراجم وسير الملوك العظماء.

نقرأ سير أهل البيت ونستعرض وصاياهم وحكمهم فنترجمها إلى حقل العمل والتطبيق ونحذو حذوها، لنأخذ من عظاتهم بلسماً شافياً للكثير من أمراضنا الاجتماعية والأخلاقية والدينية.

إن رجوع الأمة الإسلامية إلى سير أهل البيت الصالحة وتعاليمهم القويمه؛ هو رجوع إلى الإسلام، ورجوع إلى ما جاء به الرسول الأعظم من عند الحق تبارك وتعالى.

وبذلك تكون الأمة قد رجعت إلى ما تصبو إليه من عدالة اجتماعية، وسعادة أبدية في الدارين وخير شامل ورفاه عام تسوده المحبة في الله والأخوة الصادقة والإلفة التي توثق العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي، فيصبح كالحصن المتين لا تؤثر فيه الرياح مهما كانت قوية، ولا تزعزعه الأهواء والأضغان من أي جهة أتته.

(١) راجع كتاب ذخائر العقبى لشيخ الشافعية الطبري ص ٦٤.

ومحطتنا في هذا الكتاب عند علم من أعلام الإسلام المشرقة، وبطل من أبطال المسلمين، وحفيد كريم للإمام أمير المؤمنين عليه السلام نستلهم من سيرته العطرة، وذكره الكريمة، المثل الرفيعة، والصفات الحميدة والدروس القيمة التي نحتاجها للنهوض بالأمة الإسلامية نحو المجد والخير والسعادة. إنه الإمام علي الرضا عليه السلام الذي لبس درع الرسالة المحمدية فوجد في كل حلقة منه قلباً يتفجر عزيمة، والعزيمة تشع كضوء يتماوج بألف لون ولون، ثم نظر إلى موقع أبيه الإمام الكاظم عليه السلام فلمح كوة تفتح على الجنة ورفع بصره إلى فوق، فإذا بسمة عريضة من الفم الملائكي وكأنها تقول له: سر في درب الشوق الذي سار عليه قبلك أبوك وجدك، فأنت محوط بالعناية الإلهية.

وكان الله في عونني على الأخذ بهذه السيرة الغراء، والرجوع إلى هذه التعاليم الإسلامية القويمة لنضمن سعادة الدنيا والآخرة. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).



(١) سورة آل عمران: الآية. ٣١.

منهج أهل البيت السياسي

لأنمة أهل البيت منهجهم الواضح والراقي في عالم الحكم والسياسة، فهم يرون أن الحكم يجب أن يكون وسيلة لإقامة العدل الخالص، ونشر المحبة والإلفة بين الناس جميعاً تأكيداً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَدَّأُوذُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٢).

ولا غرو فهم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق. وفي ذلك وجه المأمون سؤالاً لعبد الله بن مطر، وهو من أعلام الفكر في عصره، فقال له: «وما تقول في أهل البيت؟» فأجابه بهذه الكلمة المشرقة: «وما قولي في طينة عجنت بماء الرسالة، وغرست بماء الوحي، هل ينفخ منها إلا مسك الهدى، وعنبر التقى»^(٣). وفي نظر أهل البيت:

١ - إن لا قيمة للحكم إن لم يكن أداة لانعاش الشعوب، ورفاهيتها وأمنها ورخائها، ولا معنى له إذا لم يحقق هذه الأهداف النبيلة التي تسعد بها الشعوب، ولنسمع إلى ما يقوله أمير المؤمنين سيد العترة الطاهرة علي بن أبي طالب إلى وزيره عبد الله بن عباس، وقد رفع إليه نعله التي كانت من ليف فقال له:

«يا بن عباس ما قيمة هذا النعل؟...» سارع ابن عباس قائلاً: «لا قيمة له يا أمير المؤمنين...» فانبرى الإمام قائلاً:

(١) سورة سبأ: الآية، ٢٨.

(٢) سورة ص: الآية، ٢٦.

(٣) البحار ج ١٢ ص ٧١.

«إنه خير من خلافتكم هذه إلا أن أقيم حقاً، وأدفع باطلاً...».

وإني لا أرى كلمة أجل ولا أسمى من هذه الكلمة التي أدلى بها إمام المتقين عليه السلام فلا قيمة للسلطة ما لم يقم في ظلها الحق والعدل، ويقصى فيها الباطل والجور. فيا ليتنا اليوم وكل يوم نعتمد هذه الكلمة في قاموسنا السياسي. وهذا المنهج العظيم هو منهج الله تعالى الذي يريده لعباده لتستقيم حياتهم وينعمون في ظل حكم لا خداع فيه ولا تضليل ولا تلاعب بمقدرات الأمة. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾^(١).

٢ - والإمام الرضا عليه السلام برز على مسرح الحياة السياسية في الإسلام كسياسي لامع جداً، فقد كان صلباً في مواقفه السياسية الحقة، فلم تغره الأماني المزيفة التي قدمها له السلطان العباسي المأمون من تنازله عن العرش الذي ضحى بأخيه الأمين من أجله، وترشيحه له؛ فلم يكن هذا العرض واقعياً ولا صادقاً، وإنما كان لأغراض سياسية لعل كان من أهملها القضاء على الثورات الملتهبة التي كادت تحرق الحكم العباسي، مضافاً إلى ذلك جلب عواطف الإيرانيين وسائر القوى الموالية لأهل البيت عليه السلام الذين جهدت الحكومات العباسية المتعاقبة على ظلمهم، والتكيل بهم وحرمانهم من حقوقهم الطبيعية والمشروعة.

لم تخف على الإمام عليه السلام هذه الأساليب البراقة ودوافع المأمون السياسية بتنازله عن رئاسة الدولة، وتقديمها للإمام بسخاء، فامتنع عليه من قبولها امتناعاً شديداً. ولما ينس منه المأمون عرض عليه ولاية العهد فامتنع عن قبولها أيضاً. عندها هدده المأمون وتوعده بالقتل إن لم يستجب لذلك. فالقبول أم الموت؟.

استجاب الإمام على مضض، لكنه شرط عليه شروطاً وضحت رؤيته وعدم رضاه. فقال عليه السلام:

أ - لا أمر ولا أنهي.

(١) سورة النساء: الآية، ١٠٥ والآية ٥٨ والمائدة الآية ٤٢ و ٤٨ و ٤٩ والأنبياء الآية ١١٢.

ب - لا أعزل أحداً عن منصبه، ولا أنصب أحداً في أي منصب من مناصب الدولة.

فهذه الشروط تعني أن يكون وجوده مجرد الشكل الظاهري؛ كما تعني أيضاً أن حكومة المأمون ليست شرعية، فلو كانت شرعية لما شرط عليه هذه الشروط. ولم تمض الأيام حتى توضح للجميع بعد ما ذهب إليه الإمام، وزيف ما عرضه عليه المأمون، ولكنه قام بهذه اللعبة السياسية الدنيئة ولما انتهت قام باغتيال الإمام عليه السلام، لأنه لا يمكن عزله.

٣ - أما عن الثروات العلمية الهائلة التي يملكها الإمام عليه السلام فقد شملت جميع ألوان العلوم والمعارف من فقه، وعلم كلام، وفلسفة، وعلم اجتماع، وعلم طب، وغيرها. وقد دلت على ذلك بصورة واضحة وموضوعية، مناظراته مع كبار الفلاسفة والعلماء الذين جلبهم المأمون من مختلف أقطار الدنيا إلى خراسان لامتحان الإمام وتفشيده أمام الجماهير.

وقد عقد المأمون مع كل وفد منهم اجتماعاً سرياً خاصاً، ووعدهم بالجائزة الكبرى إن أفحموا الإمام عليه السلام وأعجزوه، ليتخذ من ذلك وسيلة للطعن في علوم الإمام والتشهير بما تذهب إليه جماهير الشيعة من أن أئمة أهل البيت عليهم السلام أعلم الأمة، وأن الله أعطاهم من العلم والفضل كما أعطى أوصياءهم وأنبياءهم.

استجاب العلماء لدعوة المأمون طمعاً بالوعد الذهبي، فسألوا الإمام عن أعقد المسائل وأكثرها غموضاً. يقول المؤرخون: أنهم سألوه عن أكثر من عشرين ألف مسألة في أبواب متفرقة، فأجابهم عن جواب العالم الخبير المتخصص، فبهر العلماء بسعة علومه، حتى دان الكثيرون منهم بإمامته، مما اضطر المأمون إلى حجب الإمام عن العلماء، ثم فرض الرقابة الشديدة عليه كي لا يفتتن الناس به ويتمثلون برأيه.

وقد نقل علماء الشيعة طائفة يسيرة من تلك المناظرات التي تعد ذات أثر مهم للغاية، وهي على قلتها تكشف عن ثروات الإمام العلمية الغنية، وتدلل أنه من جهابذة الفكر ومن عمالقة العلم في دنيا الإسلام..

٤ - كوكبة من مؤلفاته:

عني المؤرخون بتدوين كوكبة من مؤلفات الإمام الرضا عليه السلام كابن النديم والطوسي وغيرهما كما نص عليها المترجمون، وهي:

أ - الرسالة الذهبية:

وهي رسالة في علم الطب سميت بذلك لنفاستها وقد اشتملت على برامج الأغذية الصحية التي تعتبر الأساس للصحة العامة، كما عرضت إلى كل ما يصلح بدن الإنسان، وبقية من الإصابة بكثير من الأمراض. من تلك الوصفات المهمة: عدم الاسراف في تناول الطعام.

لأن الاسراف فيه يعرض الإنسان للإصابة بارتفاع ضغط الدم، وداء السكر، وتصلب شرايين القلب وغير ذلك من الأمراض...

ولا ريب أن وصايا الإمام الصحية لو طبقت في حياتنا اليوم لجعلت الطب الوقائي بألف خير. ونظراً لأهميتها فقد شرحها شراح كثيرون...

وقد طبعت في القاهرة، فطبعتها وعلق عليها العلامة عبد الواسع بن يحيى الواسمي. كما شرحها أيضاً الدكتور السيد صاحب زيني بما يتفق والطب الحديث.

ب - مسند الإمام الرضا عليه السلام:

وقد احتوى على طائفة من الأخبار يروي الإمام بعضها بسنده عن جده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

ج - جوامع الشريعة:

تضمنت أمهات المسائل الفقهية وأهم الأحكام الشرعية، وقد أملاها الإمام عليه السلام على رئيس وزراء المأمون، الفضل بن سهل بطلب منه وذكرت هذه الرسالة في كتاب تحف العقول.

وقد ذكر الرواة للإمام طائفة كثيرة من غرر الحكم والآداب تصلح لتكون برنامجاً للحياة الحضارية المتطورة التي يريدها الإسلام لأبنائه.

د - طلاب ورواة الإمام:

سوف نعرض بإذن الله تعالى طائفة من كبار العلماء والرواة ممن تتلمذوا على يد الإمام عليه السلام ورووا حديثه . وقد ألف بعضهم كتاباً من أحاديثه وحكمه . وإن عرض ذلك يدل دلالة واضحة عن حياته الغنية ، كما يكشف مدى اهتمام الرواة والمؤرخين بهذا المفكر العملاق الذي كانت علومه امتداداً ذاتياً لعلوم آبائه الطاهرين عليهم السلام خزنة علوم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، وورثة حكمته .

هـ - عصر الإمام الرضا عليه السلام

وتناولت في هذا البحث عصر الإمام الرضا عليه السلام وعرضت ما فيه من الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، وغير ذلك مما يتعلق بحياة الناس في ذلك العصر . وما أراه أن مثل هذه الدراسة لا غنى للباحث عنها ، لأن مجريات الأحداث في كل عصر لها تأثير مباشر على حياة الإنسان ، وعلى مكوناته الفكرية كما أكدت ذلك بحوث علم النفس وعلم الاجتماع .

من الأحداث الجسام التي حفل بها عصر الإمام عليه السلام الصراع المسلح بين الأخوين الأمين والمأمون ، الذي أدى إلى خراب بغداد ، مدينة السلام وزينة الشرق وإلى قتل طائفة كبيرة من الناس .

ومن بين تلك الأحداث ثورة القائد الكبير أبي السرايا ، وغيرها من الثورات الكبرى التي كادت تقضي على الدولة العباسية ؛ إلا أن المأمون بدهائه وحنكته السياسية استطاع التغلب على جميع الأحداث التي ألمت به ، فأجبر الإمام الرضا عليه السلام - أمل الأمة الإسلامية - على قبول ولاية العهد ، الأمر الذي أدى إلى فشل تلك الثورات وإخماد نارها .

ومن بين الأحداث المهمة في ذلك العصر فتنة «خلق القرآن» وهي مسألة كلامية كانت مهملة فأثارها المأمون مما أشاع الفتنة والاضطراب بين المسلمين ، فأججت نار الخلاف بين الفئات المتصارعة وسالت الدماء البريئة بغير الحق .

٦ - سيرة ملوك بني العباس:

استعرضت سيرة ملوك بني العباس الذين عاصروهم الإمام الرضا عليه السلام فوجدت أن سيرتهم شبيهة جداً بسيرة ملوك الأمويين الذين اتخذوا مال الله دولاً ،

وعباد الله خولاً، ولم أجد لهم أي عمل صالح ينتفع به المسلمون. فقد أنفقوا الأموال الطائلة على الشهوات والملذات والليالي الحمراء. وقد حظي بالثراء من قبلهم العابثون والماجنون والمغنون، في حين أن الفقر والبؤس قد أخذ بخناق عامة الناس.

ومن مظاهر حكمهم ان شرعت سيوفهم، وفتحت أبواب سجونهم للأحرار وفي طليعتهم العلويون، الذين كانوا يطالبون بتحقيق العدالة الاجتماعية. وكذلك أرباب الصناعات وذووا الحرف لاقوا ضروباً قاسية ومرهقة من الضرائب التي كان الجباة يأخذونها بمتتهى الشدة والقسوة.

٧ - كيف يجب دراسة التاريخ الإسلامي:

ما نراه أن دراسة التاريخ الإسلامي يجب أن تكون موضوعية ونزيهة وبعيدة عن التيارات المذهبية والقضايا الشخصية. وقد وجدناه قد خلط معظمه بكثير من الموضوعات السياسية أوجبت ستر الحقائق وإخفاء الحق، فمن الواجب على الكتاب والمؤرخين والأدباء بذل المزيد من الجهد لمعرفة الصحيح من السقيم والحق من الباطل.

وكان من بين ما مني به التاريخ من الخلط المقصود إخفاء النعوت الكريمة، والألقاب الفخمة على الكثيرين من ملوك بني أمية وبني العباس. فبعض المؤرخين لقبوهم بخلفاء الله على الأرض. ويا له من لقب كريم يمثل الحق والعدل، والقانون وأعوذ بالله أن يتصف بهذا اللقب أمثال معاوية ويزيد والوليد، وأمثالهم من ملوك بني العباس الذين حولوا حياة الناس إلى جحيم لا يطاق أمثال هارون والمأمون... وحتى اليوم نرى ونسمع بعض المؤرخين المغشوشين أو المنحرفين يشيدون بمآثر ملوك بني أمية أو بني العباس. هؤلاء قد وضعوا على بصيرتهم غشاوة حجبتهم عن رؤية الحق إما لجهلهم أو لمسايرتهم لبعض الحكام الحاليين الذين أعمتهم المذهبية والمصالح الدنيوية الرخيصة. وبالأمس القريب سمعت بعض الأدباء في ندوة أدبية تلفزيونية يدافع عن المأمون دفاعاً حاراً فقال أنه كان من أعدل حكام عصره ومن أكرم ملوك زمانه، ويتحلى بأخلاق سامية وسيرة كريمة وما إلى ذلك من صفات نبيلة!!.

فهذا مثله كمثل بعض المؤرخين والكتاب الذين يرون أن المقياس الحقيقي في رفعة الشخص في مجتمعه، وعظيم مكانته استيلاؤه على كرسي الحكم وتسلمه زمام السلطة العامة في البلاد وبذخه واسرافه على خاصته. وكل ذي بصر سليم وبصيرة نظيفة يرفض هذا المقياس رفضاً تاماً ولا يقبله، إن المقياس الصحيح في الفكر الإسلامي هو ما يسديه الحاكم الأمين من خدمات جلى للأمة في عالم الأمن والرخاء وازدهار الاقتصاد وتنوير الثقافة: «فاللقب لا يحمي صاحبه من الخطأ»^(١).

فلو جرد المؤرخون والكتاب لقب الخليفة والوالي وغيره من الألقاب العظيمة من هؤلاء الملوك، وأضفوها على الذين خدموا قضايا الأمة الكبيرة، لأدوا بذلك خدمة كبرى إلى التاريخ الإسلامي. وكم يلزمننا من التجرد والشفافية والبعد عن الهوى لكتابة بعض صفحات من التاريخ!! وقد تعرض الإسلام إلى كثير من نقد المستشرقين وغيرهم الحاقدين على الإسلام بسبب ما صدر عن بعض هؤلاء الملوك من أعمال مجافية لروح العدالة والقانون، معتقدين بأنهم يمثلون الإسلام في تصرفاتهم وأعمالهم. ولو أن النقاد راجعوا أحكام الإسلام لوجدوها ندية خلابة تسير العدل، وتواكب الفطرة، وليس فيها بحمد الله، أي شيء من الظلم والبهتان، بل فيها نقيض ذلك فالتصرفات الشاذة من بعض ملوك المسلمين الأمويين أم العباسيين لا تمت بصلة إلى الإسلام، والإسلام منها براء.

نسبه الشريف:

قال ابن الصباغ المالكي: «أما نسبه أباً وأماً فهو:

علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام». أما أمه: أم ولد يقال لها أم البنين واسمها: أروى^(٢).

(١) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية د. حسين الحاج حسن.

(٢) الفصول المهمة: ص ٢٤٤.

قال الطبرسي «واسمها نجمة» . . . ويقال تكتم^(١) .

وقال القندوزي الحنفي: «اشترتها له جدته حميدة أم أبيه موسى الكاظم، وكانت أمه من أشرف العجم، ومن أفضل النساء في دينها وعقلها وإعظامها لمولاتها حميدة»^(٢) .

وقال أيضاً: إن حميدة رأت في المنام رسول الله ﷺ يقول لها: «يا حميدة هبي نجمة لابنك موسى، فإنه سيلد منها خير أهل الأرض، فوهبتها له فلما ولدت له الرضا: سماها الطاهرة»^(٣) وقالت أمه نجمة الطاهرة: «لما حملت بابني علي الرضا لم أشعر بثقل الحمل، وكنت أسمع في منامي تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً من بطني، فلما وضعته وقع إلى الأرض واضعاً يده على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء محرراً شفتيه كأنه يناجي ربه، فدخل أبوه فقال لي: هنيئاً لك كرامة ربك عز وجل فناولته إياه فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، فحنكته بماء الفرات»^(٤) .

مولده:

ولد علي بن موسى الرضا عليه السلام بالمدينة يوم الخميس من ١١ ذي القعدة سنة ثمان وأربعين ومائة من الهجرة^(٥) .

كنيته:

أبو الحسن: كناه بذلك أبوه الإمام موسى الكاظم وقال عليه السلام سيدي ولدي وقد نحلته نحلتي .

ألقابه:

الرضا، الصابر الوفي، الصادق، الفاضل، الزكي والولي، وأشهرها الرضا^(٦) .

(١) إعلام الوري: ص ٣١٣ .

(٢) ينابيع المودة: ص ٣٨٤ .

(٣) إعلام الوري: ص ٣١٤ .

(٤) ينابيع المودة: ص ٣٨٣ .

(٥) هذه رواية الشيخ المفيد راجع أيضاً نور الأبصار ص ١٧٨ .

(٦) المصدر نفسه .

١ - الرضا:

ذهب فريق من المؤرخين إلى أن المأمون هو الذي منح هذا اللقب^(١) لأنه رضي به وجعله ولي عهده^(٢). ووضح الإمام الجواد عليه السلام ذلك أمام جماعة من أصحابه: «إن الله تبارك وتعالى سمي ما ترضاه، لأنه كان رضي الله عز وجل في سمائه ورضي لرسوله، والأئمة من بعده صلوات الله عليهم...».

فقال له البزنطي: «ألم يكن كل واحد من آبائك الماضين عليهم السلام رضي الله عز وجل ولسوله، والأئمة بعده؟» فقال: «بلى».

قال: لم سمي أبوك من بينهم بالرضا؟...».

«لأنه رضي به المخالفون من أعدائه، كما رضي به الموافقون من أوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من آبائه، فلذلك سمي من بينهم بالرضا...»^(٣).

٢ - الصابر:

وإنما لقب الصابر لأنه صبر على المحن والخطوب؛ التي تلقاها من أعدائه وخصومه^(٤).

٣ - الزكي:

لقد كان الإمام الرضا عليه السلام من أزكياء البشر، ومن نبلائهم وأشرفهم، وقد شهد بذلك المأمون نفسه فقال: «ما أعلم أحد أفضل من هذا الرجل - يعني الإمام علي بن موسى - على وجه الأرض»^(٥).

٤ - مكيدة الملحدين:

وإنما لقب بذلك لأنه أبطل شبه الملحدين، وفند أوهامهم، وذلك في

(١) تاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ٢٤ وتاريخ ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣.

(٢) البحار: ج ١٢ ص ٤.

(٣) علل الشرائع والبحار ج ١٢ ص ٢.

(٤) البحار: ج ١٢ ص ٣.

(٥) أعيان الشيعة: ج ٤ ص ١٣٣.

مناظراته التي أقيمت في البلد العباسي، والتي أثبت فيها أصالة القيم والمبادئ الإسلامية^(١).

٥ - الصديق:

كان عليه السلام كيوسف الصديق الذي ملك مصر، فقد تزعم جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكانت له الوصاية المطلقة عليه^(٢).

٦ - الفاضل:

وهو أفضل إنسان، وأكملهم في عصره، ولهذه الظاهرة لقب بالفاضل^(٣).

زوجاته:

- ١ - سبيكة من أهل بيت مارية زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأم ولده إبراهيم.
- ٢ - أم حبيبة ابنة الخليفة المأمون العباسي^(٤).

أولاده:

قال الشيخ المفيد: «ومضى الرضا ولم يترك ولداً نعلمه إلا ابنه الإمام بعده أبا جعفر محمد بن علي الجواد لا غير»^(٥).

شعراؤه:

دعبل الخزاعي، أبو نواس، إبراهيم بن عباس الصولي^(٦).

بوابه:

كان له بواب يدعى محمد بن الفرات^(٧).

-
- (١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٤.
 - (٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤.
 - (٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٤.
 - (٤) أئمتنا للحاج علي محمد علي دخيل ج ٢ ص ٧٦.
 - (٥) اعلام الوری: ص ٣٤٤.
 - (٦) أئمتنا ج ٢ ص ٧٦.
 - (٧) المصدر نفسه.

ولاية العهد:

بويغ له بولاية العهد في ٥ شهر رمضان سنة ٢٠١ هـ، وقد دامت إمامته مدة عشرين سنة^(١).

ملوك عصره:

هارون الرشيد ٧٨٦ م - ٨٠٩ م.

الأمين: ٨٠٩ م - ٨١٣ م.

المأمون: ٨١٣ - ٨٣٣ م.

عمره:

توفي يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٢٠٣ هـ، متأثراً بسم المأمون؛ والد زوجته أم حبيبة وكان له من العمر (٥٥) عاماً.

قبره:

في مشهد - إيران ينافس السماء علواً وازدهاراً، وقد زرته منذ سنوات فرأيت المسلمين يزدحمون على أعتابه من مشرق الأرض وغربها لزيارته، والصلاة عنده والتطواف حول ضريحه الأقدس.

نقش خاتمه:

ما شاء الله لا قوة إلا بالله وولي الله.

السكة الرضوية:

بعد البيعة له ﷺ بولاية العهد ضربت باسمه الدراهم والدنانير^(٢).

صفته:

رَوَى كثير من المؤرخين أن الإمام الرضا ﷺ كان شديد السمرة، وأنه

(١) ورد في كشف الغمة نسخة العهد الذي كتبه المأمون للإمام الرضا ﷺ.

(٢) جاء في كتاب الإمام الرضا وولي عهد المأمون؛ للأستاذ عبد القادر أحمد اليوسف الكتابة التي كانت على الدراهم والدنانير التي ضربت باسم الإمام ﷺ.

كان شديد الشبه بجده رسول الله ﷺ وكما شابه جده في ملامحه، فقد شابهه في مكارم أخلاقه التي امتاز بها على سائر النبيين، وسبحانه وتعالى وصفه في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وهذه الأخلاق العالية للإمام الرضا عليه السلام تعود إلى البيت الذي نشأ فيه، فهو من أهم العوامل في تكوين شخصية الإنسان، فالبيت الذي تسوده المحبة والإلفة والعادات الرفيعة والتقاليد الحسنة، ينشأ فيه الطفل نشأة سليمة فيتجنب هجر الكلام، ويتعد عن التعقيد وازدواج الشخصية.

والبيت الذي نشأ فيه الإمام الرضا عليه السلام هو من أعز البيوت وأمنعها في دنيا الإسلام.

هيئته:

أما عن هيبة الإمام أبي محمد فكانت تعنو لها الجباه، وتستهو الأفتدة، فقد بدت عليه هيبة الأنبياء وكرامة الأوصياء الذين كساهم الله بنوره، وكان من هيئته بين أفراد مجتمعه أنه إذا جلس للناس أو ركب في سفر لم يقدر أحد أن يرفع صوته في حضرته من عظيم هيئته.

ويقول الرواة: إنه إذا جاء إلى المأمون بادره الحجاب والخدم بين يديه، ورفعوا له الستر، ولما بلغهم أنه المأمون يريد أن يبايع له بولاية العهد توأصوا على أنه إذا جاء لا يصنعون له الحفاوة والتكريم الذي كانوا يصنعونه وجاء الإمام على عادته فأخذتهم هيئته وبادروا إلى تكريمه كما كانوا يصنعون، وتلاوموا فيما بينهم وأقسموا أنه إذا عاد لا يقابلوه بذلك التكريم، ولما جاء عليه السلام في اليوم الثاني قاموا إليه وسلموا عليه إلا أنهم لم يرفعوا له الستر، فجاءت ريح فرفعته كعادته، ولما أراد الخروج أيضاً رفعت الريح الستر، فقال بعضهم لبعض: إن لهذا الرجل شأناً والله به عناية ارجعوا إلى خدمتكم^(٢).

هذه الهيبة هي من الله سبحانه وتعالى أودعها أهل بيته:

(١) سورة القلم: الآية، ٤.

(٢) الاتحاف بحب الأشراف ص ٥٨.

دخل عبد الله بن مطرق على المأمون يوماً وعنده علي بن موسى الرضا، قال له المأمون: ما تقول في أهل هذا البيت؟ فقال عبد الله: ما أقول في طينة عجنت بماء الرسالة وغرست بماء الوحي، هل ينفع منها إلا مسك الهدى، وعنبر التقى.

عندها دعا المأمون بحقه فيها لؤلؤ فحشا فاه^(١) حتى لا يعيدها أمام الناس.

نشأته:

توفرت للإمام الرضا عليه السلام جميع عوامل التربية الرفيعة ومكوناتها الفكرية والاجتماعية، فنشأ كما نشأ آباؤه العظام الذين هم من ذخائر الإسلام، في بيت الإمامة ومركز الوحي، ذلك البيت الكريم الذي أذن الله أن يرفع، ويذكر فيه اسمه. في هذا البيت العريق ترعرع الإمام وقد سادت فيه أرقى وأسمى ألوان التربية الإسلامية الرفيعة، والآداب الرفيعة والأخلاق الكريمة، فلا يسمع فيه إلا تلاوة كتاب الله، والحث على العمل الصالح وكل ما يقرب الإنسان من ربه ويفيد مجتمعه واخوانه.

ولا يخفى على أحد أن التربية البيتية هي من أهم العوامل في تكوين الشخصية الإنسانية، وهذا ما أكده علماء التربية؛ فالبيت الذي تسود فيه الإلفة والمحبة والعادات الرفيعة والتقاليد النبيلة يتجنب فيه هجر الكلام، وينشأ فيه الطفل نشأة سليمة بعيدة عن التعقيد والسلوك السيء، أما إذا كان البيت مصاباً بالانحراف والشذوذ، وتعشعش فيه البغضاء والكراهية، فإن الطفل يمني حتماً بالتعقيد والانحراف والجنوح.

أما البيت الذي نشأ فيه الرضا عليه السلام فهو من أعز البيوت وأمنعها في دنيا الإسلام، فقد كان متبعاً للفضيلة ومثلاً أعلى للأخلاق الكريمة، لذلك تراه قد أنجب خيرة البشر وأئمة الهدى الذين نشروا الحق والعدل في الإسلام. وكذلك البيئة الاجتماعية فلها تأثير كبير في تكوين الشخص وفي نشأته

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص ١١٢ وقد أعطاه المأمون هذه الحققة حتى لا يعيد هذه المقولة الكريمة مرة أخرى أمام الناس!!

الأولى . فالبيئة التي نشأ فيها الإمام الرضا عليه السلام ضمت خيرة الرجال ، وخيرة الأصحاب وأفضل العلماء الذين نهلوا من علوم أبيه الإمام الكاظم عليه السلام ؛ ومن غيره من العلماء المعروفين في عصره .

سلوكه:

كان سلوكه عليه السلام سلوكاً رائعاً كسلوك آبائه الذين عرفوا بنكران الذات والتجرد عن كل نزعة لا تمت إلى الحق بصلة . فتميز سلوكه بالصلابة للحق ومناهضة الباطل . وكم مرة كان يعني على المأمون تصرفاته التي لا تتفق مع واقع الدين ويأمره بتقوى الله تعالى . وهذا ما جعله يضيق منه ذرعاً ، أما سلوكه مع أبنائه فقد تميز بأروع صفات التربية الإسلامية وبصورة خاصة مع ولده الإمام الجواد عليه السلام فكان لا يذكره باسمه ، وإنما كان يكنيه فيقول : كنت كتبت إلى أبي جعفر . كل ذلك لتنمية روح العزة والكرامة في نفسه .

وكذلك سلوكه مع أهل بيته وإخوانه كان مثالاً آخر للصرامة في الحق ، فمن شذ منهم في تصرفاته عن أحكام الله تعالى ابتعد عنه وجافاه ، وقد حلف أن لا يكلم أخاه زيداً حتى يلقي الله تعالى حينما اقترف ما خالف شريعة الله .

ومن مكارم أخلاقه وسلوكه الحسن . إحسانه إلى العبيد :

كان عليه السلام كثير البر والإحسان إلى العبيد ، وقد روى عبد الله بن الصلت عن رجل من أهل (بلخ) قال : كنت مع الإمام الرضا عليه السلام في سفره إلى خراسان ، فدعا يوماً بمائدة فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم فقلت : جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة ، فانكر عليه ذلك وقال له : «إن الرب تبارك وتعالى واحد ، والأم واحدة ، والجزاء بالأعمال»^(١) .

ومن صفاته النبيلة : عتقه للعبيد :

كان من أحب الأمور إليه عليه السلام عتقه للعبيد ، وتحريرهم من العبودية ، ويقول الرواة : أنه أعتق ألف مملوك^(٢) .

(١) البحار: ج ١٢ ص ١٨ .

(٢) الاتحاف بحب الأشراف ص ٥٨ .

ومن صفاته الحميدة تكريمه الضيوف:

كان عليه السلام يكرم الضيوف، ويغدق عليهم بنعمه وإحسانه، فيبادر بنفسه لخدمتهم، وقد استضافه شخص، وكان الإمام يحدثه في بعض الليل فتغير السراج فبادر الضيف لاصلاحه، فوثب الإمام عليه السلام وأصلحه بنفسه، وقال لضيفه: أنا قوم لا نستخدم أضيافنا^(١).

زهده:

كان الإمام الرضا عليه السلام زاهداً في الدنيا يعرض عن زينتها ومباهجها، فجلوسه على حصيرة في الصيف وعلى مسح^(٢) في الشتاء ولباسه الغليظ من الثياب حتى إذا برز للناس تزيهاً. يقول الرواة: إنه التقى بسفيان الثوري، وكان الإمام قد لبس ثوباً من خز، فأنكر عليه ذلك وقال له: لو لبست ثوباً أدنى من هذا؟ فأخذ الإمام يده برفق، وأدخلها في كفه فإذا تحت ذلك الثوب مسح، وقال عليه السلام له:

«يا سفيان الخز للخلق، والمسح للحق»^(٣).

لقد كان الزهد من أبرز صفاته ومن أظهر مكوناته النفسية.

كرمه:

كان أحب شيء إلى الإمام في الدنيا البر بالفقراء والإحسان للناس، وقد ذكر المؤرخون بوادر كثيرة من جوده واحسانه نذكر بعضاً منها:

أ - في يوم من أيام عرفة أنفق كل ما عنده على الفقراء، فأنكر عليه الفضل بن سهل وقال له: «إن هذا المغرم...».

فأجابه الإمام عليه السلام: «بل هو المغنم لا تحدث مغرمًا ما ابتغيت به أجراً وكرماً» إن صلة الفقراء والإحسان إلى الضعفاء في رأي الإمام عليه السلام هي مغنم

(١) البحار: ج ١٢ ص ١٨.

(٢) المسح: كساء من الشعر.

(٣) المناقب: ج ٤ ص ٣٦١ وعيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٧٨.

أبدأ إنما المغرم هو الإنفاق بغير وجه مشروع؛ كانفاق الملوك والأمراء والوزراء الأموال الطائلة على المغنين والعابثين والجواري والغلمان.

ب - ومن سخائه أنه إذا أتى بصفحة طعام عمد إلى أطيب ما فيها ووضعها في تلك الصفحة ثم يأمر بها إلى المساكين، ويتلو هذه الآية: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا أَفْحَمَ الْعَقَبَةَ﴾^(١) ثم يقول:

«علم الله عز وجل أن ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل له السبيل إلى الجنة»^(٢).

ج - ووفد عليه رجل فسلم عليه، وقال له: أنا رجل من محبيك ومحبي آبائك، ومصدري من الحج، وقد نفدت نفقتي، وما معي ما أبلغ مرحلة، فإن رأيت أن ترجعني إلى بلدي، فإذا بلغت تصدقت بالذي تعطيني عنك، فقال له: إجلس رحمك الله وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا، وبقي هو وسليمان الجعفري، وحيثمة، فاستأذن الإمام منهم ودخل الدار ثم خرج وقال: أين الخراساني؟، فقام إليه فقال عليه السلام له: خذ هذه المائتي دينار واستعن بها في مؤنتك ونفقتك، ولا تتصدق بها عني، وانصرف الرجل مسروراً وقد غمرته نعمة الإمام، فالتفت إليه سليمان فقال له:

جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت، فلماذا سترت وجهك عنه. . .
فأجابه عليه السلام: إنما صنعت ذلك مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته، أما سمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: والمستتر بالحسنة تعدل سبعين حجة، والمذيع بالسيئة مخذول. . . أما سمعت قول الشاعر:
متى آتاه يوماً لأطلب حاجة رجعت إلى أهلي ووجهي بمائه^(٣)

د - ومن بوادر جوده:

أن فقيراً قال له: «اعطني على قدر مروءتك. . .».

فأجابه الإمام عليه السلام: «لا يسعني ذلك. . .».

(١) سورة البلد: الآية، ١٠. ١١.

(٢) البحار: ج ١٢ ص ٢٨.

(٣) البحار: نفسه ص ٢٨.

والتفت الفقير إلى خطأ كلامه فقال ثانياً:

«اعطني على قدر مروّتي . . .» فقابله الإمام ببسمات فياضة بالبشر قائلاً:
«إذن نعم . . .» وأمر له بمائتي دينار^(١).

إن مروءة الإمام عليه السلام لا تقاس بثمن ولا تعد فلو أعطاه جميع ما عنده
فليس ذلك على قدر مروءته التي هي امتداد لمروءة آبائه وأجداده عليهم السلام.
هـ - ومن بوادر سخائه وكرمه:

ما رواه أحمد بن عبيد الله عن الغفاري، قال: كان لرجل من آل أبي رافع
مولى رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ حق فتقاضاني، وألح عليّ، فلما رأيت ذلك صليت
الصبح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم توجهت نحو الإمام الرضا عليه السلام وكان
في العريض، فلما قربت من بابه خرج وعليه قميص ورداء، فلما نظرت إليه،
استحييت منه، ووقف لما رأيته فسلمت عليه وكان ذلك في شهر رمضان فقلت
له: جعلت فداك لمولاك علي - فلان - عليّ حق، شهري، فأمرني بالجلوس حتى
يرجع فلم أزل في ذلك المكان حتى صليت المغرب، وأنا صائم وقد مضى بعض
الوقت فهممت بالانصراف، فإذا الإمام قد طلع وقد أحاط به الناس، وهو يتصدق
على الفقراء والمحوجين، ومضيت معه حتى دخل بيته ثم خرج فدعاني فقامت
إليه، وأمرني بالدخول إلى منزله فدخلت، وأخذت أحدثه عن أمير المدينة، فلما
فرغت من حديثي قال لي:

ما أظنك أفطرت بعد، قلت: لا. فدعا لي بطعام، وأمر غلامه أن يتناول
معي الطعام. ولما فرغت من الافطار أمرني أن أرفع الوسادة، وأخذ ما تحتها
فرفعتها فإذا دنانير، فوضعتها في كمي، وأمر بعض غلمانه أن يبلغوني إلى منزلي،
فمضوا معي، ولما صرت إلى منزلي دعوت السراج ونظرت إلى الدنانير فإذا هي
ثمانية وأربعون ديناراً، وكان حق الرجل عليّ ثمانية وعشرين ديناراً، وقد كتب
على دينار منها أن حق الرجل عليك ثمانية وعشرون ديناراً وما بقي فهو لك^(٢).

(١) المناقب: ج ٤ ص ٣٦١.

(٢) البحار: ج ١٢ ص ٢٨.

هذه بعض بوادر كرمه، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل عن نفس كريمة خلقت للإحسان والبر والمعروف إلى جميع الناس المحتاجين، نفس كانت ملتقى الفضيلة بجميع أبعادها وصورها، فلم تبق صفة نبيلة يسمو بها الإنسان المؤمن إلا وهي من ذاته ومن نزعاته، فقد وهبه الله تعالى كما وهب آباءه العظام بكل مكرمة، وجعله علماً لأمة جده عليه السلام يهتدي بها الحائر وتستنير بها العقول.

عبادة الإمام الرضا عليه السلام:

من أبرز صفات الإمام الذاتية انقطاعه كلياً إلى الله تعالى، وتمسكه به في كل شؤونه. وقد ظهر ذلك في عبادته التي مثلت جانباً كبيراً من حياته الروحية فهو صاحب وضوء وصلاة، يقيم ليله كله يتوضأ ويصلي، ويرقد وهكذا إلى الصباح^(١). يقول بعض جماعته: ما رأيته قط إلا ذكرت قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ وَيَا أَسْحَارَ هُمْ يَسْتَفِرُونَ﴾^(٢).

كان الإمام عليه السلام أتقى أهل زمانه، وأكثرهم طاعة لله تعالى، ولنسمع ما يرويه رجاء بن أبي الضحاك عن عبادته عليه السلام. قال:

«بعثني المأمون في إشخاص علي بن موسى عليه السلام من المدينة، وقد أمرني أن آخذ به على طريق البصرة والأهواز وفارس، ولا آخذ به على طريق قم وأمرني أن أحفظه بنفسي بالليل والنهار حتى أقدم به عليه، فكنت معه من المدينة إلى مرو فوالله ما رأيت رجلاً كان أتقى لله تعالى منه، ولا أكثر ذكراً لله في جميع أوقاته منه ولا أشد خوفاً لله عز وجل منه، وكان إذا أصبح صلى الغداة فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهلله ويصلي على النبي عليه السلام حتى تطلع الشمس، ثم يسجد سجدة يبقى فيها حتى يتعالى النهار، ثم أقبل على الناس يحدثهم ويعظهم إلى قرب الزوال، ثم جدد وضوءه وعاد إلى مصلاه فإذا زالت الشمس قام فصلى ست ركعات يقرأ في الركعة الأولى الحمد وسورة: وقل يا أيها الكافرون. وفي الثانية الحمد: وقل هو الله أحد ويقرأ في الأربع في كل ركعة

(١) راجع الاتحاف بحب الأشراف ص ٥٩.

(٢) سورة الذاريات: الآيات ١٧، ١٨.

الحمد وقل هو الله أحد. ويسلم في كل ركعتين، ويقنت فيهما في الثانية قبل الركوع وبعد القراءة، ثم يؤذن ويصلي ركعتين، ثم يقيم ويصلي الظهر، فإذا سلم سبح الله وحمده وكبره وهله ما شاء الله ثم سجد سجدة الشكر يقول فيها مائة مرة شكراً لله، فإذا رفع رأسه قام فصلي ست ركعات يقرأ في كل ركعة الحمد وقل هو الله أحد، ويسلم في كل ركعتين، ويقنت في الثانية كل ركعتين قبل الركوع وبعد القراءة، ثم يؤذن ثم يصلي ركعتين ويقنت في الثانية فإذا سلم قام وصلى العصر، فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهله ما شاء الله ثم، سجد سجدة يقول فيها مائة مرة حمداً لله.

فإذا غابت الشمس توضأ وصلى المغرب ثلاثاً بأذان وإقامة، وقنت في الثانية قبل الركوع وبعد القراءة، فإذا سلم جلس في مصلاه يسبح الله ويحمده ويكبره ويهله ما شاء الله، ثم يسجد سجدة الشكر ثم يرفع رأسه ولم يتكلم حتى يقوم ويصلي أربع ركعات بتسليمتين ويقنت في كل ركعتين في الثانية قبل الركوع وبعد القراءة، وكان يقرأ في الأولى من هذه الأربع الحمد وقل يا أيها الكافرون، وفي الثانية الحمد وقل هو الله أحد، ثم يجلس بعد التسليم في ما شاء الله، ثم يفطر ثم يلبث حتى يمضي من الليل قريب من الثلث، ثم يقوم فيصلّي العشاء الآخرة أربع ركعات ويقنت في الثانية قبل الركوع وبعد القراءة، فإذا سلم جلس في مصلاه يذكر الله عز وجل ويسبحه ويحمده ويكبره ويهله ما شاء الله ويسجد بعد التعقيب سجدة الشكر، ثم يأوي إلى فراشه.

وإذا كان الثلث الأخير من الليل قام من فراشه بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار، فاستاك ثم توضأ ثم قام إلى صلاة الله، فصلّى ثماني ركعات ويسلم في كل ركعتين، يقرأ في الأولين منها في كل ركعة الحمد مرة وثلاثين مرة قل هو الله أحد.

ثم يصلي صلاة جعفر بن أبي طالب أربع ركعات يسلم في كل ركعتين، ويقنت في كل ركعتين في الثانية قبل الركوع، ويحتسب بها من صلاة الليل، ثم يصلي الركعتين الباقيتين، ويقرأ في الأولى الحمد وسورة الملك، وفي الثانية الحمد وهل أتى على الإنسان، ثم يقوم فيصلّي ركعتي الشفع، يقرأ في كل ركعة

الحمد مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات، ويقنت في الثانية، ثم يقوم فيصلّي الوتر ركعة يقرأ فيها الحمد، وقل هو الله أحد ثلاث مرات وقل أعوذ برب الفلق مرة واحدة، وقل أعوذ برب الناس مرة واحدة، ويقنت فيها قبل الركوع وبعد القراءة، ويقول في قنوته:

«اللهم صل على محمد وآل محمد، اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك أنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت وتعاليت...».

ثم يقول: استغفر الله وأسأله التوبة سبعين مرة، فإذا سلم جلس في التعقيب ما شاء الله، وإذا قرب الفجر قام فصلّي ركعتي الفجر يقرأ في الأولى الحمد وقل يا أيها الكافرون وفي الثانية الحمد وقل هو الله أحد، فإذا طلع الفجر أذن وأقام وصلّي الغداة ركعتين فإذا سلم جلس في التعقيب حتى تطلع الشمس، ثم سجد سجدة الشكر حتى يتعالى النهار.

وكانت قراءته في جميع المفروضات في الأولى: الحمد وإنا أنزلناه.

وفي الثانية الحمد وقل هو الله أحد، إلا في صلاة الغداة والظهر والعصر يوم الجمعة، فإنه كان يقرأ فيها الحمد وسورة الجمعة.

وفي الثانية الحمد وسبح اسم ربك الأعلى. وهل أتى على الإنسان.

وفي الثانية الحمد وهل أتاك حديث الغاشية، وكان يجهر بالقراءة في المغرب والعشاء، وصلاة الليل والشفع والوتر والغداة.

ويخفي القراءة في الظهر والعصر، وكان يسبح في الأخيرتين يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ ثلاث مرات.

وكان قنوته في جميع صلواته: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأجل الأكرم.

وكان إذا أقام في بلدة عشرة أيام صائماً لا يفطر، فإذا جن الليل بدأ بالصلاة قبل الافطار. وكان في الطريق يصلّي فرائضه ركعتين ركعتين إلا المغرب فإنه كان

يصليها ثلاثاً ولا يدع نافلتها ولا يدع صلاة الليل والشفع والوتر وركعتي الفجر في سفر ولا حضر. وكان لا يصلي من نوافل النهار في السفر شيئاً، وكان يقول بعد كل صلاة يقصرها:

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثلاثين مرة ويقول هذا تمام الصلاة.

وما رأيتُه صلى الضحى في سفر ولا حضر، وكان لا يصوم في السفر شيئاً، وكان يبدأ في دعائه بالصلاة على محمد وآله ويكثر من ذلك في الصلاة وغيرها. وكان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن، فإذا مر بآية فيها ذكر جنة أو نار بكى، وسأل الله الجنة وتعوذ به من النار، وكان يجهر بسم الله الرحمن الرحيم في جميع صلواته بالليل والنهار، وكان إذا قرأ قل هو الله أحد قال سرّاً: الله أحد. فإذا فرغ منها قال: كذلك الله ربنا ثلاثاً.

وكان إذا قرأ سورة الحجر قال في نفسه سرّاً: يا أيها الكافرون، فإذا فرغ منها قال: ربي الله وديني الإسلام. وكان إذا قرأ: والتين والزيتون قال: عند الفراغ منها: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

وكان إذا قرأ: لا أقسم بيوم القيامة قال عند الفراغ منها: سبحانك اللهم، وكان يقرأ في سورة الجمعة: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ اللَّهِ الْجَزَاءُ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾^(١).

وكان إذا فرغ من الفاتحة قال: الحمد لله رب العالمين. وإذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى، قال سرّاً: سبحان ربي الأعلى، وإذا قرأ يا أيها الذين آمنوا قال: لبيك اللهم لبيك سرّاً.

وكان لا ينزل بلدأ إلا قصده الناس يستفتونه في معالم دينهم؛ فيجيئهم ويحدثهم الكثير عن أبيه عن آباءه وعن أجداده علي بن أبي طالب عليه السلام ورسول الله ﷺ.

(١) سورة الجمعة: الآية، ١١.

فلما وردت به على المأمون سألني عن حاله في طريقه، فأخبرته بما شاهدته منه في ليله ونهاره وطمعته وإقامته، فقال لي:

يا ابن أبي الضحاك هذا خير أهل الأرض وأعلمهم وأعبدهم، فلا تخبر أحداً بما شاهدته منه لئلا يظهر فضله إلا على لساني، وبالله أستعين ما أقوى من الدفع منه والاساءة إليه^(١).

فيا سبحان الله!! المأمون يعلم كل هذه المآثر الطيبة عن ابن بنت رسول الله ﷺ ثم يقدم على اغتياله بالسم حسب ما أكدت أكثر المصادر؟؟! إنه الحاكم العباسي الذي بهر بصولجان الحكم الذي ضحى بأخيه من أجله، وأنها السياسة القذرة وحب الدنيا والتكالب على مباحجها، ونسيان الآخرة وأسرارها ورضوانها.

روى الصولي عن جدته خادمة الرضا عليه السلام: كان إذا صلى الغداة وكان يصلها في أول وقت ثم يسجد، فلا يرفع رأسه إلى أن ترفع الشمس ثم يقوم، فيجلس للناس أو يركب^(٢).

وفي رواية إبراهيم بن العباس: «وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر يحيي أكثر لياليه من أولها إلى الصبح، وكان كثير الصيام فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر ويقول: ذلك صوم الدهر»^(٣).

دعاء الإمام الرضا عليه السلام:

أدعية الأئمة المعصومين عليهم السلام وسيلة من وسائلهم الكثيرة للنهوض بالأمة الإسلامية لتكون أفضل أمة أخرجت للناس. فقد جمعت أدعيتهم المباركة بين التوحيد، والدعوة إلى الخير والفضيلة، والأمر بمكارم الأخلاق، وهي تعد دروساً عالية لا يستغني عنها المسلم المؤمن. ولعل الزمن يجود بباحثين أكفاء يشبعونها بحثاً وافية فيكشفون عما حوته من علوم حضارية وتعاليم إنسانية؛ نحن اليوم بأمس الحاجة إليها.

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٨٠.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٨٤.

الدعاء سلاح الأنبياء:

حث الإمام عليه السلام أصحابه على الدعاء إلى الله تعالى فقال لهم:
عليكم بسلاح الأنبياء فليل له: وما سلاح الأنبياء؟.
قال عليه السلام: الدعاء^(١).

إخفاء الدعاء:

كما دعا الإمام أصحابه إلى إخفاء الدعاء، وأوصاهم أن يدعو ربهم سراً لا يعلم به أحد، قال عليه السلام: دعوة العبد سراً دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية^(٢).

تسلح الإمام بالدعاء:

من مظاهر حياة الإمام الروحية تسلحه بالدعاء إلى الله تعالى، والتجاؤه إليه في جميع أموره، العادية والصعبة. وكان عليه السلام يجد في الدعاء متعة من متع الحياة وراحة نفسية. وسوف نعرض لبعض أدعيته عليه السلام.

من دعاء له عليه السلام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الله كما ينبغي لله، والحمد لله كما ينبغي لله، ولا إله إلا الله كما ينبغي لله، والله أكبر كما ينبغي لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على محمد وأهل بيته، وصلى الله على جميع المرسلين والنبيين حتى يرضى الله»^(٣).

من دعاء له عليه السلام في قنوته:

«الفرع، الفرع إليك يا ذا المحاضرة، والرغبة الرغبة إليك يا من به المفاخرة، وأنت اللهم مشاهد هواجس النفوس، ومراصد حركات شيء منه

(١) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ج ٢ ص ٤٧٦.

(٣) منتخب الدعوات: ص ٨٠.

موضعه بعلمه؛ سبحانه من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»^(١).

ومن دعاء له عليه السلام:

«يا من لا شبيه له ولا مثال له، أنت الله لا إله إلا أنت، ولا خالق إلا أنت، تغني المخلوقين وتبقى أنت، حلمت عنم عصاك وفي المغفرة رضاك»^(٢).

ومن دعاء له عليه السلام في الطواف:

يا الله يا ولي العافية، ويا خالق العافية، ويا رازق العافية، والمنعم بالعافية والمنان بالعافية، والمتفضل بالعافية علي وعلى جميع خلقك، يا رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، صل على محمد وآل محمد، وارزقنا العافية، ودوام العافية، وتمام العافية، وشكر العافية، في الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين»^(٣).

إبطاء الإجابة في الدعاء:

روى أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: قلت لأبي الحسن: جعلت فداك إني قد سألت الله حاجة منذ كذا سنة، وقد دخل قلبي من إبطائها شيء؟ فقال عليه السلام: يا أحمد إياك والشيطان أن يكون له عليك سبيل حتى يقنطك، إن أبا جعفر الإمام الباقر عليه السلام: كان يقول: إن المؤمن يسأل الله عز وجل حاجته فيؤخر عنه تعجيل إجابته حباً لصوته، واسماع نحيبه، ثم قال: والله ما أخر الله عز وجل عن المؤمنين ما يطلبون من هذه الدنيا خير لهم مما عجل لهم فيها، وأي شيء الدنيا؟ إن أبا جعفر كان يقول:

«ينبغي للمؤمن أن يكون دعاؤه في الرخاء نحواً من دعائه في الشدة، ليس إذا أعطى فتر، فلا تمل الدعاء، فإنه من الله عز وجل بمكان، وعليك بالصبر، وطلب الحلال وصلة الرحم، وإياك ومكاشفة الناس، فأنا أهل بيت نصل من قطعنا ونحسن إلى من أساء إلينا، فنرى والله في ذلك العافية الحسنة، إن صاحب

(١) عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ١١٩.

(٢) مهج الدعوات: ص ٣٦.

(٣) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٦.

النعمة في عينه، فلا يشبع من شيء، وإذا أكثرتم النعم كان المسلم من ذلك في خطر للحقوق التي تجب عليه، وما يخاف من الفتنة فيها».

«أخبرني عنك لو أنني قلت لك قولاً، أكنت تثق به مني؟ وسارع أحمد قائلاً: جعلت فداك إذا لم أثق بقولك فبمن أثق، وأنت حجة الله على خلقه...».

قال الإمام عليه السلام: «فكن بالله أوثق فإنك على موعد من الله».

ومن أدعيته عليه السلام:

اللهم العن قتلة أمير المؤمنين، وقتلة الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

اللهم زدهما عذاباً فوق عذاب، وهواناً فوق هوان، وذلاً فوق ذل وخزياً فوق خزي.

اللهم دعهما في النار دعا، واركسهما في أليم عذابك ركساً، اللهم احشرهما إلى جهنم زمراً. اللهم فرق جمعهم وشتت أمرهم، وخالف بين كلمتهم، وبدد جماعتهم، والعن أئمتهم، واقتل قادتتهم، وسادتهم، وكبراءهم، والعن رؤساءهم، واكسر راياتهم، والقت البأس بينهم ولا تبق منهم دياراً.

اللهم العن أبا جهل والوليد لعناً يتلو بعضه بعضاً، ويتبع بعضه بعضاً، اللهم العنهما لعناً يلعنهما به كل ملك مقرب، وكل نبي مرسل، وكل مؤمن امتحت قلبه للإيمان. اللهم العنهما في ستر شرك، وظاهر علنيتك، وعذبهما عذاباً في التقدير، وشارك معهما. . وأشياعهما ومحبيهما ومن شايعهما إنك سميع الدعاء»^(١).

نلاحظ من خلال هذا الدعاء نقمة الإمام على بعض الخلفاء الذين استولوا بغير حق على السلطة العامة في البلاد، فظلموا وجاروا ودمروا العالم الإسلامي، وذلك باقضاء العترة الطاهرة عن السلطة، وهي أعلم بشؤون الإسلام وأحكامه من غيرهم، وهذا الدعاء أيضاً هو من الأدعية السياسية.

(١) مهج الدعوات: ص ٣٢٠.

ومن دعاء له عليه السلام في القنوت أيضاً:

«رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، إنك أنت الأعز الأجل الأكرم»^(١).

ومن دعاء له عليه السلام في سجوده:

«لك الحمد إن أطعتك، ولا حجة لي إن عصيتك، ولا صنع لي ولا لغيري في إحسانك، ولا عذر لي إن أسأت؛ ما أصابني من حسنة فمك يا كريم، اغفر لمن في مشارق الأرض ومغاربها من المؤمنين والمؤمنات»^(٢).

ومن دعاء له عليه السلام :

«سبحان من خلق الخلق بقدرته، وأتقن ما خلق بحكمته، ووضع كل القلوب، ومطالع مسرات السرائر من غير تكلف ولا تعسف، وقد ترى اللهم ما ليس عنك بمنظور، ولكن حلمك من أهله عليه جرأة وتمرداً وعتواً وعناداً، وما يعانيه أولياؤك من تعفية آثار الحق، ودروس معالمه، وتزايد الفواحش، واستمرار أهلها عليها، وظهور الباطل وعموم التغاشم، والتراضي بذلك المعاملات والمتفرقات، وقد جرت به العادات، وصار كالمفروضات والمسنونات.

اللهم فبادر الذي من أعنته به فاز، ومن أيدته لم يخف لمز لمام، وخذ الظالم أخذاً عنيفاً، ولا تكن له راحماً ولا به رؤوفاً.

اللهم اللهم اللهم باللهم بادرهم، اللهم عاجلهم، اللهم لا تهملهم، اللهم غادرهم بكرة وهجرة، وسحرة وبياتاً وهم نائمون. وضحى وهم يلعبون، ومكراً وهم يمكرون وفجأة وهم آمنون.

اللهم بدهم وبدد أعوانهم، واقلل أعضادهم واهزم جنودهم، واقلل حدهم، واجتث سنامهم وأضعف عزائمهم.

اللهم امنحنا أكتافهم، وملكنا أكتافهم، وبدلهم بالنعم النقم، وبدلنا من محاذرتهم وبغيهم بالسلام وأغنمناهم أكمل المغنم، اللهم لا ترد بأسك الذي إذا

(١) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٣.

حل بقوم فساء صحاح المنذرين»^(١).

يرشح من هذا الدعاء نقمة الإمام عليه السلام على الظالمين والمستبدين من حكام عصره الذين أغرقوا العالم الإسلام بالمحن والخطوب، وأرغموا المسلمين على ما يكرهون، ويعد هذا الدعاء من الأدعية السياسية التي وصفت الأوضاع الراهنة في ذلك العصر.

دعاؤه عليه السلام في سجدة الشكر:

روى سليمان بن جعفر قال: دخلنا على الإمام عليه السلام وهو ساجد في سجدة الشكر، فأطال سجوده، ثم رفع رأسه، فسأله عن إطالة سجوده فأخبرهم أنه دعا بهذا الدعاء، وحثهم عليه، وأمرهم بكتابته فكتبوه وهذا نصه:

«اللهم العن اللذين بدلا دينك، وغيرا نعمتك، واتهما رسولك عليه السلام وخالفا ملتك وصدا عن سبيلك، وكفرا آلاءك، وردا عليك كلامك واستهزاء برسولك، وقتلا ابن نبيك، وحرفا كتابك، وجحدا آياتك وجلسا في مجلس لم يكن لهما بحق، وحمله الناس على أكتاف آل محمد.

اللهم العنهما لعنا يتلو بعضه بعضاً، واحشرهما وأتباعهما إلى جهنم رزقا، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَيُؤْمِنُوا بِمَا لَعَنَهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٣).

ومن أدعيته دعاء يرد به ظلم الظالمين:

«بسم الله الرحمن الرحيم، يا من لا شبيه له، ولا مثال، أنت الله لا إله إلا أنت، ولا خالق إلا أنت، تغني المخلوقين، وتبقى، أنت حلمت عنم عصاك وفي المغفرة رضاك»^(٤).

(١) مهج الدعوات: ص ٧٣.

(٢) سورة البقرة: الآية، ١٨٦.

(٣) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

(٤) مهج الدعوات: ص ٤٤.

ومن أدعيته دعاء بطلب الأمن والإيمان قال عليه السلام:

«يا من دلني على نفسه، وذلل قلبي بتصديقه، أسألك الأمن والإيمان في الدنيا والآخرة»^(١).

فهذا الدعاء على ايجازه، هو حافل بظاهرة من ظواهر التوحيد وهي أن الله تعالى دلل على ذاته، وعرف نفسه لخلقه، وذلك بما أبدعه في هذا الكون من العجائب والغرائب، وكلها تنطق صارخة بوجوده، وبما أودعه في الإنسان من أجهزة تتكامل وتتعاون لتصل به إلى حياة هائلة سعيدة، من هنا كان الحديث الشريف: «من عرف نفسه عرف ربه».

ومن أدعيته دعاء يطلب فيه الانقياد الكامل إلى الله تعالى قال:

«اللهم اعطني الهدى وثبني عليه، واحشرنى عليه آمناً أمن من لا خوف عليه، ولا حزن ولا جزع إنك أهل التقوى، وأهل المغفرة...»^(٢).

هذه بعض الأدعية على سبيل الذكر لا الحصر، تكشف عن جانب مهم من حياة الإمام الرضا عليه السلام الروحية، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على انقطاعه إلى الله تعالى والاتصال به، والاعتصام بحبله، كما تدل عن بعض معالم شخصيته الكريمة والعظيمة، وما عانى في عصره من ظلم وجور واضطهاد.



(١) أصول الكافي: ج ٢ ص ٥٧٩.

(٢) أعيان الشيعة: ج ٤ ص ١٩٧.

النص عليه بالخلافة

من رحمة الله الواسعة سبحانه وتعالى ورأفته بعباده أن جعل أول خلقه خليفة له في أرضه، ومرشداً لعباده، وهادياً لهم إلى سبيل الرشاد، وذلك إقامة للحجة، وقطعاً للمعاذير قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١).

وقال تعالى أيضاً مخاطباً النبي الكريم داود: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(٢).

وما زال سبحانه وتعالى يرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين، وكان خاتمهم نبينا محمد ﷺ فقد اقتضت حكمته جل شأنه أن يختم به الأنبياء، ويجعل شريعته خاتمة الشرائع، ودينه مكماً للأديان السابقة.

وفي أخريات السنة العاشرة من الهجرة أعلن الرسول ﷺ عزمه على الحج، وأنها يوشك أن تكون آخر حجة له ﷺ وبعد أن أدى ﷺ مراسم الحج، قفل راجعاً إلى المدينة، يحف به الألوف من المسلمين، ولما وصل ركب الميمون إلى «غدِير خم» أمر ﷺ بنصب منبر له من أحجاج الإبل فارتقاه وجعل علياً دونه بمرقاة، وخطب ﷺ في ذلك الحشد العظيم ثم أخذ بيد علي ﷺ وقال ﷺ:

«ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»، ثم أمر المسلمين بالتسليم عليه بأمره المؤمنين، فبايع المسلمون كلهم للإمام ﷺ وكانوا ما يزيد عن مائة ألف نسمة. وفي ذلك اليوم التاريخي العظيم نزل جبرائيل ﷺ بهذه الآية الكريمة:

(١) سورة الأنعام: الآية، ١٤٩.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١).

ولم يكن قصد الرسول الأعظم عليه السلام إقامة أمير المؤمنين عليه السلام في مقامه فحسب، بل أراد أن تمتد حكومة السماء، ويستمر الأئمة عليهم السلام بالقيام بأعباء الخلافة، واحداً بعد واحد، والأئمة عليهم السلام اضطهدوا وظلموا في العصرين الأموي والعباسي، وتعقبتهم سلطات الجور سجناً وقتلاً وتشريداً، لكنهم طيلة هذه المدة الصعبة لم يتركوا رعاية المسلمين وتوجيههم ودعوتهم إلى الله تعالى، فقد فتحوا المدارس وتخرج عليهم جل من عاصرهم من علماء المسلمين ورؤساء المذاهب الأخرى، حتى ملؤا الدنيا بعلومهم، ودونت مئات المصنفات في حياتهم فقد ذكر الجميع الأصول الأربعمئة التي دونها تلاميذهم.

وموضوع (النص) اعتنى به الأئمة عليهم السلام واهتموا به كثيراً، فقد كان بعضهم ينص على البعض، إقامة للحجة على الناس، ويفسح المجال للمسلمين جميعاً معرفة إمام العصر، وأخذ الأحكام منه.

وقد مر علينا فيما سبق نصوص الأئمة عليهم السلام بعضهم على بعض، وسوف نذكر هنا في هذه الصفحات بعض ما ورد من النصوص عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام على ولده الإمام علي الرضا عليه السلام، قال الشيخ المفيد: «كان الإمام القائم بعد أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ابنه أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام لفضله على جماعة اخوته وأهل بيته، وظهور علمه وحلمه وورعه واجتماع الخاصة والعامة على ذلك فيه، ومعرفتهم به منه ولنص أبيه عليه السلام على إمامته من بعده، وإشارته إليه بذلك دون جماعة اخوته وأهل بيته. فممن روى النص على الرضا علي بن موسى عليه السلام بالإمامة من أبيه، والإشارة إليه منه بذلك من خاصته وثقاته وأهل الورع والعلم والفقهاء من شيعته عليهم السلام. وهم: داود بن كثير الرقي، ومحمد بن اسحق بن عمار، وعلي بن يقطين، ونعيم القابوسي، والحسين بن المختار، وزياد بن مروان، والمخزومي، وداود بن سليمان، ونضر بن قابوس، وداود بن زربي، ويزيد بن سليط ومحمد بن سنان»^(٢).

(١) سورة المائدة، الآية، ٣.

(٢) الإرشاد: ص ٢٨٤.

قال داود الرقي: وقلت لأبي إبراهيم عليه السلام جعلت فداك إني قد كبرت سني، فخذ بيدي وانقذني من النار، من صاحبنا بعدك؟ .

قال: فأشار إلى ابنه أبي الحسن عليه السلام فقال: هذا صاحبكم من بعدي^(١).
وروى الكليني أيضاً بإسناده عن محمد بن فضيل قال:

«حدثني المخزومي، وكانت أمه من ولد جعفر بن أبي طالب عليه السلام، قال: بعث إلينا أبو الحسن موسى عليه السلام فجمعنا ثم قال لنا: أتدرون لم دعوتكم؟ فقلنا: لا، فقال: اشهدوا أن ابني هذا وصي والقيّم بأمري وخليفتي من بعدي، من كان له عندي دين فليأخذه من ابني، هذا ومن كانت له عندي عدة فلينجذها منه، ومن لم يكن له بد من لقائي فلا يلقني إلا بكتابه»^(٢).

وروى بإسناده عن داود بن سليمان قال:

«قلت لأبي إبراهيم عليه السلام إني أخاف أن يحدث حدث ولا ألقاك؛ فأخبرني من الإمام بعدك؟ فقال: ابني فلان، يعني أبا الحسن»^(٣).

وقال محمد بن إسماعيل بن الفضل الهاشمي:

«دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وقد اشتكى شكاية شديدة، فقلت له: إن كان ما أسأل الله أن لا يريناه فإلى من؟ .

قال: إلى علي ابني، وكتابه كتابي، وهو وصي، وخليفي من بعدي»^(٤).
وقال علي بن جعفر:

«كنت عند أخي موسى بن جعفر عليه السلام، وكان والله حجة بعد أبي صلوات الله عليه، إذ طلع ابنه علي، فقال لي: يا علي هذا صاحبك، وهو مني بمنزلتني من أبي، فثبتك الله على دينه»^(٥).

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٦ والكافي ج ١ ص ٢٤٨.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٤٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٢١.

(٥) الغيبة للشيخ الطوسي ص ٢٨.

وروى بإسناده عن ابن سنان قال: «دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام وعلي ابنه جالس بين يديه، فنظر إلي فقال: يا محمد! أما إنه سيكون في هذه السنة حركة، فلا تجزع لذلك، قال: قلت: وما يكون جعلت فداك؟ فقد أقلقني ما ذكرت. فقال: أصير إلى الطاغية^(١)، أما إنه لا يبد أني منه سوء ومن الذي يكون بعده، قال: قلت: وما يكون جعلت فداك؟ قال: يضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء، قال: قلت: وما ذاك جعلت فداك؟ قال: من ظلم ابني هذا حقه وجحد إمامته من بعدي كان كمن ظلم علي بن أبي طالب حقه وجحد إمامته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: قلت: والله لئن مدّ الله لي في العمر لأسلمن له حقه ولأقرن له بإمامته قال: صدقت يا محمد يمد الله في عمرك وتسلم له حقه وتقر له بإمامته وإمامة من يكون من بعده، قال: قلت: ومن ذاك؟ قال: محمد ابنه قال: قلت له: الرضا والتسليم»^(٢).



(١) الطاغية: يعني به هارون الرشيد.

(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٥٦.

الإمامة

عرض الإمام الرضا عليه السلام في بحوثه العقائدية للإمامة في كثير من مناظراته وآثاره، ولكن لما رأيناه ما لها من أهمية في الإسلام حيث أنها تصون الأمة وتحميها، وتوفر لها الكرامة والحرية، وتحقق لها كل ما تصبو إليه، أحببنا أن نقف عندها وقفة تأمل ونسجل رأي الإمام الرضا عليه السلام في هذا المبدأ الأساسي في العقيدة الإسلامية.

أدلى الإمام عليه السلام بحديث شامل إلى عبد العزيز بن مسلم عرض فيه بصورة موضوعية عن أهمية الإمامة لأنها من أهم المبادئ والأهداف التي تبنها الإسلام. فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن ينتقل إلى القدس الشريفة، أقام القائد والمرجع لأمته، وهو أمير المؤمنين ورائد الفقه والحكمة في دنيا الإسلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال الإمام الرضا عليه السلام مخاطباً عبد العزيز بن مسلم:

«يا عبد العزيز جهل القوم، وخدعوا عن أديانهم. إن الله تبارك وتعالى لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تفصل كل شيء، بين فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه كاملاً فقال عز وجل:

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُرَىٰ إِلَيْكَ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾^(١).

وأنزل سبحانه وتعالى في حجة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٢).

(١) سورة الأنعام: الآية، ٣٨.

(٢) سورة المائدة: الآية، ٣.

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

فأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض عليه السلام حتى بين لأمته، معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد الحق، وأقام لهم علياً إماماً وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا بينه وأوضحه على الناس.

ومن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله عز وجل، ومن رد كتاب الله هو كافر بلا ريب.

يبدو واضحاً من خلال هذا النص الأهمية البالغة للإمامة عند النبي عليه السلام فهي من أهم المبادئ في الرسالة الإسلامية، فيها كمال الدين، واتمام النعمة، ولذلك اختار عليه السلام لهذا المنصب الهام والخطير أخاه وباب مدينة علمه الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه. فقد أقامه خليفة من بعده، وأمر المسلمين بمبايعته في غدیر خم، وقد أوضح عليه السلام بذلك السبيل لأمته، ولم يترك الأمر فوضى من بعده كما يدعي بعض المغرضين.

ولنستمع إلى نص آخر من حديثه عليه السلام يقول:

«وهل يعرفون قدر الإمامة، ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم؟ إن الإمامة أجل قدراً، وأعظم شأنًا، وأعلى مكانًا، وأمنع جانبًا، وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس، بعقولهم أو ينالونها بأرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم. قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً. واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً. واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً. فلما جمع له هذه الأشياء (وقبض يده) قال له: يا إبراهيم إنني جاعلك للناس إماماً. . .».

إن الإمامة خص بها الله إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة، والخلة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها، وأشاد بها ذكره، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

(١) سورة المائدة: الآية، ٦٧ نزلت هذه الآية الكريمة في يوم عيد الغدير، وهو اليوم الخالد الذي أقام فيه الرسول ١ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قائداً لأمته من بعده، وعيد الغدير جزء من رسالة الإسلام.

يَكَلِّمَتُ فَاتَّمَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَبِمَن دُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي
 الْقَلِيلِينَ^(١) فقال الخليل عليه السلام: مسروراً بها: ﴿وَمِن دُرِّيَّتِي﴾ قال عز وجل: ﴿لَا
 يَتَّأَلُ عَهْدِي﴾ فأبطلت هذه الآية كل ظالم إلى يوم الحساب، وصارت بلا ريب
 للصفوة من عباد الله الصالحين. ثم أكرمه الله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ
 فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(٢).

ولم تزل الإمامة في ذرية الخليل عليه السلام يرثها بعض عن بعض قرناً فقرن
 حتى ورثها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عز وجل: ﴿إِنك أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي
 اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣). فكانت الإمامة له عليه السلام
 خاصة، فقلدها صلى الله عليه وآله وسلم، علياً بأمر من الله عز وجل على رسم ما فرضها الله عز
 وجل، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله عز وجل:
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ
 وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤).

فالإمامة كما يرشح من الآية الكريمة هي في ولد علي خاصة إلى يوم القيامة
 إذ لا نبي بعد الرسول الأكرم، خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم فمن أين يختار هؤلاء
 الجهال؟! .

ففي هذا المقطع يعرض الإمام عليه السلام استحالة الانتخاب والاختيار للإمامة
 وأنها غير خاضعة لإرادة الجماهير الذين أكثرهم لا علم لهم بواقع الأمور وحقيقة
 الموضوع، ذلك أن الإمامة بيد الله تعالى فهو الذي يختار لقيادة أمته ممن تتوفر
 فيهم الصفات الرفيعة من التقوى والعلوم المعقدة في الدين، وفي جميع المجالات
 التي تحتاج إليها الأمة ليضمن لها حياة كريمة لا قهر فيها ولا ظلم ولا غبن ولا
 فقر، وإنما عدالة وطمأنينة، وحقوق مصونة وسعادة تعم الجميع.

(١) سورة البقرة: الآية. ١٢٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات، ٧٢ و ٧٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ٦٨.

(٤) سورة الروم: الآية، ٥٦.

فالإمامة، بعد هذا التقديم، كالنبوة، أمرها بيد الله تعالى، وقد منحها لأفضل عباده وهو النبي الجليل إبراهيم الخليل عليه السلام، وانتقلت من بعده إلى أفضل ذريته كإسحاق ويعقوب، ثم انتقلت إلى خاتم النبيين الرسول الأعظم محمد عليه السلام. الذي قلدها من بعده لأخيه ووصيه، باب مدينة العلم، علي بن أبي طالب عليه السلام. ثم تقلدها من بعده الأئمة المعصومين الطاهرين من ذريته الذين هم صفوة خلق الله؛ وسفينة النجاة من ركبتها نجا ومن تخلف عنها هلك.

والآن إلى مقطع آخر من كلام الإمام عليه السلام يقول فيه:

«إن الإمامة هي بمنزلة الأنبياء، وأرث الأوصياء، وهي خلافة الله عز وجل، وخلافة الرسول، ومقام أمير المؤمنين، وميراث الحسن والحسين سيدها شباب أهل الجنة عليهم السلام. وأن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين.

إن الإمامة أسس الإسلام النامي، وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة، والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء، والصدقات، وامضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف.

الإمام يحل حلال الله، ويحرم حرام الله، ويقوم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجة البالغة.

الإمام هو البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجى، والبيد القفار، ولجج البحار، والإمام على البقاع^(١) الحار لمن اصطلى به والدليل في المهالك، من فارقه هالك.

والإمام هو السحاب الماطر، والغيث الهاطل، والشمس المضيئة، والأرض البسيطة، والعين الغزيرة، والغدير والروضة، الإمام الأمين، الرفيق، والوالد الرقيق والأخ الشقيق، ومفرغ العباد في الداهية.

الإمام أمين الله في أرضه، وحجته على عباده، وخليفته في بلاده، الداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله.

(١) البقاع: هو التل المشرف.

الإمام المطهر من الذنوب، المبرأ من العيوب، مخصوص بالعلم مرسوم بالحلم، نظام الدين، وعز المسلمين، وغيظ المنافقين وبنار الكافرين .

الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل، ولا نظير، مخصوص بالفعل كله، من غير طلب منه، له، ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب، فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام ويمكنه اختياره؟ .

هيهات، هيهات، ضلت العقول وتاهت الحلوم، وحارت الأبواب وخسرت العيون وتضاغرت العظماء، وتحيرت الحكماء، وتقاشرت الحلماء وحصرت الخطباء، وجهلت الأنبياء، وكلت الشعراء، وعجزت الأدباء، وعييت البلغاء . عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله فأقرت بالعجز والتقصير وكيف يوصف له، أو ينعت بكنهه، أو يفهم شيء من أمره، أو يوجد من يقام مقامه، ويغني عنه، كيف، وأنى، وهو بحيث النجم من أيدي المتناولين ووصف الواصفين، فأين الاختيار من هذا؟ وأين العقول عن هذا؟ وأين يوجد مثل هذا؟ في غير آل الرسول ﷺ، كذبتهم والله أنفسهم وفتنهم الباطل، فارتقوا مرتقى صعباً، دحضاً نزل عنه إلى الحضيض أقدامهم . .» .

يبدو واضحاً من خلال هذا المقطع من كلام الإمام ﷺ أهمية الإمام فهو ظل الله في الأرض وعليه تدور جميع مصالح الأمة، وما تبغيه من أهداف وحاجات ومصالح داخلية وخارجية .

وعليه إقامة الحدود، وصيانة الثغور، وتحليل الحلال، وتحريم الحرام، وتطبيق أحكام الله تعالى على واقع الحياة العامة التي يعيشها المسلمون ومن المؤكد أن مثل هذه الأهداف الأصلية والمبادئ العليا، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحققها على مسرح الحياة إلا أئمة الهدى المعصومون ﷺ، الذين أبعد حكام الظلم والجور، من بني أمية وبني العباس عن مراكزهم التي منحها الله لهم، وهذا ما جعل الأمة تتخبط في مشاكل اجتماعية قاتلة وفوضى إدارية لا حدود لها ذهب ضحيتها العديد من الأبرياء المظلومين .

يقول عبد الرحمن الإفريقي للمنصور: «ظهر الجور في بلادنا فجئت

لأعلمك فإذا الجور يخرج من دارك، ورأيت أعمالاً سيئة، وظلماً فاشياً ظننته لبعده البلاد منك فجعلت كلما دنوت منك كان الأمر أعظم فالتاع المنصور من كلامه وأمر باخراجه»^(١).

ونعود إلى حديث الإمام الرضا عليه السلام عن الإمامة حيث يواصل إشداته بأئمة أهل البيت عليهم السلام. ومناهضته أئمة الجور، ونراه ينعى على الذين أقاموهم فيقول عليه السلام :

راموا إقامة الإمام بعقول جائرة بائرة ناقصة وآراء مضلة، فلم يزدادوا إلا بعداً، قاتلهم الله أنى يؤفكون، لقد راموا صعباً، وقالوا: إفكاً، وضلوا ضلالاً بعيداً، ووقعوا في الحيرة، إذ تركوا عن بصيرة، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصددهم عن السبيل وما كانوا مستبصرين ورجبوا عن اختيار الله، واختيار رسوله إلى اختيارهم، والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).

وقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٣).

وقال عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ مَا تَحْتَرُونَ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلِغَةً إِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٤).

وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٥).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٦).

(١) تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢١٥.

(٢) سورة القصص: الآية، ٦٨.

(٣) سورة الأحزاب: الآية، ٣٦.

(٤) سورة القلم: الآيات، ٣٦، ٤١.

(٥) سورة محمد الآية: ٢٤.

(٦) سورة الأنفال: الآيات، ٢١ - ٢٢ - ٢٣.

وقالوا: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (١).

بل هو فضل: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢).

وبعد هذا فكيف لهم باختيار الإمام؟! والإمام عالم لا يجهل، راع لا ينكل معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة، والعلم والفقہ والعبادة. مخصوص بدعوة الرسول ﷺ وهو نسل البتول المطهرة ﷺ لا يدانيه ذو حسب، ولا مغمز فيه في نسب، فالنسب من قريش، والذروة من هاشم، والعترة من آل الرسول ﷺ والرضا من رب العالمين، والفرع من عبد مناف، نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله عز وجل، ناصح لعباد الله، حافظ لدين الله.

إن الأنبياء والأئمة يؤتيهم الله من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم فيكون علمهم فوق كل علم أهل زمانهم، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهْدِي﴾ (٣).

وقوله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٤).

وقوله عز وجل في طالوت: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥).

وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ

(١) سورة البقرة: الآية، ٩٣.

(٢) سورة الحديد: الآية، ٢١.

(٣) سورة يونس: الآية، ٣٥.

(٤) سورة البقرة: الآية، ٢٦٩.

(٥) سورة البقرة: الآية، ٢٤٧.

مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١﴾ .

وقال عز وجل في الأئمة من أهل بيته وعترته وذريته :

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (٢) .

والعبد الصالح إذا اختاره الله سبحانه وتعالى لأمر عبادته شرح الله صدره لذلك، واطرق قلبه بينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعجز عن جواب، ولا يحيد عنه الصواب، وهو معصوم مؤيد، موفق مسدد قد آمن من الخطأ والذلل، يخصه الله بذلك ليكون حجته على خلقه، وشاهده على عبادته. قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٣) .

فهل يقدر على مثل هذا؟ فيختاروه أو يكون مختارهم بهذه الصفة؟ فيقدموه؟ فعدوا وبيت الله الحق، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وفي كتاب الهدى والشفاء، فنبذوه واتبعوا أهواءهم فذمهم الله ومقتهم، وأتعسهم، فقال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدَى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤) .

وقال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٥) .

وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا﴾ (٦) .

(١) سورة النساء: الآية، ١١٣.

(٢) سورة النساء: الآيتان، ٥٤ - ٥٥.

(٣) سورة الحديد: الآية، ٢١.

(٤) سورة القصص: الآية، ٥٠.

(٥) سورة محمد: الآية، ٩.

(٦) سورة غافر: الآية، ٣٥.

يبدو واضحاً من خلال هذا الحديث كيف أن الإمام الرضا يبين عن ضرورة الإمامة معتمداً أوثق الأدلة والبراهين. فالإمامة تعد من أهم المراكز الحساسة في الإسلام، وهي غير خاضعة لاختيار الأمة وانتخابها، وإنما أمرها بيد الخالق العظيم، فهو الذي يعين وينتخب أفضل عباده وأنقاهم لهذا المنصب الخطير ليقوم العدل بين الناس، ويسوسهم بسياسة جده الرسول الأعظم ﷺ.

صفات الإمام:

ذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية إلى أن الإمامة من أصول الدين، ومرجع الأمر فيها هو الله تعالى، فعليه جل جلاله واجب اختيار الإمام، إذ بوجود الإمام في الأمة يصلح أمرها. وقد اشترطوا في الإمام: العصمة فلو لم يكن الإمام معصوماً لجاز عليه الخطأ والمعصية وإذا جاء عليه انتقض الغرض من تنصيبه.

والعصمة أمر خفي لا يعلمه إلا الله تعالى والنبى ﷺ. ولما كان المتعين للإمامة هو المتصف بهذه الصفة وجب عندها إظهاره بالنص من الله أو من رسول الله. من هنا كانت نظرة الشيعة الإمامة تقول: إن الإمامة منصب إلهي. ونوجز القول أن الأمور البارزة في نظام الحكم في الإسلام عند الشيعة الإمامية تنحصر في ثلاثة مواضيع:

١ - الإمامة من أصول الدين ومرجع الأمر فيها هو الله تعالى.

٢ - العصمة في الإسلام، فالإمام لا ينسى ولا يذنب ولا يخطئ.

٣ - النص هو الطريق الوحيد لتعيين الإمام.

والإمام الرضا عليه السلام أدلى بحديث عن علامات الإمام، وصفاته جاء فيه: «للإمام علامات: يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقى الناس، وأحلم الناس، وأشجع الناس، وأعبد الناس»^(١).

وعلى الإمام أن تتوفر فيه جميع هذه الصفات حتى يصلح لقيادة الأمة؛ ورفع مستواها الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي.

(١) عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ٢١٣.

الأئمة خلفاء الله:

روى أبو مسعود الجعفري قال: سمعت الإمام أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: الأئمة خلفاء الله عز وجل في أرضه^(١).

وأئمة أهل البيت عليهم السلام هم خلفاء الله تعالى في أرضه، وحججه على عباده، وأمنائه في بلاده، فهم قادة الأمة الإسلامية ودليلها القاطع على طاعة الله تعالى ومرضاته. ولا يقاس بهم أحد في العلم والفقه والأخلاق... وقد سئل العارف بالله الشيخ محيي الدين بن عربي:

هل يماثل أهل البيت أحد؟ وما شأن من يبغضهم؟ وكيف يكون حال من يحبهم؟ فأجاب قائلاً: لا يماثل أهل البيت أحد، وما قولي: في طينة عجنت بماء الرسالة، وغرست بماء الوحي، هل ينفخ منها إلا مسك الهدى، وعنبر التقى...

النص على عدد الأئمة:

تشكل هذه المسألة الصفة العقائدية الخاصة التي تميز الحالة الشيعية الإمامية التي تتبنى عقيدة الإيمان بإمامة الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام. وإن النصوص التي تحدد عدد الأئمة متوافرة في أهم مصادر الحديث المعتمدة عند المسلمين. وهذه طائفة منها:

عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يكون اثني عشر أميراً كلهم من قريش»^(٢).

وعن حصين عن جابر بن سمرة قال: «دخلت مع أبي علي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسمعت يقول «إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»^(٣).

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كتبت إلى جابر بن سمرة مع

(١) أصول الكافي: ج ١ ص ١٩٣.

(٢) كتاب الأحكام باب ١١٤٨ وصحيح البخاري ج ٩ ص ٧٢٩.

(٣) كتاب الإمارة حديث ١٨٢١. ١٨٢٢ وصحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٢. ١٤٥٣.

غلامي أخبرني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ يوم الجمعة عشية رجم الأسلمي يقول: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة كلهم من قريش»^(١).

وعن جابر بن سمرة قال: كنت مع أبي عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «بعد اثنا عشر خليفة كلهم من بني هاشم وأنا سيد النبيين وعلي سيد الوصيين وإن أوصيائي بعدي اثنا عشر أولهم علي وآخرهم القائم المهدي»^(٢).

وعن عبد الله بن مسعود قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الأئمة من بعدي عدد نساء بني إسرائيل اثنا عشر أعطاهم الله علمي وفهمي وأنت منهم يا حسن، ومن أحبهم واقتدى بهم فاز ونجا، ومن تخلف عنهم ضل وغوى»^(٣).

نستنتج من خلال هذه النصوص وغيرها التي تناولت عدد الخلفاء والأئمة أن تتوافر لدينا مجموعة ضوابط ثابتة، وعلى ضوء هذه الضوابط تتحد. الرؤية التقويمية مع النصوص وهذه أهمها:

أولاً: العدد اثنا عشر إماماً أو خليفة كلهم من قريش أو من بني هاشم.

ثانياً: المؤهلات اللازمة للإمامة على جميع المستويات الإيمانية والفكرية والنفسية والقيادية والعملية.

ثالثاً: الامتداد والبقاء ما بقي الدين.

رابعاً: النص الذي يعطي للمجموعة صلاحية الإمامة والخلافة.

التفسير الشيعي للإمامة

مما نلاحظ أن كل التفسيرات التي مرت لا نجد فيها ما يتوافر على الضوابط المذكورة، نستثني منها التفسير الشيعي الإمامي فهو وحده يشتمل عليها. ورد عن جابر الأيصاري قال:

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٨٩، ٩٠، ٩٢.

(٢) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي الباب ٧٧ ج ٣ ص ١٠٤.

(٣) كفاية الأثر لأبي القاسم الخزار ص ٣٠ و ٣٦.

- «دخل جندل بن جنادة على النبي ﷺ وسأله عن مسائل ثم قال: أخبرني يا رسول الله عن أوصيائك بعدك لأتمسك بهم. قال ﷺ: «أوصيائي الاثنا عشر» قال جندل: يا رسول الله سمهم لي، قال ﷺ: ١ - «أولهم سيد الأوصياء أبو الأئمة علي. ٢ - ثم ابنه الحسن. ٣ - والحسين فاستمسك بهم ولا يغرنك جهل الجاهلين». قال جندل: فمن بعد الحسين؟ ٤ - قال رسول الله ﷺ «إذا نقضت مدة الحسين فالإمام ابنه علي ويلقب بزین العابدين فبعده: ٥ - ابنه محمد الملقب بالباقر. ٦ - فبعده ابنه جعفر يدعى بالصادق. ٧ - فبعده ابنه موسى يدعى بالكاظم. ٨ - فبعده ابنه علي يدعى بالرضا. ٩ - فبعده ابنه محمد يدعى بالجواد. ١٠ - فبعده ابن علي يدعى بالهادي. ١١ - فبعده ابنه الحسن يدعى بالعسكري. ١٢ - فبعده ابنه محمد يدعى بالمهدي والقائم والحجة»^(١).



(١) ينابيع المودة للقندوزي الباب ٧٦ وكفاية الأثر لأبي القاسم الخزار ص ١١٤.



الولاء لأهل البيت على المستوى الروحي

إن لأهل البيت عليهم السلام عنصراً أساسياً في مكونات العقيدة الإسلامية، ومقومات الإيمان عند الشيعة الاثني عشرية، والتفريط به يحدث خللاً كبيراً في البنية العقيدية والإيمانية والرسالية، ويعطي للانتماء مساراً منحرفاً عن المنحى الطبيعي لحركة الدعوة واتجاه الرسالة. ولا يخفى على أحد أن النصوص الإسلامية واضحة وصريحة في تأصيل هذا المبدأ الولائي وتعميق دلالاته. وهذه بعض الأمثلة والشواهد من تلك النصوص.

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ آبَرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١).

قال الزمخشري في الكشاف في تفسير هذه الآية ج ٣ ص ٤٠٢ «روي أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا محبتهم؟ قال عليهم السلام: علي وفاطمة وابناهما»^(٢).

٢ - وأخرج الطبراني بسند حسن عن أم سلمة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «من أحب علياً فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله»^(٣).

٣ - وجاء في كتاب إحياء الميت للسيوطي:

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وجسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه، وعن محبتنا أهل البيت».

(١) سورة الشورى: الآية، ٢٣.

(٢) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي الباب ٧٦ وكفاية الأثر لأبي القاسم الخزار ص ١١٤.

(٣) الحديث مذكور في عدة مصادر: تذكرة الخواص لابن الجوزي ص ٢٨ ونور الأبصار للشبلنجي ص ٧٢ وينابيع المودة الباب ٥٩.

٤ - وجاء في كتاب «ذخائر العقبى» للعلامة محب الدين الطبري^(١).

عن عمرو بن شاس الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أذى علياً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل».

٥ - وجاء في الصواعق المحرقة لابن حجر المكي ص ٢٦٢ - ٢٦٤.

أخرج البيهقي وأبو الشيخ والديلمي أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار».



(١) ذخائر العقبى: ص ٦٥.



الولاء لأهل البيت عليهم السلام يجسد عمق الولاء للإسلام

الدلالة الأولى:

إذا تأملنا في النصوص التي سلفت عن مبدأ الولاء لأهل البيت توضح لنا عمق العلاقة بين هذا المبدأ والمضمون الانتمائي للرسالة .

- من أحب علياً فقد أحبني . . . ومن تولاه فقد تولاني .

- لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار .

فالولاء لأهل البيت مرتكز أساسي لعمق الانتماء للإسلام وأصالة الارتباط بالعقيدة، وقوة التفاعل مع الرسالة . ومن خلال المستوى الولائي يتحدد مستوى (الانتماء) وبمقدار ما يترسخ في وعي الأمة وفي وجدانها وفي شعورها هذا الولاء يقوي المستوى الانتمائي، وبمقدار ما يضم وعيها ووجدانها وشعورها هذا الولاء يضعف في داخلها هذا الانتماء . وعلى هذا المفهوم يمكن القول :

فالولاء لأهل البيت من العناصر الأساسية التي تحدد الهوية الإيمانية للأمة، وهذا ما تؤكد النصوص، منها على سبيل الذكر :

«لا يحبنا أهل البيت إلا مؤمن تقي ولا يبغضنا إلا منافق شقي» .

«ولا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق» .

الدلالة الثانية:

الولاء لأهل البيت عليهم السلام يمثل رافداً كبيراً من روافد الجهاد والشهادة في حياة الأمة . وقد برهنت حالة الانتماء إلى خط أهل البيت عليهم السلام عبر المسيرة التاريخية على عمق هذا البعد الجهادي الذي أعطى للحركة الولائية طابعاً مميزاً . فالولاء الكبير الذي جسده الحالة الانتمائية لخط الأئمة من أهل البيت عليهم السلام نمت في داخلها أصول أصيلة مباركة :

- ١ - العمق الإيماني المتأصل .
- ٢ - السمو الروحي المتألق .
- ٣ - الطموح الثوري المتأجج .
- ٤ - الحركة الابداعية الفاعلة .
- ٥ - القوة الصمودية الراسخة .

وقد تمثلت كل هذه المبادئ الخيرة في المقاومة الإسلامية التي جاهدت وناضلت وصبرت؛ حتى فازت في طرد العدو الصهيوني من لبنان وكسبت بذلك رضى المؤمنين ورضى رب العالمين . لقد أنتجت هذه المعطيات الولائية في المسيرة الشيعية حوافز الجهاد والفداء والشهادة التي تحولت في حياة الأمة إلى قيم أصيلة تفاعلت مع وجدانها ومشاعرها وهمومها وطموحاتها، وصاغت منها واقعاً متحرماً تجسدت فيه كل المضامين الجهادية والفدائية والاستشهادية .

الالتزام بنهج الأئمة من أهل البيت على المستوى العملي

يلتزم الشيعة صيغة قيادية تمثل نهج الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من خلال المستويات التالية:

- ١ - القيادة الأولى في الإسلام وهي قيادة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .
 - ٢ - القيادة الامتدادية وهي القيادة المعصومة التي يمثلها الاثنا عشر من أهل البيت عليهم السلام .
 - ٣ - القيادة النائية وهي قيادة الفقهاء الذين يجسدون خط الأئمة من أهل البيت عليهم السلام .
- فأهل البيت هم أهل السيادة
فبغضهم من الإنسان خسر حقيقي، وحبهم عبادة^(١)

(١) ينابيع المودة ج ٣ ص ٣٨ .

دور أهل البيت في الفقه والأحكام والتشريع:

إن مصدر التشريع والأحكام من كتاب الله وسنة نبيه الكريم .

قد أوضحه القرآن الكريم للناس جميعاً وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

وعلى هذا المسار سار أئمة أهل البيت عليهم السلام ومن سار على نهجهم الفكري والعلمي، وواصلوا جهودهم العلمية وكفاحهم الفكري والسياسي للحفاظ على كتاب الله وسنة نبيه الأكرم عليه السلام، وقد أوضح الإمام الباقر عليه السلام هذا المنهج بقوله:

«إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه، وبيته لرسوله عليه السلام وجعل لكل شيء حداً وجعل عليه دليلاً يدل عليه، وجعل على ما تعدى ذلك الحد حداً».

والإمام الصادق يؤكد هذه الحقيقة لدى أصحابه وتلامذته، ثم يثبتها كخط فكري وتشريعي. فقال عن رسول الله عليه السلام:

«وإن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه».

وقال الإمام موسى بن جعفر لبعض أصحابه عن مصدر الأحكام والفتاوى التي تصدر عنهم حين سألته: «أكل شيء في كتاب الله وسنة نبيه؟ قال: بل كل شيء في كتاب الله وسنة نبيه».

وأتباع أهل البيت فقد اختاروا ما صدر عن الإمام علي وأهل بيته من بين مذاهب الصحابة والتابعين من بعدهم، وعدوه حجة واجبة الاتباع؛ لما ثبت لدى المسلمين من بيان نبوي مصرح بأن علياً هو أعلم الصحابة، وهو مرجعهم في الفتوى وبيان الأحكام.

روي عن النبي عليه السلام حين قرأ الآية الكريمة: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَنَعِيمًا أَدْنَىٰ رَعِيَّةٍ﴾^(٢).

(١) سورة الحشر: الآية، ٧.

(٢) سورة الحاقة: الآية، ١٢.

التفت عليه السلام إلى علي عليه السلام فقال: «سألت ربي أن يجعلها أذنك». فقال علي عليه السلام: «فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وآله فنسيته». وكقوله عليه السلام: «أفضاكم علي» و «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وروي عنه عليه السلام قوله:

«إني تركت فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

وهكذا تكون المدرسة الشيعية الإمامية في الإمامة والعقيدة، والفقهِ والحديث والتفسير. . امتداداً لمدرسة أمير المؤمنين علي وأهل بيته عليهم السلام. وحين نشأت المذاهب الفقهية كمذهب أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل، واصل أتباع مدرسة أهل البيت الالتزام بفقهِ الإمامين: محمد الباقر وجعفر الصادق عليهما السلام الذي تتلمذ عليه أبو حنيفة ومالك وأقر بفضلهما أحمد بن حنبل والشافعي^(١)، وجمع غفير من المحدثين والفقهاء.

وقد استمرت هذه المدرسة تنمو وتتطور على يد أئمة أهل البيت عليهم السلام معتمدة كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، كمصدر للتشريع واستنباط الأحكام.

وقوف مدرسة أهل البيت بوجه التحريف:

بعد وفاة القائد الأول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وقف أئمة أهل البيت عليهم السلام بوجه كل انحراف ظهر من الحكام الأمويين والعباسيين؛ والأحاديث الكثيرة التي وصلتنا عن هؤلاء الأئمة الأطهار في هذا المجال تؤكد أنهم خاضوا خلال قرون متوالية حرباً فكرية هدفها إحباط محاولات المسخ والتشويه، والتأكيد على أهمية العمل ودفع المسلمين إلى الالتزام العملي بالخط الإسلامي.

جاء في نهج البلاغة: «وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيما الصديقين وكلامهم كلام الأبرار، عمار الليل ومنار النهار، لا

(١) راجع ينابيع المودة ج ٢ ص ٧٨.

يستكربون ولا يعلنون، ولا يغفلون، ولا يفسرون قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل».

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام :

«ولا يتنا لا تدرك إلا بالعمل»^(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «كونوا دعاة الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاة بألستكم»^(٢).

وسئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «جعلت فداك ما أنتم؟».

قال عليه السلام : نحن خزان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض»^(٣).

وقد أكد الإسلام أن الانتساب وحده، أيًا كان شكله، لا يغني الإنسان عن العمل، ولا يمكن أن يشكل نقطة إيجابية في صفحة أعمال الإنسان وإن لم يرافقه التزام عملي.

والقرآن الكريم يدين أولئك الذين زعموا أن لهم عند الله قرابة وزلفى، وأنهم مستثنون من العذاب الإلهي، والإسلام يرفض أن تكون وشيخة القرابة شفيعاً للإنسان. فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لبضعته فاطمة الزهراء عليها السلام :

«يا فاطمة اعلمي بنفسك، إنني لا أغني عنك من الله شيئاً».

وأخيراً نستطيع القول أنه لا يستطيع الباحث مهما توصل من علم ومعرفة ومهما جال في البحث والتدقيق أن يحيط بأهل البيت عليهم السلام ، الذين هم باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما علينا إلا أن نشير إلى القليل القليل حولهم وذكر بعض الأضواء من مدرستهم، ومهما كتبنا وفصلنا نبقي مقصرين لا محالة.

(١) أصول الكافي: ج ١ ص ١٩٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

مناقب الإمام الثامن عليه السلام

ومما جاء في ذكر فضائله عليه السلام أوجز بعضها إبراهيم بن محمد الجويني: الباب التاسع والثلاثون في ذكر بعض مناقب الإمام الثامن، مظهر خفيات الأسرار، ومبرز خبيات الأمور الكوامن، ومنبع المكارم والميامن، ومنبع الأعالى الحضارم والأيامن، منبع الجناب، رفيع القباب، وسيع الرحاب، هموم السحاب، عزيز الألفاف، غزير الأكناف، أمير الأشراف، قرّة عين آل ياسين وآل عبد مناف، السيد الطاهر المعصوم، والعارف بحقائق العلوم، والواقف على غوامض السر المكتوم، والمخبر بما هو آت وعمّا غبر ومضى، المرضي عند الله سبحانه برضاه عنه في جميع الأحوال، ولذا لقب بالرضا علي بن موسى صلوات الله على محمد وآله خصوصاً عليه ما سَخَّ سحاب وهما، وطلع نبات ونما.

وطرف من بيان أخلاقه الشريفة، وأعرافه المنيفة، ونبذ من كراماته الباهرة، وشمائله الزاهرة، وذكر بعض أحاديثه التي رواها عن آبائه حجج الله على خلقه، وآياته سلام الله عليهم.

ثم يستمر في تفصيل ذلك^(١).

قال يوسف بن فراغلي: وهو سبط ابن الجوزي:

علي بن موسى الرضا كان من الفضلاء الأتقياء، الأجواد... .

وقال عبد الله الشبراوي الشافعي:

وكان عليه السلام كريماً، جليلاً، مهاباً، موقراً... . أعتق ألف مملوك، وكان صاحب وضوء وصلاة، ليله كله يتوضأ ويصلي، ويرقد ثم يقوم فيتوضأ ويصلي،

(١) أئمتنا الحاج علي محمد علي دخيل ج ٢ ص ١٥٢ عن فرائد السمطين ج ٢ ص ١٨٧ وتذكرة الخواص ص ٢٠١ ومطالب السؤل ص ٨٤ والاتحاف بحب الأشراف ص ٥٨. وسبائك الذهب ص ٧٣.

ويرقد وهكذا إلى الصبح، قال بعض جماعته: ما رأيته قط إلا ذكرت قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ﴾^(١) وأما عن تاريخ الرضا الحافل بجلائل الأعمال قال عبد القادر أحمد اليوسف: «تاريخ الإمام حافل بجلائل الأعمال، فمن علم لا يدرك مداه، وعصمة متوارثة، وقدسية لا تضارعها قدسية في عصره ومن بعده، إلا من انحدر من صلبه من الأئمة المعصومين، فهو علم هدى زمانه، ومثل أعلى في التقوى والورع والحلم والخلق والأخلاق، وما عساني أذكر عن حياة وصي من أوصياء الله، وما عسى قلبي أن يكتب في تعريفه، أولم يكن ذكر اسمه هو التعريف الكامل؟».

فذكره قبس من نور الله، يهدي المستجير به نحو السبيل الأقوم، المؤدي للصالح العام.

إن حياة الإمام بأجمعها مكرسة لاعلاء شأن المسلمين بالإسلام فما من عمل صدر منه إلا وكان منطلقاً من عقيدة الإيمان، مستهدفاً صلاح الناس، ومنتهاً لما فيه رضى رب العالمين^(٢).

وقال عبد الله عفيفي:

«علي بن موسى الرضا، عميد هذا البيت وزعيمه، والإمام المرتضى من آل البيت...»^(٣).

وقال صاحب الأعلام خير الدين الزركلي: «علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أبو الحسن الملقب بالرضا، ثامن الأئمة... ومن أجل السادة أهل البيت وفضائلهم...»^(٤).

وقال النسابة الشهير ابن عنبه: «علي بن موسى الكاظم، ويكنى أبا الحسن ولم يكن للطلابين في عصره مثله، بايع له المأمون بولاية العهد وضرب اسمه على

(١) سورة الذاريات: الآية، ١٧.

(٢) أنمتنا للحاج علي محمد علي دخيل ج ٢ ص ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٤ عن المرأة العربية ج ٣ ص ٩٣.

(٤) الأعلام: ج ٥ ص ١٧٨.

الدنانير والدراهم، وخطب له على المنابر، ثم توفي بطوس ودفن فيها^(١).

وقال محمد بن سليمان النوفلي: «إن المأمون لما جعل علي بن موسى الرضا عليه السلام ولي عهده، وأن الشعراء قصدوا المأمون ووصلهم بأموال جمة حين مدحوا الرضا عليه السلام وصوبوا رأي المأمون في الأشعار دون أبي نواس، فإنه لم يقصده ولم يمدحه، ودخل على المأمون، فقال له: يا أبا نواس قد علمت مكان علي بن موسى الرضا مني وما أكرمه به، فلماذا أخرت مدحه وأنت شاعر زمانك وقريع دهرك؟ فأنشد يقول:

قيل لي: أنت أوحده الناس طراً في فنون من الكلام النبويه^(٢)
لك من جوهر الكلام بديع يثمر الدر في يد مجتنيه
فعلى ما تركت مدح ابن موسى والخصال التي تجمعن فيه
قلت: لأهتدي لمدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه
فقال المأمون: أحسنت ووصله من المال بمثل الذي وصل به كافة الشعراء
وفضله عليهم».

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: «خرج أبو نواس ذات يوم من داره فبصر براكب قد حاذاه فسأل عنه ولم ير وجهه، فقيل: إنه علي بن موسى الرضا، فأنشأ يقول:

إذا أبصرتك العين من بعد غاية وعارض فيك الشك أثبتك القلب
ولو أن قوماً أمموك لقادهم نسيمك حتى يستدل به الركب
قال محمد بن يحيى الفارسي: «نظر أبو نواس إلى أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام ذات يوم، وقد خرج من عند الخليفة على بغلة له، فدنا منه أبو نواس وسلم عليه وقال: يا ابن رسول الله قد قلت فيك أبياتاً فأحب أن تسمعها مني، قال: هات فأنشأ يقول:

مطهرون نقيات ثيابهم تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

(١) عمدة الطالب: ص ١٩٨.

(٢) عيون أخبار الرضا: ص ١٤٢.

من لم يكن علوياً حين تنسبه فما له من قديم الدهر مفتخر
والله لما بدا خلقاً فأتقنه صفاكم واصطفاكم أيها البشر
وأنتم المملأ الأعلى وعندكم علم الكتاب وما جاءت به السور

فقال الرضا عليه السلام : قد جئت بأبيات ما سبقك إليها أحد، ثم قال : يا غلام هل معك من نفقتنا شيء؟ فقال : ثلاث مائة دينار، فقال : اعطها إياه، ثم قال عليه السلام : لعله استقلها؟ يا غلام سق إليه البغلة»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير: «علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي العلوي الملقب بالرضا، كان المأمون قد هم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك، فجعله ولي العهد بعده.

توفي في صفر بطوس سنة ٢٠٣هـ وقد روى الحديث عن أبيه وغيره وعنه جماعة منهم المأمون وأبو السلط الهروي وأبو عثمان المازني النحوي، وقد سمعته يقول: الله أعدل من أن يكلف العباد ما لا يطيقون، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون»^(٢).

ما قاله العلماء في فضائله عليه السلام :

إن حياة الإمام الرضا حافلة بأعماله الجليلة، وسيرته النبيلة، وآثاره الخالدة. وإذا ما أنعمنا النظر وجدنا كل جانب من حياته الكريمة حافل بالعظمة والتكريم من كبار العلماء والأدباء في عصره، وكل أثر من آثاره الجليلة فياض بالمثل العليا والفضائل الرفيعة.

وأثمتنا عليه السلام وإن عاشوا بعيدين عن بلاط الحكام، وبمعزل عن السلطة والقيادة، لكنهم كانوا المفزع في النائبات، والملجأ في المهمات، والمقصد عند الشدائد والنائبات.

ولا غرو إن كانوا كذلك، فهم خزان الوحي، ومعدن العلم، ومرجع العلماء والأدباء وكافة الناس. فقد أودعهم الرسول الأعظم علمه وورثهم معارفه،

(١) رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٤٣ الباب ٤٠.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ٢٥٠.

حتى غدوا الأذلاء إلى الله عز وجل والقادة إليه وهذه بعض أقوال العلماء والأدباء في فضائل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام :

١ - جاء في الصواعق المحرقة عن ابن حجر الهيتمي قال: «وكان أولاد موسى بن جعفر حين وفاته سبعة وثلاثين ذكراً وأنثى، منهم «علي الرضا» وهو أنبههم ذكراً وأجلهم قدراً، ومن ثم أحله المأمون محل مهجته وأنكحه ابنته وأشركه في مملكته، وفوض إليه أمر خلافته فإنه كتب بيده كتاباً سنة إحدى ومائتين بأن علياً الرضا ولي عهده وأشهد عليه جمعاً كثيرين، لكنه توفي قبله، فأسف عليه كثيراً وأخبر قبل موته بأن يأكل عنباً ورماناً ميثوثاً ويموت، وأن المأمون يريد دفنه خلف الرشيد فلم يستطع فكان ذلك كله كما أخبر به»^(١).

٢ - وقال أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي: «ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا، ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، وقد جمع المأمون في مجلس له عدداً من علماء الأديان، وفقهاء الشريعة والمتكلمين، فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي منهم أحد إلا أقر له بالفضل، وأقر على نفسه بالقصور»^(٢).

وقال محمد بن جعفر بن محمد للمأمون وقد سأله عنه: عالم ولم نره يختلف إلى أحد من أهل العلم»^(٣).

٣ - وقال المأمون العباسي: «هذا أعلم هاشمي» وقال أيضاً لمحمد بن جعفر: «إن ابن أخيك من أهل بيت النبي الذين قال فيهم النبي ﷺ إلا إن أبرار عترتي وأطائب أرومتي، أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً، لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم، لا يخرجوكم من باب الهدى، ولا يدخلوكم في باب ضلال»^(٤).

أما عن كرمه واحسانه:

(١) الصواعق: ص ١٢٢.

(٢) أعيان الشيعة: ج ٣ ص ١٠٠.

(٣) الأنوار البهية: ص ١٠٨.

(٤) تذكرة الخواص ص ١٩٨.

٤ - فقال إبراهيم بن العباس الصولي: إني ما رأيت، ولا سمعت بأحد أفضل من أبي الحسن الرضا عليه السلام وشهدت منه ما لم أشاهد من أحد... وكان كثير المعروف والصدقة في السر، وأكثر ذلك منه لا يكون إلا في الليالي المظلمة، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه»^(١).

٥ - وأما عن تقاه فقد قال رجاء بن أبي الضحاك: «فوالله ما رأيت رجلاً كان أتقى لله منه، ولا أكثر ذكراً لله في جميع أوقاته منه، ولا أشد خوفاً لله عز وجل منه...»^(٢).

ولا غرو فأهل البيت من طينة كريمة طيبة، وصفها عبد الله بن مطرق بن ماهان عند دخوله يوماً على مأمون وعنده علي بن موسى الرضا، فقال له المأمون: ما تقول في أهل هذا البيت؟.

فقال عبد الله: ما أقول في طينة عجنت بماء الرسالة، وغرست بماء الوحي، هل ينفح منها إلا مسك الهدى، وعنبر التقى!!.

فدعا المأمون بحقه فيها لؤلؤ فحشا فاه»^(٣) حتى لا يكرر هذه الشهادة أمام الناس.

٦ - وقد شهد له مسيحي يقال له الجائليق بعد أن ناظره الإمام عليه السلام وأفحمه فقال: «فلا وحق المسيح ما ظننت أن في المسلمين مثلك»^(٤).

٧ - وأما عن نبوغه المبكر قال الواقدي: «كان ثقة، يفتي بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ابن نيف وعشرين سنة»^(٥).

٨ - وأما عن اختياره من بين أولاد العباس الكثر، قال شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان:

«أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد

(١) بحار الأنوار ج ١٢ ص ٥٣.

(٢) كشف الغمة ص ٢٧٤.

(٣) أعيان الشيعة: ج ٣ ص ١١٢.

(٤) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٥٢.

(٥) تذكرة الخواص: ص ١٩٨.

الباقر بن علي زين العابدين المذكور قبله، وهو أحد الأئمة الاثني عشر، وكان المأمون قد زوجه ابنته أم حبيب، جعله ولي عهده، وضرب اسمه على الدنانير، وكان السبب في ذلك: أنه استحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء وهو بمدينة مرو، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً، ما بين الكبار والصغار، واستدعى علياً المذكور فأحسنه أحسن منزلة، وجمع خواص الأولياء، وأخبرهم أنه نظر في أولاد العباس وأولاد علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يجد في وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من علي الرضا فبايعه، وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام»^(١).

٩ - وقال الشبلنجي الشافعي عن علم الرضا وتقاؤه:

«قال إبراهيم بن العباس: ما رأيت الرضا سئل عن شيء إلا علمه، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقت عصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال من كل شيء فيجيبه الجواب الشافي، وكان قليل النوم كثير الصوم لا يفوته صوم ثلاثة أيام من كل شهر، ويقول: ذلك صيام الدهر، وكان كثير المعروف والصدقة وأكثر ما يكون ذلك منه في الليالي المظلمة، وكان جلوسه في الصيف على حصير وفي الشتاء على مسح»^(٢).

١٠ - وقد اختصر كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي بعض صفات الرضا فقال: «نما إيمانه، وعلا شأنه، وارتفع مكانه، واتسع امكانه، وكثر أعوانه...»^(٣).

١١ - وقال الشيخ المفيد - محمد بن محمد النعمان البغدادي - زعيم الشيعة:

«كان الإمام القائم بعد أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ابنه أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، لفضله على جماعة إخوته وأهل بيته، وظهور علمه

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٢ ولما انتشر الخبر بالعراق من أولاد العباس علموا في ذلك خروج الأمر عنهم فخلعوا المأمون، وبايعوا إبراهيم بن المهدي، وهو عم المأمون وذلك يوم الخميس لخمس خلون من المحرم سنة اثنتين ومائتين، وقيل سنة ثلاث ومائتين.

(٢) نور الأبصار ص ١٨٠ والمُشْح ويعبر عنه باللباس: الكساء من الشعر: لسان العرب ج ٢ ص ٥٩٦.

(٣) مطالب السؤول ص ٨٤.

وحلمه وورعه، واجتماع الخاصة والعامة على ذلك فيه، ومعرفتهم به منه^(١).

ثم ألمح إلى بعض خصاله عليه السلام؛ التي امتاز بها على بقية أهل بيته:

١ - العلم.

٢ - الحلم.

٣ - الورع.

وهذه الصفات الكريمة بعض خصائصه.

١٢ - وقال الواقدي: «سمع علي بن موسى الرضا الحديث من أبيه

وعموته وغيرهم، وكان ثقة يفتي بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وهو ابن نيف

وعشرين سنة، وهو من الطبقة الثامنة من التابعين من أهل البيت»^(٢).

وأكد الواقدي على صفتين من صفات الإمام عليه السلام وهما:

١ - الوثاقة.

٢ - فتواه بالجامع النبوي وهو ابن نيف وعشرين سنة.

١٣ - وقال يوسف بن ثغري بردي: «الإمام أبو الحسن الهاشمي العلوي،

الحسيني، كان إماماً عالماً وكان سيد بني هاشم في زمانه، وأجلهم وكان المأمون

يجله ويعظمه ويخضع له، ويتغالى فيه، حتى جعله ولي عهده»^(٣).

١٤ - ابن ماجه: قال ابن ماجه: «كان الإمام الرضا سيد بني هاشم، وكان

المأمون يعظمه ويجله، وعهد له بالخلافة، وأخذ له العهد»^(٤).

لقد نظر ابن ماجه إلى شأن من شؤون الإمام عليه السلام وهو أنه سيد بني

هاشم، ومن الطبيعي أن سيد بني هاشم هو سيد البشر في عصره؛ لأن بني هاشم

سادة الناس في آدابهم وحسن تربيتهم وسمو أخلاقهم.

والإمام الرضا عليه السلام شأنه شأن آبائه الذين قاموا بدور كبير على مسرح

الأحداث الإسلامية، فقد استطاع في الفترة القصيرة التي تقلد فيها ولاية العهد أن

يبرز القيم الأصيلة في السياسة الإسلامية.

(١) الإرشاد: ص ٣٤١.

(٢) تذكرة الخواص: ص ٣٦١.

(٣) النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٧٤ وقد جعله ولي عهده لغاية في نفسه وليس حباً به!

(٤) أعيان الشيعة: ج ٤ ص ٨٥.

هجرة الإمام من المدينة المنورة إلى خراسان

بقي الإمام علي الرضا بعد أبيه موسى بن جعفر عليه السلام عشرين عاماً، قضى منها عشر سنوات في عهد هارون الرشيد الطاغية، تجرع خلالها مرارة الأحداث المؤلمة منها تعرض الجلودي لاقتحام دوره، حين أوعز إليه الرشيد مهاجمة دور آل أبي طالب، وسلب كل ما على نسائهم من حلل وثياب.

نفذ الجلودي أوامر الرشيد ولم يدع علي واحدة من النساء ثوباً يسترها، ولما انتهى به الأمر إلى دار الإمام الرضا عليه السلام بخيله وجنده، وقف الإمام الرضا عليه السلام على باب داره وجمع نساءه في بيت واحد بعد أن منعهم من دخوله. فقال له الجلودي: لا بد وأن أدخل البيت وأتولى بنفسي سلبهن كما أمرني الرشيد، فقال له الإمام الرضا: أنا أسلبهن لك ولا أترك عليهن شيئاً إلا جنتك به، وظل يمانعه ويحلف له بأنه سيأخذ جميع ما عليهن من حلى وحلل وملابس حتى سكن، ووافق على طلب الإمام.

فدخل أبو الحسن عليه السلام على نسائه ولم يدع عليهن شيئاً حتى أقراطهن وخلخيلهن وملابسهن إلا أخذه منهن، وأضاف إليه جميع ما في الدار من قليل وكثير وسلمه إلى الجلودي رسول الطاغية هارون.

وهكذا نرى كم قاسى الإمام الرضا كما قاسى أبوه من قبله موسى بن جعفر وأصحابهما عليه السلام من الظلم والأسى والجور والبلاء من هارون الرشيد، إلى أن توفى وأوصى بولاية العهد لابنه محمد الأمين، ومن بعده لولده عبد الله المأمون، وبعدهما لولده القاسم، كما وزع المناطق بينهم خوفاً من وقوع الفتنة والطمع بينهم. فجعل ولاية العراق والشام إلى آخر المغرب للأمين، وجعل من همدان إلى آخر المشرق بما في ذلك خراسان وجهاتها للمأمون، وجعل الجزيرة والشغور والعواصم لولده القاسم.

لكنه خاب أمله، والصراع والأنانية والجشع دبّت في نفوس الأخوة، فبعد

أن تسلم الخلافة الأمين سنة ٨٠٩ م حتى ٨١٣ م، عمد المأمون أخوه فقتله بعدما دارت بينهما معارك ضارية .

وانتقلت السلطة إلى المأمون فحكم في جميع الأطراف .

مكاتبة المأمون للإمام الرضا عليه السلام:

- روى الكليني بإسناده عن علي بن إبراهيم عن ياسر الخادم والريان بن الصلت جميعاً، قال: «لما انقضى أمر المخلوع واستوى الأمر للمأمون كتب إلى الإمام الرضا عليه السلام يستقدمه إلى خراسان، فاعتلّ عليه عليه السلام بعلل. فلم يزل المأمون يكتابه في ذلك حتى علم أنه لا محيص له، وأنه لا يكف عنه، فخرج عليه السلام، فكتب إليه المأمون: لا تأخذه عن طريق الجبل وقم، وخذه عن طريق البصرة والأهواز وفارس»^(١).

- وروى المسعودي قال:

«وفي سنة مائتين بعث المأمون برعاء بن أبي الضحاك وياسر الخادم إلى علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين - الرضا - لاشخاصه فحمل إليه مكرماً»^(٢).

- وقال الطبرسي: «كان المأمون قد أنفذ إلى جماعة من الطالبيية فحملهم من المدينة وفيهم الإمام الرضا عليه السلام فأخذهم على طريق البصرة، حتى جاءوا بهم وكان المتولي لاشخاصهم: المعروف بالجلودي فقدم بهم على المأمون فأنزلهم داراً وأنزل الرضا داراً، وأكرمه وأعظم أمره»^(٣).

- وروى الصدوق بإسناده عن محول السجستاني قال: «لما ورد البريد باشخاص الرضا عليه السلام إلى خراسان كنت أنا بالمدينة فدخل المسجد ليودع قبر جده رسول الله صلى الله عليه وآله، فعلا صوته بالبكاء والنحيب، فتقدمت منه وسلمت عليه، فقال: «زرنني فإني أخرج من جوار جدي صلى الله عليه وآله وأموت في غربة، وأدفن في جنب

(١) أصول الكافي: كتاب الحجة ص ٤٠٨ مواد أبي الحسن الرضا عليه السلام.

(٢) مروج الذهب: ج ٤ ص ٢٧.

(٣) إعلام الوري: ص ٣٣٣.

هارون، قال: فخرجت متبعاً لطريقه حتى مات بطوس ودفن إلى جنب هارون»^(١).

الإمام عليه السلام في مكة:

جاء في كشف الغمة عن الأربيلي، بإسناده عن أمية بن علي قال: «كنت بمكة مع أبي الحسن في السنة التي حج فيها، ثم صار إلى خراسان ومعه أبو جعفر، وأبو الحسن يودع البيت، ولما قضى طوافه عرج على المقام فصلى عنده، فصار أبو جعفر على عنق موفق يطوف به، فصار أبو جعفر إلى الحجر فجلس فيه، فأطال، فقال له موفق: قم جعلت فداك، فقال: فقال ما أريد أن أبرح من مكاني هذا إلا أن يشاء الله، واستبان في وجهه الغم، فأتى موفق أبا الحسن فقال له: جعلت فداك قد جلس أبو جعفر في الحجر وهو يأبى أن يقوم، فقام أبو الحسن فأتى أبا جعفر فقال: قم يا حبيبي، فقال: ما أريد أن أبرح من مكاني هذا، قال: بلى يا حبيبي، ثم قال: كيف أقوم وقد ودعت البيت وداعاً لا ترجع إليه، فقال له: قم يا حبيبي فقام معه»^(٢).

٢- ومن مكة المكرمة إلى القادسية^(٣):

روى الحميري عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: «دخلت عليه عليه السلام بالقادسية فقلت له: جعلت فداك إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أجلك والخطب فيه جليل، وإنما أريد فكاك رقبتني من النار فرأيتي سمعت، فقال: لا تدع شيئاً تريد أن تسألني عنه إلا سألتني عنه، قلت له: جعلت فداك إني سألت أباك وهو نازل في هذا الموضع عن خليفته من بعده فدلني عليك، وقد سألتك منذ سنتين وليس لك ولد من الإمامة فيمن تكون بعدك فقلت: في ولدي وقد وهب الله لك اثنين فأيهما عندك بمنزلك التي كانت عند أبيك؟»

فقال لي: هذا الذي سألت عنه ليس هذا وقته، فقلت له: جعلت فداك قد رأيت ما ابتلينا به في أبيك وليس آمن من الأحداث، فقال: كلا إن شاء الله لو كان

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٦٢.

(٣) القادسية بينها وبين الكوفة ١٥ فرسخاً معجم البلدان ج ٤ ص ٢٩١.

الذي تخاف كان مني في ذلك حجة احتج بها عليك وعلى غيرك، أما علمت أن الإمام الفرض عليه الواجب من الله إذا خاف الفوت على نفسه أن يحتج في الإمام من بعده بحجة معروفة مثبتة، إن الله تبارك وتعالى يقول: في كتابه العزيز: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

فطب نفساً وطيب بأنفس أصحابك، فإن الأمر يجيء على غير ما يحذرون إن شاء الله تعالى».

٣ - ومن القادسية إلى النجاف^(٢):

روى الأربيلي بإسناده عن أبي حبيب النجافي، قال:

«رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقد وافى النجاف ونزل في المسجد الذي ينزله الحجاج في كل سنة، وكأني مضيت إليه وسلمت عليه ووقفت بين يديه فوجدت عنده طبقاً من خوص المدينة فيه تمر صيحاني، وكأنه قبض قبضة من ذلك التمر فناولني فعدده فكان ثمانين عشرة ثمرة، فتأولت أنني أعيش بعدد كل ثمرة سنة. فلما كان بعد عشرين يوماً كنت في أرض تعمر بين يدي للزراعة؛ إذ جاءني من أخبرني بقدوم أبي الحسن الرضا عليه السلام من المدينة ونزوله في ذلك المسجد، ورأيت الناس يسعون إليه فمضيت نحوه فإذا هو جالس في الموضع الذي كنت رأيت فيه النبي ﷺ وتحتة حصير مثل الذي كان تحتة، وبين يديه طبق من خواص فيه تمر صيحاني فسلمت عليه فرد علي السلام واستدانني فناولني قبضة من ذلك التمر فعدده فإذا هو بعدد ما ناولني رسول الله ﷺ فقلت: زدني يا ابن رسول الله فقال: لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك»^(٣).

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٥.

(٢) النجاف بين مكة والبصرة (معجم البلدان: ج ٥ ص ٢٥٥).

(٣) كشف الغمة: ج ٢ ص ٣١٣.

٤ - ومن النجاج إلى البصرة:

ثم خرج الإمام الرضا عليه السلام من النجاج وورد البصرة، روى ابن علوان قال: «رأيت في منامي كأن قائلاً يقول: قد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى البصرة قلت: وأين نزل؟ قال في حائط بني فلان، قال فجئت الحائط فوجدت رسول الله حابساً عليه السلام ومعه أصحابه، وبين يديه أطباق رطب برني فقبض بكفه من رطب وأعطاني، فعددها فإذا هي ثمانية عشرة رطبة، فبعد ذلك سمعت الناس يقولون: قد جاء علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت أين نزل؟ فقيل في حائط بني فلان، فمضيت فوجدته في الموضع الذي رأيت فيه النبي صلى الله عليه وآله وبين يديه أطباق فيها رطب، وناولني ثمانية عشرة رطبة فقلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: لو زادك جدي لزدتك»^(١).

٥ - وبعد البصرة وصل الإمام عليه السلام الأهواز:

روى الصدوق بإسناده عن أبي الحسن الصائغ عن عمه، قال: «... لما صار إلى الأهواز قال لهم: اطلبوا لي قصب السكر، فقال بعض أهل الأهواز ممن لا يعقل: أعرابي لا يعلم أن القصب لا يوجد في الصيف، فقالوا: يا سيدنا إن القصب لا يوجد في هذا الوقت، إنما يكون في الشتاء. فقال عليه السلام: بل اطلبوه فإنكم ستجدونه فقال إسحاق بن إبراهيم: والله ما طلب سيدي إلا موجوداً فأرسلوا إلى جميع النواحي، فجاء أكرة^(٢) إسحاق فقالوا: عندنا شيء ادخرناه للبذرة نزرعه، فكانت هذه إحدى براهينه، فلما صار إلى قرية سمعته يقول في سجوده:

لك الحمد إن أطعتك، ولا حجة لي إن عصيتك، ولا صنع لي ولا لغيري
في إحسانك، ولا عذر لي إن أسألت، ما أصابني من حسنة فمنك يا كريم اغفر
لمن في مشارق الأرض ومغاربها من المؤمنين والمؤمنات. قال: فصلينا خلفه
أشهرًا فما زاد في الفرائض على الحمد، وإنا أنزلناه في الأولى، وعلى الحمد وقل

(١) مسند الإمام الرضا: ج ١ ص ٥٤.

(٢) الأكرة الزراعيين.

هو الله أحد في الثانية^(١).

٦ - ومن الأهواز إلى قنطرة أربق^(٢):

وروى الصدوق أيضاً بإسناده عن جعفر بن محمد النوفلي، قال «أتيت الرضا وهو بقنطرة أربق قسملت عليه، ثم جلست وقلت: جعلت فداك إن أناساً يزعمون أن أباك حي، فقال: كذبوا لعنهم الله، ولو كان حياً ما قسم ميراثه ولا نكح نساؤه، ولكنه والله ذاق الموت كما ذاقه علي بن أبي طالب عليه السلام. قال: فقلت له: ما تأمرني قال: عليك بابني محمد من بعدي، وأما أنا فإني ذاهب في وجه الأرض لا أرجع منه، بورك قبر بطوس، وقبران ببغداد، قال: قلت: جعلت فداك قد عرفنا واحداً فما الثاني؟ قال: ستعرفونه، ثم قال عليه السلام: قبري وقبر هارون الرشيد^(٣).

٧ - ومن قنطرة أربق إلى مفازة^(٤):

روى الصدوق بإسناده عن محمد بن حفص، قال: حدثني مولى العبد الصالح أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال:

«كنت وجماعة مع الرضا عليه السلام في مفازة فأصابنا عطش شديد ودوابنا حتى خفنا على أنفسنا، فقال لنا الرضا عليه السلام: ايتوا موضعاً وصفه لنا فإنكم تصيرون الماء فيه، قال: فأتينا الموضع فأصبنا الماء، وسقينا دوابنا حتى رويت وروينا ومن معنا من القافلة، ثم رحلنا فأمرنا عليه السلام بطلب العين، فطلبناها فما أصبنا إلا بكرة الإبل ولم نجد للعين أثراً فذكر ذلك لرجل من ولد قنبر كان يزعم أن له مائة وعشرون سنة فأخبرني القنبري بمثل هذا الحديث سواء، قال:

كنت أنا أيضاً معه في خدمته وأخبرني القنبري أنه كان في ذلك مصعد إلى خراسان^(٥).

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٠٥.

(٢) قنطرة أربق قرية برامهرمز.

(٣) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢١٦.

(٤) المفازة: الفلاة التي لا ماء فيها.

(٥) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢١٦.

قال أبو عبد الله الحاكم في تاريخ نيسابور: «أشخصه المأمون من المدينة إلى البصرة، ثم إلى الأهواز، ثم إلى فارس ثم إلى نيسابور»^(١).

٨ - ومن مفازة إلى قم^(٢):

قال العلامة الحلبي: «ثم سار عليه السلام إلى قم ودخلها فتلقاء أهلها، وتخاصموا فيمن يكون ضيفه منهم فذكر أن الناقة مأمورة فما زالت حتى نزلت على باب، وصاحب ذلك الباب رأى في منامه، أن الرضا عليه السلام يكون ضيفه في غد فما بقي إلا يسير حتى صار ذلك الموضع مقاماً عظيماً شامخاً وهو اليوم مدرسة معروفة.

وقال المحدث القمي:

«توجه على طريق الكوفة إلى بغداد ثم إلى قم ودخلها».

٩ - ومن قم إلى نيسابور^(٣):

روى الصدوق قال: «لما دخل الرضا نيسابور نزل في محلة يقال لها القزويني فيها حمام، وهو الحمام المعروف اليوم بحمام الرضا عليه السلام، وكانت هناك عين قد قل ماؤها، فأقام عليها من أخرج ماءها حتى توفر وكثر، واتخذ من خارج الدرب حوضاً ينزل فيه بالمراقي إلى هذه العين فدخل الرضا واغتسل فيه، ثم خرج منه وصلى على ظهره، والناس يتناوبون ذلك الحوض ويغتسلون فيه ويشربون منه التماساً للبركة ويصلون على ظهره، ويدعون الله عز وجل في حوائجهم فتقضى لهم، وهي العين المعروفة بعين كهلان إلى يومنا هذا»^(٤).

(١) سيرة الأئمة للسيد محسن الأمين ج ٤ ص ١١٧.

(٢) سفينة البحار: ج ٢ ص ٧٤٤٧ قال البلاذري: «وكان المأمون وجه علي بن هاشم المروزي إلى قم، وقد عصي أهلها وخالفوا ومنعوا الخراج وأمره بمحاربتهم وأمدّه بالجيش، ففعل وقتل رئيسهم وهو يحيى بن عمران، وهدم سور مدينتهم وألصقه بالأرض وجباها سبعة آلاف درهم، وكان أهلها قبل ذلك يتظلمون من ألفي ألف درهم» فتوح البلدان ص ٣١١.

(٣) قال ياقوت: «من الري إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً، ومنها إلى سرخس أربعون فرسخاً، ومن سرخس إلى مرو الشاهجان ثلاثون فرسخاً» معجم البلدان ج ٥ ص ٣٣١.

(٤) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٥.

وروى ابن شهر آشوب عن الحاكم أبي عبد الله الحافظ: «لما دخل الرضا عليه السلام نيسابور ونزل محلة فور ناحية يعرفها الناس بالإسناد في دار تعرف بدار بسنديدة، وإنما سميت بسنديدة لأن الرضا عليه السلام ارتضاه من بين الناس، فلما نزلها زرع في جانب من جوانب الدار لوزة فنبتت وصارت شجرة فأثمرت في كل سنة، وكان أصحاب العلل يستشفون بلوز هذه الشجرة وعوفي أعمى وصاحب قولنج وغير ذلك، فمضت الأيام على ذلك ويبست فجاء حمدان وقطع أغصانها.

ثم جاء ابن لحمدان لقب بأبي عمرو فقطع تلك الشجرة من وجه الأرض فذهب ماله كله، كان له ابنان، يقال لأحدهما أبو القاسم، والآخر أبو صادق فأراد عمارة تلك الدار وأنفقاً عليها عشرين ألف درهم، فقلعا الباقي من تلك الشجرة فماتا في مدة سنة»^(١).

وروى نفسه أيضاً، قال: «لما نزل الرضا في نيسابور بمحلة فوزا أمر ببناء حمام، وحفر قناة، وحوض فوقه مصلى، فاغتسل من الحوض وصلى في المسجد فصار ذلك سنة، فيقال: كرما به رضا، وآب رضا، وحوض كاهلان، ومعنى ذلك أن رجلاً وضع همياناً على طاقة واغتسل منه، وقصد إلى مكة ناسياً. فلما انصرف من الحج أتى الحوض فرآه للغسل مشدوداً فسأل الناس عن ذلك فقالوا: قد آوى فيه ثعبان ونام على طاقه ففتحه الرجل ودخل في الحوض وأخرج هميانه، وهو يقول:

هذا من معجز الإمام، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: أي كاهلان لثلا يأخذوهما، فسمى الحوض بذلك كاهلان، وسميت المحلة (فوز) لأنه فتح أولاً فصحفوها وقالوا فوزا، وروي أنه أتته ظبية فلاذت فيه، قال ابن حماد:

الذي لاذ بته الظب — ية والقوم جلوس
من أبوه المرتضى — يزكو ويحلو ويروس^(٢)

قال الشبلنجي: «دخل على علي بن موسى بنيسابور قوم من الصوفية،

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ ص ٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ج ٤ ص ٣٤٨.

فقالوا: إن أمير المؤمنين المأمون نظر فيما ولاه الله من الأمور، ثم نظر فرآكم أهل البيت أولى من قام بأمر الأمة، ثم نظر في أهل البيت فرآكم أولى الناس بالناس من كل واحد منهم، فردّ هذا الأمر إليك والناس تحتاج إلى من يأكل الخشن ويركب الحمار ويعود المريض ويشيع الجنائز، قال: وكان علي الرضا متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: كان يوسف بن يعقوب نبياً فلبس أقبية الديباج المزررة بالذهب، والقباطي المنسوجة بالذهب، وجلس على متكآت آل فرعون وحكم، وأمر ونهى، يراد من الإمام القسط والعدل إذا قال صدق وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز. إن الله لم يحرم ملبوساً ولا مطعوماً، وتلا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

أما الهيثمي فروى وقال:

«ولما دخل نيسابور كما في تاريخها وشق سوقها، وعليه مظلة لا يرى من ورائها تعرض له الحافظان أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى؛ فتضرعا إليه أن يريهم وجهه ويروي لهم حديثاً عن آبائه فاستوقف البغلة، وأمر غلمانها بكف المظلة وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعه المباركة فكانت له ذؤابتان متدلّيتان على عاتقه، والناس بين صارخ وباك وמתمرغ في التراب ومقبل لحافر بغلته، فصاحت العلماء: معاشر الناس انصتوا؛ فأنصتوا واستملى منه الحافظان المذكوران، فقال:

حدثني أبي موسى الكاظم، عن أبيه جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام قال: حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وآله قال: حدثني جبريل قال: سمعت رب العزة يقول: «لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني أمن من عذابي».

ثم أرخى الستر وسار، فعد أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً^(٢).

(١) سورة الأعراف: الآية، ٣٢ وراجع نور الأبصار ص ١٨٢.

(٢) الصواعق المحرقة: ص ١٢٢.

وما قاله العلماء أيضاً عن دخوله إلى نيسابور:

روى ابن الصباغ المالكي قال: «قال المولى السعيد إمام الدنيا محمد بن أبي سعيد بن عبد الكريم الوزان في محرم سنة ست وتسعين وخمسمائة ٥٩٦ صفر، قال: أورد صاحب كتاب نيسابور في كتابه أن علي بن موسى الرضا لما دخل إلى نيسابور في السفارة التي خص فيها بفضيلة الشهادة، كان في قبة مستورة بالسقلاط على بغلة شهباء وقد شق نيسابور فعرض له الإمامان الحافظان للأحاديث النبوية والمثابرة على السنة المحمدية: أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي ومعهما خلائق لا يحصون من طلبة العلم، وأهل الأحاديث وأهل الرواية والدراية فقالوا: أيها السيد الجليل ابن السادة الأئمة بحق آبائك الأطهرين وأسلافك الأكرمين إلا ما أريتنا وجهك الميمون المبارك، ورويت لنا حديثاً عن آبائك عن جدك محمد ﷺ نذكرك به، فاستوقف البغلة وأمر غلمانها بكشف المظلة عن القبة وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعت المباركة، فكانت له ذؤابتان على عاتقه، والناس كلهم قيام على طبقاتهم ينظرون إليه وهم بين صارخ وباك، وמתمرغ في التراب ومقبل لحافر بغلته، وعلا الضجيج فصاحت الأئمة والعلماء والفقهاء:

معاشر الناس اسمعوا وعوا، وانصتوا السماع ما ينفعكم ولا تؤذونا بكثرة صراخكم وبكائكم، وكان المستملي أبو زرعة ومحمد بن أسلم الطوسي، فقال علي بن موسى الرضا ﷺ:

حدثني أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه علي زين العابدين عن أبيه الحسين شهيد كربلاء عن أبيه علي بن أبي طالب ﷺ قال: حدثني حبيبي وقره عيني رسول الله ﷺ قال: حدثني جبرائيل، قال: سمعت رب العزة سبحانه وتعالى يقول كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي، ثم أرخى الستر على القبة وسار، قال: فعدوا أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: اتصل هذا الحديث بهذا السند ببعض الأمراء السامانية فكتبه بالذهب وأوصى أن يدفن معه في قبره، فرؤي بالنوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ غفر الله لي بتلفظي بلا إله إلا الله وتصديقي

بأن محمداً رسول الله»^(١).

وروى السمهودي بإسناده عن أبي الليث عبد السلام بن صالح الهروي، قال: «كنت مع علي بن موسى الرضا، وقد دخل نيسابور، وهو على بغلة له شهباء فغدا في طلبه العلماء من أهل البلد، وهم أحمد بن حرب وابن المنصور، وريحى بن يحيى وعدة من أهل العلم فتعلقوا بلجامه في المربعة، وقالوا له: بحق آبائك الطاهرين، حدثنا بحديث سمعته من أبيك، فقال: حدثني أبي العبد الصالح موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر الصادق بن محمد، قال: حدثني أبي باقر علم الأنبياء محمد بن علي، قال: حدثني أبي سيد العابدين علي بن الحسين، قال: حدثني أبي سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي قال: سمعت أبي سيد العرب علي بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان قال الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله: لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبريء من حينه»^(٢).

وروى الصدوق بإسناده عن علي بن بلال عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي ﷺ عن جبريل عن ميكائيل، عن إسرافيل عن اللوح عن القلم، قال:

يقول الله عز وجل: ولاية علي بن أبي طالب حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»^(٣).

١٠ - كرامة في قرية الحمراء^(٤):

روى الصدوق بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: «لما خرج علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى المأمون وبلغ قرب قرية الحمراء قيل له: يا ابن

(١) الفصول المهمة: ص ٢٥٣ ورواه السمهودي في جواهر العقدين العقد الثاني الذكر ١٣ ص ٢٠٧ والقندوزي في ينابيع المودة ص ٣٨٥.

(٢) المصدر السابق العقد الثاني الذكر ١٣ ص ٣٠٨ ورواه أبو نعيم في أخبار أصفهان.

(٣) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٣٦.

(٤) قرية الحمراء: هي التي يقال لها اليوم (ده سرخ).

رسول الله قد زالت الشمس أفلا تصلي؟ فنزل ﷺ فقال: ايتوني بماء فقيل له: ما معنا ماء. فبحث ﷺ بيده الأرض فنبع منها ماء فتوضأ به هو ومن معه وأثره باق إلى اليوم»^(١).

ومن نيسابور إلى رباط سعد^(٢):

روى الأربيلي عن عبد الله بن عبد الرحمن، المعروف بالصفواني قال: «خرجت قافلة خراسان إلى كرمان فقطع اللصوص عليهم الطريق، وأخذوا منهم رجلاً أتهموه بكثرة المال، فأقاموه في الثلج وملاؤا فاه منه فانفسد فمه ولسانه، حتى لم يقدر على الكلام ثم انصرف إلى خراسان وسمع بخبر الرضا ﷺ وأنه بنيسابور، فرأى فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له: إن ابن رسول الله ورد خراسان فسله عن علتك ليعلمك دواء تنتفع به قال: فرأيت كأنني قد قصدته وشكوت إليه كما كنت دفعت إليه، وأخبرته بعلتي، فقال لي: خذ من الكمون والزعتر والملح ودقه وخذ منه في فمك مرتين أو ثلاثاً، فإنك تعافى، فانتبه الرجل ولم يفكر في منامه حتى ورد نيسابور فقيل له: إن الرضا ﷺ ارتحل من نيسابور وهو في رباط سعد، فوقع في نفسه أن يقصده ويصف له أمره فدخل إليه فقال له: يا ابن رسول الله كان من أمري كيت وكيت وقد انفسد علي فمي ولساني حتى لا أقدر على الكلام إلا بجهد فعلمني دواء أنتفع به، فقال ﷺ: ألم أعلمك فاذهب واستعمل ما وصفته لك في منامك، فقال: تأخذ الكمون والزعتر والملح فدقه وخذ منه في فمك مرتين أو ثلاثاً فإنك تعافى، قال الرجل: فاستعملت ما وصفه لي فعوفيت، قال الثعالبي: سمعت الصفواني يقول: رأيت هذا الرجل وسمعت منه هذه الحكاية»^(٣).

١٢ - دخوله ﷺ إلى سناباد^(٤):

روى الصدوق بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي... «لما دخل سناباد استند إلى الجبل الذي تنحت منه القدور، فقال: اللهم انفع به وبارك فيما

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٦.

(٢) رباط سعد: يقال لها اليوم (رباط سنك).

(٣) كشف الغمة: ج ٢ ص ٣١٤.

(٤) قرية بطوس فيها قبر علي بن موسى الرضا وقبر الرشيد معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٩.

يجعل فيه وفيما ينحت منه، ثم أمر عليه السلام فنحت له قدور من الجبل وقال: لا يطبخ ما أكله إلا فيها، وكان خفيف الأكل قليل الطعام، فاهتدى الناس إليه من ذلك اليوم فظهرت بركة دعائه فيه»^(١).

١٣ - ومن سنا باز إلى طوس:

روى ابن شهر آشوب بإسناده عن موسى بن سيار قال: «كنت مع الرضا عليه السلام وقد أشرف على حيطان طوس، وسمعت واعية فاتبعتها فإذا نحن بجنابة، فلما بصرت بها رأيت سيدي وقد ثنى رجله عن فرسه، ثم أقبل نحو الجنابة فرفعها، ثم أقبل يلوذ بها كما تلوذ السخلة بأמהا، ثم أقبل عليّ وقال: يا موسى بن سيار، من شيع جنابة وليّ من أوليائنا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه لا ذنب عليه، حتى إذا وضع الرجل على شفير قبره رأيت سيدي قد أقبل فأفرج الناس عن الجنابة حتى بدا له الميت فوضع يده على صدره، ثم قال:

يا فلان بن فلان أبشر بالجنة فلا خوف عليك بعد هذه الساعة، فقلت: جعلت فداك هل تعرف الرجل؟ فوالله إنها بقعة لم تطأها قبل يومك هذا، فقال لي: يا موسى بن سيار أما علمت أنا معاشر الأئمة تعرض علينا أعمال شيعتنا صباحاً ومساءً فما كان من التقصير في أعمالهم، سألنا الله تعالى الصفح لصاحبه، وما كان من العلو سألنا الله الشكر لصاحبه»^(٢).

(١) عيون أبار الرضا ج ٢ ص ١٣٦.

(٢) طوس: قال ياقوت: «هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، تشتمل على بلدتين، يقال لأحدهما: الطابران، وللأخرى: نوقان، وبها قبر علي بن موسى الرضا، وبها أيضاً قبر هارون الرشيد، وبها دار حميد بن قحطبة ومساحتها ميل في مثله، وقال دعبل بن علي الخزاعي في قصيدة مدح بها آل علي بن أبي طالب عليهم السلام ويذكر قبري علي بن موسى والرشيد بطوس:

أربع بطوس على قبر الزكيّ به إن كنت تربع من دين علي وطر
قبران في طوس: خير الناس كلهم وقبر شهرهم، هذا من العبر
ما ينفع الرجس من بقرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت يده حقاً، فخذ ما شئت أو فذر

معجم البلدان ج ٤ ص ٥٠ راجع المناقب ج ٤ ص ٣٤١.

١٤ - والآن ماذا عن دخوله ﷺ دار حميد بن قحطبة:

روى الصدوق قال: «إن الرضا ﷺ دخل دار حميد بن قحطبة الطائي ودخل القبة التي فيها قبر هارون الرشيد، ثم خط بيده إلى جانبه، ثم قال: هذه تربتي وفيها أدفن وسيجعل الله هذا المكان مختلف شيعتي وأهل محبتي، والله ما يزورني منهم زائر، ولا يسلم عليّ منهم مسلم إلا وجب له غفران الله ورحمته بشفاعتنا أهل البيت، ثم استقبل القبلة، فصلى ركعات ودعا بدعوات فلما فرغ سجد سجدة طال مكثه فيها فأحصيت لها فيها خمسمائة تسيحة ثم انصرف»^(١).

وروى بإسناده عن ياسر الخادم قال: «لما نزل أبو الحسن علي بن موسى الرضا ﷺ قصر حميد بن قحطبة نزع ثيابه وناولها حميداً فاحتملها وناولها جارية له لتغسلها، فما لبثت أن جاءت ومعها رقعة فناولتها حميداً وقالت: وجدتها في جيب أبي الحسن علي بن موسى الرضا ﷺ فقلت: جعلت فداك إن الجارية وجدت رقعة في جيب قميصك، فما هي؟».

قال: يا حميد هذه عوذة لا نفارقها، فقلت: لو شرفتنني بها قال ﷺ: هذه عوذة من أمسكها في جيبه كان مدفوعاً عنه، وكانت له حرزاً من الشيطان الرجيم ومن السلطان، ثم أملى على حميد العوذة وهي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، باسم الله إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً أو غير تقى، أخذت الله السميع البصير على سمعك وبصرك لا سلطان لك علي، ولا على سمعي ولا بصري، ولا على شعري ولا على بشري، ولا على لحمي ولا على دمي، ولا على فمي، ولا على عصبتي، ولا على عظامي، ولا على أهلي ولا على مالي، ولا على ما رزقني ربي، سترت بيني وبينك بستر النبوة الذي استتر به أنبياء الله من سلطان الفراغة، جبرائيل عن يميني، وميكائيل عن يساري وإسرافيل من ورائي، ومحمد ﷺ أمامي، والله مطلع على ما يمنعك ويمنع الشيطان مني، اللهم لا تغلب جهله أناتك أن يستفزني ويستخفني، اللهم إليك التجأت اللهم إليك التجأت، اللهم إليك التجأت»^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٧ والمناقب ج ٤ ص ٣٤٤.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٨.

١٥ - وهذه محطة الإمام عليه السلام في سرخس^(١):

وروى الصدوق أيضاً بإسناده عن أحمد قال: «سمعت جدي يقول: سمعت أبي يقول لما قدم علي بن موسى الرضا عليه السلام نيسابور أيام المأمون قمت في حوائجه والتصرف في أمره ما دام بها، فلما خرج إلى مرو شيعته إلى سرخس، فلما خرج من سرخس أردت أن أشيعه إلى مرو فلما سار مرحلة أخرج رأسه من العمارية، وقال لي: يا أبا عبد الله انصرف راشداً فقد قمت بالواجب وليس للتشيع غاية، قال: قلت بحق المصطفى والمرضى والزهراء لما حدثتني بحديث تشفيني به حتى أرجع فقال: تسألني الحديث وقد أخرجت من جوار رسول الله ولا أدري إلى ما يصير أمري، قال: قلت بحق المصطفى والمرضى والزهراء لما حدثتني بحديث تشفيني حتى أرجع فقال:

حدثني أبي عن جدي عن أبيه أنه سمع أباه يذكر أنه سمع عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام يذكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول: قال الله جل جلاله: لا إله إلا الله اسمي، من قاله مخلصاً من قلبه دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي»^(٢).

١٦ - والآن نزول الرضا عليه السلام بمرو^(٣):

روى المحدث القمي قال: «أن رجلاً كان جمالاً لمولانا أبي الحسن عليه السلام عند توجهه إلى خراسان، فلما أراد الانصراف، قال له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله شرفني بشيء من خطك أتبرك به، وكان الرجل من العامة، فأعطاه المكتوب كن محباً لآل محمد عليه السلام وإن كنت فاسقاً، ومحباً لمحبيهم وإن كانوا فاسقين»^(٤). قال المسعودي: في حوادث سنة مائتين. «وصل إلى المأمون أبو الحسن علي بن موسى الرضا وهو بمدينة مرو، فأنزله المأمون أحسن إنزال»^(٥).

(١) سَرْخُس: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٧.

(٣) قال ياقوت الحموي: بين مرو ونيسابور سبعون فرسخاً، وإلى بلخ مائة واثان وعشرون فرسخاً، اثنان وعشرون منزلاً معجم البلدان ج ٥ ص ١١٣.

(٤) سفينة البحار: ج ١ ص ٢٠١.

(٥) مروج الذهب: ج ٤ ص ٢٨.

مناظرات الإمام الرضا عليه السلام

تميز عصر الإمام الرضا عليه السلام بروج سوق العلم وشيوع المناظرات والاحتجاجات بين علماء الأديان من مختلف المذاهب والنحل، وقد احتدم الجدل بينهم في كثير من البحوث الكلامية والمسائل العلمية في العقائد الدينية وبالأخص فيما يتعلق بأصول الدين. وقد حفلت الكتب الكلامية وغيرها بألوان من ذلك الصراع العقائدي بين المتكلمين، فكان كل منهم يدلي بدلوه ليثبت رأيه بأدلة يعتقدونها ويؤيدها.

ومن بين المسائل التي احتدم فيها الجدل بين السنة والشيعة: الإمامة فالشيعة يقولون أن الإمامة كالنبوة غير خاضعة لاختيار الأمة وانتخابها، وإنما أمرها بيد الله تعالى، فهو الذي يختار لها من يشاء من صلحاء عباده ممن امتحن قلوبهم للإيمان، كما يشترطون في الإمام أن يكون معصوماً عن الخطأ، وأن يكون أعلم أفراد الأمة، وأخبرها في شؤون الشريعة الإسلامية كما في جميع شؤون الحياة. أما السنة فقد أنكروا ذلك كله جملة وتفصيلاً. ومن الجدير بالذكر أن بلاطات الملوك وأروقة الوزراء في عصر الإمام الرضا عليه السلام قد عقدت فيها مجالس للمناظرة بين زعماء المذاهب الإسلامية.

فالبرامكة عقدوا مجالسهم ضمت المتكلمين من علماء السنة، فناظروا العالم الكبير المعروف هشام بن الحكم، وحاججوه في أمر الإمامة فتغلب عليهم بحججه البالغة، وقوة برهانه وأدلته الدامغة.

والمرجح أن البرامكة خاضوا في هذه البحوث الحساسة لا لبواعث علمية فقط؛ وإنما لاختبار علماء الشيعة ما يملكون من الأدلة الحاسمة والبراهين العلمية في إثبات معتقداتهم في الإمام.

والإمام الرضا عليه السلام كان النجم الساطع والمرجع الأساسي للفلاسفة وغيرهم في مناظراتهم واحتجاجاتهم.

ولما جعل المأمون ولاية العهد له عليه السلام ، التي لم تكن عن إخلاص ولا عن إيمان بأن الإمام أحق وأولى بالخلافة منه ، وإنما كانت الأسباب سياسية سوف تأتي على ذكرها . فقد أوعز إلى ولاته في جميع أنحاء العالم الإسلامي باحضار كبار العلماء من المتمرسين في مختلف أنواع العلوم ؛ بالحضور إلى خراسان ليسألوا الإمام عن أعقد المسائل العلمية ، ولما حضروا عنده عرض عليهم الأمر ، ووعدهم بجوائز عظيمة إذا سألوا الإمام أسئلة يعجز عن إجابتها . وإذا ما تساءلنا عن السبب وجدناه يعود إلى الأمور التالية :

١ - أراد المأمون أن يقضي على عقيدة الشيعة بكل معالمها فيما إذا عجز الإمام الرضا عليه السلام عن الإجابة . فإنه يتخذ من ذلك وسيلة لنقض ما تذهب إليه الشيعة من أن الإمام أعلم أهل عصره وأدراهم بجميع أنواع العلوم ، وهذا قد يؤدي في نظره إلى زعزعة كيان التشيع وبطلان عقيدتهم في أهل البيت عليهم السلام .

٢ - ولو عجز الإمام عن إجابة المسائل التي يقدمها العلماء فعندها يكون المأمون في سعة عزله عن ولاية العهد ، بعد أن استنفذ كل أغراضه السياسية منها . لأنه أظهر للناس أنه رشح الإمام الرضا لهذا المنصب الخطير وإلهام على اعتبار أنه أعلم الأمة ، ولكن لما ظهر له خلاف ذلك أقدم على عزله ، وعندها تقوم وسائل إعلامه في البلاط بإذاعة ذلك ، والحط من شأن الإمام ، وفي ذلك استجابة لعواطف الأسرة العباسية التي غضبت لترشيح المأمون للإمام ولاية العهد فعمدت إلى عزله .

شرح العلماء في التنقيب عن أعقد المسائل وأكثرها صعوبة في جميع أنواع العلوم ، ثم عرضوها على الإمام فأجاب عنها جواب العالم الخبير المتمرس في رحابها . يقول الرواة أنه سئل عن أكثر من عشرين ألف مسألة في حقول معرفية متفرقة . بعد ذلك خرجت الوفود العلمية وكلها إعجاب وأكبار لعبقريّة الإمام ومواهبه الفذة ، وأخذت تذيب على الناس ما سمعته ورأته من علوم الإمام الرضا وطاقتة الهائلة ، كما ذهب معظمهم إلى القول بإمامته وأنه أعلم أهل زمانه .

ولما فشل المأمون في مؤامراته على الإمام احتار في أمره وارتبك فماذا يفعل؟ لقد أمر إلى حجب الإمام عليه السلام عن العلماء خوفاً أن يفتنوا به . وسوف

نعرض بعض ما ذكر الرواة من مناظراته واحتجاجاته، وفيما يلي ذلك:

١ - قام إليه من بين جمع غفير علي بن محمد بن الجهم فقال له:

يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟

قال عليه السلام: نعم.

قال: فما تعمل في قول الله عز وجل: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(١).

وقوله عز وجل: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٢).

وقوله عز وجل في النبي يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُوهَا وَهَمَّ بِهَا﴾^(٣).

وقوله عز وجل في النبي داود عليه السلام: ﴿سُئِلَ نَجِيكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِفَةِ لِيُنَبِّي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾^(٤).

وقوله تعالى في نبيه محمد عليه السلام: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾^(٥).

فأجاب الإمام الرضا عليه السلام:

ويحك يا علي اتق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تأول كتاب الله برأيك، فإن الله عز وجل قد قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

وأما قوله عز وجل في آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فإن الله عز وجل خلق آدم حجة في أرضه، وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم عليه السلام في الجنة لا في الأرض، وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر الله، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(١) سورة طه: الآية، ١٢١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية، ٨٧.

(٣) سورة يوسف: الآية، ٢٤.

(٤) سورة ص: الآية، ٢٤.

(٥) سورة الأحزاب: الآية، ٣٧.

وأما قوله عز وجل: ﴿وَدَا التُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغْنِضًا فَلَنْ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ .

وإنما الظن بمعنى استيقن أن الله لن يضيق عليه رزقه، ألا تسمع قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ .

أي ضيق عليه رزقه، ولو ظن أن الله لا يقدر عليه لكان قد كفر.

وأما قوله عز وجل في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ .

فإنها همت بالمعصية، وهم يوسف عليه السلام بقتلها إن أجبرته لعظم ما تداخله فصرف عنه قتلها والفاحشة وهو قوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ يعني القتل والزنا.

وأما داود عليه السلام فما يقول من قبلكم فيه؟.

فقال علي بن محمد بن الجهم: يقولون إن داود عليه السلام كان في محرابه يصلي فتصور له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع داود صلواته وقام ليأخذ الطير، فخرج الطير إلى الدار فخرج في إثره، فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه، فسقط الطير في دار أوريا بن حنان، فاطلع داود في إثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل، فلما نظر إليها هواها، وكان قد أخرج أوريا في بعض غزواته، فكتب إلى صاحبه: أن أقدم أوريا أمام التابوت فقدم أوريا بالمشركين، فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية: إن قدمه أمام التابوت، فقدم فقتل أوريا فتزوج داود بامرأته.

قال: فضرب الإمام الرضا عليه السلام بيده على جبهته، وقال: إن الله وإنا إليه راجعون لقد نسبتم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلواته، حتى خرج في إثر الطير ثم بالفاحشة، ثم بالقتل!

فقال: يا ابن رسول الله فما كانت خطيئته؟.

فقال عليه السلام: ويحك إن داود إنما ظن أنه ما خلق الله عز وجل خلقاً هو أعلم منه، فبعث الله عز وجل إليه الملكين فتسورا المحراب فقالا:

﴿حَصَمَانِ بَعَى بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُسْطِطْ وَاهِدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾

إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسْعَ وَسَعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَيْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ﴿١﴾ إِلَى
قوله:

﴿نَجَبِكَ إِلَيَّ نِعَاجِي﴾ فجعل داود على المدعي عليه فقال: لقد ظلمك بسؤال
نعجتك إلى نعاجة، ولم يسأل المدعي البينة على ذلك، ولم يقبل على المدعي
عليه فيقول له: ما تقول، فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، ألا
تسمع الله عز وجل يقول: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾.

فقال: يا ابن رسول الله فما قصته مع أوريا؟.

فقال الرضا عليه السلام: إن المرأة في أيام داود عليه السلام كانت إذا مات بعلمها أو
قتل لا تتزوج بعده أبداً، وأول من أباح الله له أن يتزوج بامرأة قتل بعلمها كان
داود عليه السلام، فتزوج بامرأة أوريا لما قتل وانقضت عدتها منه، فذلك الذي شق
على الناس من قبل أوريا.

وأما محمد عليه السلام وقول الله عز وجل: ﴿وَنُحِشِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ
وَنُحِشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾.

فإن الله عز وجل عزف نبيه عليه السلام أسماء أزواجه في دار الدنيا، وأسماء
أزواجه في دار الآخرة، وأنهن أمهات المؤمنين وإحدى من سمى له زينب بنت
جحش، وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة، فأخفى اسمها في نفسه ولم يبهده لكي
لا يقول أحد من المنافقين إنه قال في امرأة في بيت رجل إنها إحدى أزواجه من
أمهات المؤمنين، وخشي قول المنافقين، فقال الله عز وجل: ﴿وَنُحِشَى النَّاسَ وَاللَّهُ
أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ يعني في نفسك، وإن الله عز وجل ما تولى تزويج أحد من خلقه
إلا تزويج حواء من آدم عليه السلام، وزينب من رسول الله بقوله: «فلما قضى زيد
منها وطراً زوجناكها»، وفاطمة من علي.

قال: فبكى علي بن محمد بن الجهم، فقال: يا ابن رسول الله أنا تائب
إلى الله تعالى من أن أنطق في أنبياء الله بعد يومي هذا إلا بما ذكرته^(١).

(١) عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ١٩٥.

٢ - الفيلسوف الصابىء:

هو عمران الصابىء من كبار فلاسفة عصر الإمام الرضا عليه السلام والزعيم الروحي لطائفة الصابئة، وقد انتدبه المأمون لامتحان الإمام، فاختار له أعمق المسائل الفلسفية وأكثرها تعقيداً وغموضاً. وقد اشتمل هذا الاحتجاج أهم المسائل الإلهية والحكمة المتعالية أتعبت أفكار الباحثين في هذا الفن، وكلها جاءت من أساطين كبار، غامضة، معقدة، متفرعة.

وأجاب عنها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ثامن حجج الله على خلقه وأمنائه في أرضه، ثم بين كل هذه الاحتجاجات بأجوبة دامغة ومناهج واضحة لم يطمسها غبار الحجب المادية؛ التي تثيرها العقول المحدودة في معقل المحسوسات المظلمة. وهكذا تبين لكل من تمسك بمنهج أهل البيت وبيت النبوة، ومعدن الرسالة، حقائق مشرقة لا تحتاج إلى رد أو تأويل من أصحاب الأفكار المضللة والنوايا الخبيثة.

وسوف نعرض باذن الله النص الكامل من أسئلة الصابىء وجواب الإمام عنها حسبما ذكره الشيخ الصدوق في (عيون أخبار الرضا).

قام الوفد من كبار علماء النصارى، واليهود، والصابئة، فقال لهم: «يا قوم إن كان منكم أحد يألف الإسلام، وأراد أن يسأل، فليسأل غير محتشم».

أ - فانبرى إليه عمران الصابىء وكان بصيراً بعلم الكلام محدثاً لبقاً وخاطب الإمام بأدب وإكبار فقال: «يا عالم الناس لولا أنك دعوت إلى مسألتك، لم أقدم عليك بالمسائل، فلقد دخلت الكوفة، والبصرة، والشام، والجزيرة، ولقيت المتكلمين، فلم أقع على أحد يثبت لي واحداً - يعني أن الله تعالى واحد لا ثاني له - ليس غيره قائماً بوحدانيته أفتأذن لي أن أسألك؟».

فقابله الإمام عليه السلام ببسمات فياضة بالبشر وقال عليه السلام:

«إن كان في الجماعة عمران الصابىء، فأنت هو...».

أجاب عمران: أنا هو.

«سل يا عمران، وعليك بالنصفة، وإياك والخطل^(١) والجور...».

(١) الخطل: المنطق الفاسد.

أطرق الصابىء بوجهه إلى الأرض، وقال بكلمات ترشح أدباً وإجلالاً للإمام «والله يا سيدي ما أريد إلا أن تثبت لي شيئاً أتعلق به فلا أجوزه».

وهذا يبدو أن الصابىء تأثر بالوهج المتدفق من وجه الإمام، وأعرب عن نواياه الحسنة وأنه يريد الحقيقة، والوصول إلى الواقع، فقال عليه السلام: «سل عما بدا لك».

وكان المجلس مكتظاً بالعلماء والمفكرين الكبار، ومعهم المأمون، فتحضروا وانقطعوا عن الكلام ليسمعوا أسئلة الصابىء وأجوبة الإمام عنها.

قال الصابىء: «أخبرني عن الكائن الأول وعما خلق»؟.

فالموضح من هذا السؤال: الشيء الأول والمادة الأولى التي خلق الله منها الأشياء.

قال الإمام عليه السلام:

«أما الواحد فلم يزل واحداً كائناً، بلا حدود، ولا أعراض، ولا يزال كذلك، ثم خلق خلقاً مبدعاً مختلفاً بأعراض وحدود مختلفة، لا في شيء أقامه، ولا في شيء حده، ولا على شيء حذاه، ومثله له، فجعل الخلق من بعد ذلك صفوة وغير صفوة، واختلافاً واثتلافاً، وألواناً وذوقاً وطعماً لا حاجة كانت منه إلى ذلك، ولا لفضل منزلة لم يبلغها إلا به، ولا رأى لنفسه فيما خلق زيادة أو نقصاناً».

فالإمام عليه السلام وضح لعمران ومن معه، إن الله تعالى واحد لا شيء معه، وهو مجرد من الحدود والأوضاع التي هي من صفات الممكن، فهو كائن واحد، ما زال ولا يزال، وليست وحدته عددية أو نوعية أو جنسية، وإنما بمعنى عدم ارتباطه بأي شيء مادي أو غير مادي، فهو بمرتبة من الكمال لا يشابهه أي شيء من الممكنات التي نسبتها إليه نسبة الصانع إلى المصنوع، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والأمر الثاني: إن نظرة العرب البدوية للأشياء إن كل صورة لا بد لها من مادة تقوم وتحل بها، ولكن هذا بالنسبة إلى غير الواجب تعالى، أما هو فإنه يخلق

الأشياء لا من شيء كان، ولا من شيء خلق، وإنما يقول للشيء كن فيكون، فقد ابتدئ خلق الأشياء لا على شيء حذاه، ومثله له، فهو القوة الكبرى المبدعة لخلق الأشياء لا حاجة منه إليها، فهو المصدر الوحيد للفيض على جميع الكائنات .

ثم التفت الإمام عليه السلام إلى عمران فقال له: «تعقل هذا يا عمران...؟» .

«نعم يا سيدي» ثم أكمل الإمام جوابه:

«اعلم يا عمران أنه لو كان خلق ما خلق حاجة، لم يخلق إلا من يستعين به على حاجته، ولكان ينبغي أن يخلق أضعاف ما خلق لأن الأعوان كلما كثروا كان صاحبهم أقوى، والحاجة يا عمران لا يسعها لأن كان لم يحدث من الخلق شيئاً؛ إلا حدثت فيه حاجة أخرى، ولذلك أقول:

لم يخلق الخلق حاجة ولكن تقل بالخلق الحوائج بعضهم إلى بعض، وفضل بعضهم على بعض بلا حاجة منه إلى من فضل، ولا نعمة منه على من أذل...» .

يتضح من هذا الكلام أنه متمم لما قبله من أن الله تعالى خلق الخلق في غنى عنهم فهم المحتاجون إلى فيضه ورحمته وعطائه، وهو الجواد المطلق الذي ليس فوق جوده، جود والذي بسط الرحمة والاحسان على جميع الموجودات والكائنات، وكان من فضله أنه فضل بعض مخلوقاته على بعض بلا حاجة منه إلى من فضل، ولا نعمة منه على من أذل .

ب - سؤال آخر من الصابىء قال: «يا سيدي هل كان الكائن معلوماً في نفسه عند نفسه...؟» .

فقال عليه السلام: «إنما يكون المعلمة بالشيء لنفي خلافه، وليكن الشيء نفسه، بما نفي عنه، موجوداً، ولم يكن هناك شيء يخالفه فتدعوه الحاجة إلى نفي ذلك الشيء عن نفسه بتحديد ما علم منها» .

ثم التفت عليه السلام إلى عمران وقال له: «أفهمت يا عمران...؟» .

«نعم والله يا سيدي...» .

ج - وسأل الصابىء: أخبرني بأي شيء علم ما علم أضمير أم بغير ضمير؟

قال الإمام عليه السلام : رأيت إذا علم أضمير هل يجد بدأ من أن يجعل لذلك الضمير حداً تنتهي إليه المعرفة؟ .

لقد أراد الصابئ من خلال هذا السؤال إلزام الإمام بالقول بالتركيب في ذاته تعالى، من جهة أنه ذو ضمير .

وأراد الإمام عليه السلام إن ذلك الضمير لا بد أن يعرف حقيقته وماهيته .

ثم وجه الإمام إليه السؤال التالي : فما ذلك الضمير؟ . . .

عند ذلك سكت الصابئ ولم يستطع أن يقول شيئاً، لأن الإمام العظيم قد سد عليه كل نافذة يدخل منها لاثبات ما يذهب إليه .

وأردف الإمام قائلاً له : «لا بأس إن سألتك عن الضمير نفسه فتعرفه بضمير آخر؟ فإذا قلت نعم، أفسدت عليك قولك . . .» .

وهنا يكون الإمام قد أقام البرهان القاطع والحجة الكاملة على بسط ما التزم به الصابئ من أن الله عز وجل يعلم بواسطة الضمير، وعلى هذا فلا بد من ضمير آخر يقع به الإدراك لذاته تعالى، وهذا الضمير الآخر يتوقف على ضمير غيره، وهكذا فيلزم التسلسل وهو ما لا نهاية له، وإن توقف الضمير الثاني على الضمير الأول فيلزم منه الدور والأمر أن مما أجمع على فسادهما، لترتب الأمور الفاسدة عليها حسبما ذكره الفلاسفة والمنطقيون .

ثم أردف الإمام متمماً برهانه بقوله :

«يا عمران أليس ينبغي أن تعلم أن الواحد ليس يوصف بضمير، وليس يقال له : أكثر من فعل وعمل وصنع، وليس يتوهم منه مذاهب وتجربة كمذاهب المخلوقين وتجزيتهم، فاعقل ذلك، وابن عليه ما علمت صواباً . . .» .

أراد الإمام عليه السلام بتوضيحه هذا : إن صدور الأفعال والأعمال المختلفة من الله تعالى ليست على غرار غيره من الممكنات التي تحتاج إلى العلل والأسباب كالعقل وغيره من سائر الجوارح الظاهرية، فإنه تعالى يستحيل عليه ذلك .

ولم يكتف الصابئ عند هذا الحد بعد أن أحس بالفشل أمام سائر العلماء .

وأمام المأمون فسأل الإمام سؤالاً آخر :

د - «يا سيدي ألا تخبرني عن حدود خلقه كيف هي؟ وما معانيها؟ وعلى كم نوع يكون؟».

أجاب الإمام بيسمات فياضية بالبشر، قائلاً:

«قد سألت فاعلم أن حدود خلقه على ستة أنواع: ملموس، وموزون، ومنظور إليه، وما لا ذوق له، وهو الروح، ومنها منظور إليه، وليس له وزن، ولا لمس، ولا حس، ولا لون، ولا ذوق.

والتقدير والأعراض والصور، والطول، والعرض، ومنها العمل والحركات التي تضع الأشياء وتعملها، وتغيرها من حال إلى حال وتزيدها، وتنقصها فأما الأعمال والحركات فإنها تنطلق لأنه لا وقت لها أكثر من قدر ما تحتاج إليه، فإذا فرغ من الشيء انطلق بالحركة، وبقي الأثر، ويجرى مجرى الكلام الذي يذهب ويبقى أثره...».

لقد شمل جواب الإمام عليه السلام الصفات والخواص التي تتميز بها الأشياء سواء أكانت من الكائنات الحية أم من غيرها.

وواصل الصابىء أسئلته فقال للإمام عليه السلام:

و - يا سيدي: «ألا تخبرني عن الخالق إذا كان واحداً لا شيء غيره، ولا شيء معه، أليس قد تغير بخلقه الخلق...؟».

فأجابه الإمام عليه السلام: «قديم لم يتغير عز وجل بخلقه الخلق، ولكن الخلق يتغير بتغيره...». فحاصل جواب الإمام عليه السلام:

إن الخالق العظيم لما كان هو الصانع والموجد للأشياء، وهو قديم فلا يلزم منه التغيير بتغيير الممكنات والكائنات.

ز - قال الصابىء: «يا سيدي فبأي شيء عرفناه؟...».

أجابه الإمام عليه السلام: «بغيره...».

إن جميع ما في الكون مما يرى، ومما لا يرى يدل على وجود الخالق العظيم، فالمصنوعات تدل على الصانع. لقد آمننا به سبحانه بما نشاهده من بدائع صنعته، وقد ظهر ذلك بصورة واضحة لا غموص فيها في أيامنا هذه؛ عندما غزا

الإنسان الفضاء الخارجي، فقد ظهر للبشرية عظيم صنع الباري سبحانه وتعالى بما أودعه في رحب هذا الفضاء من الكواكب الكثيرة العدد، وكلها تسير بانتظام خالص وثقة متناهية ولو اختلفت في مسيرها لحظة واحدة لتصادمت واختل نظام الكون ولم يبق له أثر، فسبحان الله المبدع العظيم. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١).

ح - وسأل الصابىء قال: أي شيء غيره؟.

أجاب الإمام عليه السلام: «مشيئته، واسمه، وصفته وما أشبه ذلك، وكل ذلك محدث، مخلوق، مدبر...».

فالإنسان عرف الله سبحانه بمشيئته واسمه وصفاته التي دلت عليه، ففي دعاء الصباح نقول: «يا من دل على ذاته بذاته».

إن كل ما في الكون من موجودات تستند إليه سبحانه استناد المصنوع إلى الصانع.

ي - وسأل الصابىء قال: يا سيدي أي شيء هو؟.

أجاب الإمام عليه السلام: «هو نور، بمعنى أنه هاد خلقه من أهل السماء، وأهل الأرض، وليس لك عليّ أكثر من توحيدى إياه...».

أراد الصابىء بسؤاله معرفة حقيقة الله تعالى، متوهماً أنه كسائر الممكنات والموجودات، ولما كان ذلك مستحيلاً، إذ كيف يحيط الإنسان الذي لا يعرف ذاته وما تحوي من الأجهزة الدقيقة^(٢)، كيف يعرف حقيقة الخالق العظيم المصور والمبدع للأكوان.

وقد أجاب الإمام أن الله سبحانه يعرف بأوصافه الظاهرية من هدايته لخلقته وغير ذلك من الأدلة الواضحة الصارخة بوجود خالقها العظيم.

س - وسؤال آخر للصابىء يقول:

(١) سورة القمرة: الآية، ٤٩.

(٢) جاء في الحديث الشريف: من عرف نفسه عرف ربه.

«يا سيدي: أليس قد كان ساكناً قبل الخلق لا ينطق، ثم نطق...؟»
أجاب الإمام عليه السلام: .

«لا يكون السكوت إلا عن نطق قبله، والمثل في ذلك أنه لا يقال للسراج: هو ساكت لا ينطق، ولا يقال: إن السراج ليضيء، فما يريد أن يفعل بنا لأن الضوء من السراج ليس بفعل منه، ولا كون، وإنما هو ليس شيء غيره، فلما استضاء لنا، قلنا: قد أضاء لنا، حتى استضاءنا به، فهذا تستبصر أمرك...».

وما يبغيه الإمام عليه السلام إن السكوت والنطق إنما يعرضان موضوع قابل لهما، وحيث إن نطق الله تعالى ليس على غرار ما يتصف به الناطقون من الممكنات، فيصح عليه النطق، كما يصح عليه السكوت.

والشيعة ذهبت إلى أن التكلم من صفات الأفعال لا يقوم بذاته تعالى قوام الأوصاف الذاتية، فإنه تعالى هو الذي خلق النطق والكلام إذا أراد. وقد مثل الإمام عليه السلام لذلك بالسراج فإنه لا يقال له أنه ساكت لا ينطق، كما أن إسناد الإضافة إلى السراج ليس اختيارياً له.

ع - وتابع الصابىء بأسئلته فقال:

«يا سيدي: فإن الذي كان عندي أن الكائن قد تغير في فعله عن حاله بخلقه القرآن...».

أجاب الإمام عليه السلام: «يا عمران في قولك إن الكائن يتغير في وجه من الوجوه حتى يصيب الذات منه ما بغيره، هل تجد النار تغيرها تغير نفسها، وهل تجد الحرارة تحرق نفسها؟ أو هل رأيت بصيراً رأى بصره...؟».

إن في هذا الجواب توضيحاً لما سبق، فأفعال النفس - مثلاً - التي تصدر منها لا توجب زيادة فيها ولا نقصاناً، وهناك مثال آخر وهو البصر؛ فإن صدور الرؤية منه لا توجب زيادة ولا نقصاناً.

وتابع عمران الصابىء بسؤال آخر قال:

ف - «ألا تخبرني يا سيدي أهو في الخلق أم الخلق فيه...؟».

فأجابه الإمام عليه السلام: «أجل هو يا عمران عن ذلك، ليس هو في الخلق،

ولا الخلق فيه تعالى عن ذلك، وسأعلمك ما تعرفه، ولا قوة إلا بالله، أخبرني عن المرأة أنت فيها، أم هي فيك؟ فإن ليس واحد منكم في صاحبه، فبأي شيء استدلت بها على نفسك يا عمران...».

فحللوا الله في خلقه، وحلولهم فيه، مثله الإمام عليه السلام بالصورة التي تعكس في المرأة، وهو غير حال في شيء منهما.

وفي هذا المعنى خاض الفلاسفة مجالات فلسفية بعيدة وعميقة لا مجال لذكرها في هذا المقام.

وتابع عمران الصابىء يسأل والإمام يجيب، فقال:

ع - «بضوء بيني وبينها؟...».

مع أن هذا السؤال مرتبط بما قبله وقد وضحه الإمام عليه السلام فأجابه عليه السلام:
«هل ترى من ذلك الضوء أكثر مما تراه في عينك؟».

قال عمران: نعم.

قال الإمام عليه السلام: فأرنا.

عندها لم يجد عمران مجالاً إلا أن يسكت، ولم يدر ما يقول؟ لأن الإمام عليه السلام قد سد عليه كل المنافذ. ثم واصل الإمام حديثه قائلاً:

«فلا أرى النور إلا وقد ذلك، ودل المرأة على أنفسكما من غير أن يكون في واحد منكما، ولهذا أمثال كثيرة غير هذا لا يجد الجاهل فيها مقالاً والله المثل الأعلى».

وقد استمرت هذه المناظرة وقتاً طويلاً حتى حان وقت الصلاة فتأجلت المناظرة، عندها التفت الإمام عليه السلام إلى المأمون، فقال له: الصلاة حضرت، وخاف عمران من توقف المناظرة وعدم استئناف الحوار بينه وبين الإمام فقال له:
«يا سيدي لا تقطع عليّ مسألتى، فقد رق قلبي...».

فوعده الإمام عليه السلام بالعودة إلى مناظرته، ثم أدى عليه السلام فريضة الصلاة.

استئناف المناظرة:

استأنف الإمام المناظرة مع عمران الصابىء بحضور المأمون، وكبار العلماء والقادة ورجال الفكر. التفت الإمام عليه السلام إلى عمران فقال له:

«سل يا عمران ما بقي في ذاكرتك من أسئلة».

ك - قال عمران: «يا سيدي ألا تخبرني عن الله عز وجل، هل يوحدٌ بحقيقة أو يوحدٌ بوصف؟...».

فأجابه الإمام عليه السلام: «إن الله المبدىء، الواحد، الكائن الأول، لم يزل واحداً لا شيء معه، فرداً لا ثاني معه، لا معلوماً - يعني بحقيقته - ولا مجهولاً، ولا محكماً، ولا متشابهاً، ولا مذكوراً، ولا منسياً، ولا شيئاً يقع عليه اسم شيء من الأشياء، ولا من وقت كان ولا إلى وقت يكون ولا بشيء قام، ولا إلى أي شيء يقوم ولا إلى أي شيء استند، ولا في أي شيء استكن، وذلك كله قبل خلقه الخلق، إذ لا شيء غيره وما أوقعت عليه من الكل فهي صفات محدثة، ومترجمة يفهم بها من فهم».

واعلم أن الابداع والمشيئة والإرادة معناها واحد، وأسمائها ثلاثة وكان أول ابداعه ومشيئته وارادته التي جعلها أصلاً لكل شيء ودليلاً على كل شيء مدرك، وفاصلاً لكل مشكل، وبتلك الحروف تفريق كل شيء من اسم حق وباطل، أو فعل أو مفعول، أو معنى أو غير معنى، وعليها اجتمعت الأمور كلها ولم يجعل للحروف في ابداعه لها معنى غير أنفسها، تتناهى ولا وجود لها، لأنها مبدعة بالابداع.

والنور في هذا الموضع أول فعل الله الذي هو نور السماوات والأرض، والحروف هي المفعول التي عليها من الكلام، والعبادات كلها من الله عز وجل علّمها خلقه، وهي ثلاثة وثلاثون حرفاً، فمنها ثمانية وعشرون حرفاً تدل على لغات العربية، ومن الثمانية والعشرين اثنان وعشرون حرفاً تدل على لغات السريانية والعبرانية، ومنها خمسة أحرف متحرفة في سائر اللغات من العجم والأقاليم، واللغات كلها، وهي خمسة أحرف تحرفت من الثمانية والعشرين حرفاً من اللغات فصارت الحروف ثلاثة وثلاثين حرفاً، فأما الخمسة المختلفة «فيتجنح»

لا يجوز ذكرها أكثر مما ذكرناه ثم جعل الحروف بعد إحصائها، وأحكام عدتها فعلامته كقوله عز وجل: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وكن من صنع، وما يكون به المصنوع، فالخلق الأول من الله عز وجل الابداع لا بوزن له، ولا حركة، ولا سمع، ولا لون، ولا حس، والخلق الثاني الحروف، ولا وزن لها، ولا لون، وهي مسموعة موصوفة، غير منظور إليها، والخلق الثالث ما كان من الأنواع كلها محسوساً، ملموساً، ذا ذوق منظور إليه والله تبارك وتعالى سابقاً للحروف، والحروف لا تدل على غير نفسها».

بهر المأمون، ولم يفهم أكثر محتويات هذه الكلمات العميقة التي تحتاج إلى وقت طويل لبيانها. وقال للإمام عليه السلام:

كيف لا تدل الحروف على غير أنفسها؟ ..

فأجابه الإمام موضحاً له الأمر قائلاً: «إن الله تبارك وتعالى لا يجمع منها شيئاً لغير معنى أبداً، فإذا أُلِّفَ منها أحرفاً أربعة أو خمسة أو ستة، أو أكثر من ذلك، أو أقل لم يؤلفها بغير معنى ولم يكن إلا لمعنى محدث لم يكن قبل ذلك شيئاً...».

ل - كيف لنا بمعرفة ذلك؟ ...

قال الإمام عليه السلام: «أما المعرفة فوجه ذلك وبيانه، إنك تذكر الحروف إذا لم ترد بها غير نفسها ذكرتها فرداً، فقلت أ ب ت ث ج ح خ حتى تأتي على آخرها، فلم تجد لها معنى غير أنفسها، وإذا ألفتها وجعلت كلمة، أو اسماً أو صفة لمعنى، ما طلبت، ووجه ما عنيت، كانت دليلاً على معانيها داعية إلى الموصوف بها»، أفهمته؟.

قال عمران: «نعم».

فتأمل الإمام الأستاذ يسأل طلابه بعد انتهاء كلمته ليتأكد من استيعابهم لما يقول، فإذا غمض عليهم أعاد فوضح لهم.

ثم تابع الإمام عليه السلام حديثه في شرح معاني الحروف عند تركيبها قائلاً: «واعلم أنه لا يكون صفة لغير موصوف، ولا حد لغير محدود، والصفات

والأسماء كلها تدل على الكمال، والوجود ولا مثال على الإحاطة، كما تدل الحدود التي هي التربيع والتثليث، والتسدیس، لأن الله عز وجل تدرك معرفته بالصفات والأسماء، ولا تدرك بالتحديد، بالطول والعرض، والقلة والكثرة واللون والوزن، وما أشبه ذلك وليس يحل بالله، وتقدس شيء من ذلك حتى يعرفه خلقه بمعرفتهم أنفسهم بالضرورة التي ذكرنا.

ولكن يدل على الله عز وجل بصفاته، ويدرك بأسمائه، ويستدل عليه بخلقته حتى لا يحتاج في ذلك الطالب المرتاد إلى رؤية عين، ولا استماع أذن، ولا لمس كف، ولا إحاطة بقلب، ولو كانت صفاته جل ثناؤه لا تدل عليه، وأسمائه لا تدعو إليه، والمعلمة من الخلق لا تدركه لمعناه كانت العبادة من الخلق لأسمائه وصفاته دون معناه، فلولا أن ذلك كذلك لكان المعبود الموحد غير الله لأن صفاته وأسمائه غيره، أفهمت يا عمران؟.

قال عمران: نعم يا سيدي زدني . . .».

ثم واصل الإمام حديثه المشوق والمفيد أمام المأمون والعلماء والقادة وقد استولى عليهم الإعجاب الكبير والتقدير الكبير لذلك المفكر العملاق والعلامة الواسع الأفق والبعيد الغور، إنه دائرة معارف حقاً لعصره ولكل عصر. فقال عليه السلام مخاطباً الجميع وعمران بصورة خاصة:

«إياك وقول الجهال من أهل العمى والضلال؛ الذين يزعمون أن الله جل وتقدس موجود في الآخرة للحساب في الثواب والعقاب، وليس بموجود في الدنيا للطاعة والرجاء، ولو كان في وجود الله عز وجل نقص واهتضام لم يوجد في الآخرة أبداً، ولكن القوم تاهوا وعموا وصموا عن الحق من حيث لا يعلمون، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

يعني أعمى عن حقائق هذه الدنيا وأعمى عن حساب الآخرة، وقد علم ذوو الأبواب أن الاستدلال على ما هناك لا يكون إلا بما هنا، ومن أخذ علم ذلك

(١) سورة الإسراء: الآية، ٧٢.

برأيه، وطلب وجوده وادراكه عن نفسه دون غيرها لم يزد من علم ذلك إلا بعداً لأن الله عز وجل جعل علم ذلك خاصة عند قوم يعقلون ويعلمون ويفهمون...».

م - ثم تابع عمران بسؤال أعني الأذهان والعقول البشرية وأوجب افتراق الفرق أجاب عليه السلام، فقال: «بل خلق ساكن، لا يدرك بالسكون، وإنما صار خلقاً لأنه شيء محدث، والله تعالى الذي أحدثه فصار خلقاً له، وإنما هو الله عز وجل خلقه لا ثالث بينهما ولا ثالث غيرهما، فما خلق الله عز وجل لم يعد أن يكون خلقه، وقد يكون الخلق ساكناً ومتحركاً ومؤتلفاً ومعلوماً ومتشابهاً، وكل ما وقع عليه حدّ فهو خلق الله عز وجل واعلم أن كل ما أوجدتك الحواس فهو معنى مدرك للحواس، وكل حاسة تدل على ما جعل الله عز وجل لها في ادراكها والفهم من القلب بجميع ذلك كله.

واعلم أن الواحد الذي هو قائم بغير تقدير ولا تحديد، خلق خلقاً مقدرأً بتحديد وتقدير، وكان الذي خلق خلقين اثنين: التقدير والمقدر، وليس في كل واحد منهما لون ولا وزن، ولا ذوق، فجعل أحدهما يدرك بالآخر وجعلهما مدركين بنفسهما، ولم يخلق شيئاً فرداً قائماً بنفسه دون غيره؛ للذي أراد من الدلالة على نفسه وإثبات وجوده فالله تبارك وتعالى فرد واحد لا ثاني معه يقيمه، ولا يعضده، ولا يكنه، والخلق مما يمسك بعضه بعضاً باذن الله تعالى ومشيئته، وإنما اختلف الناس في هذا الباب حتى تاهوا وتحيروا وطلبوا الخلاص من الظلمة بالظلمة في وصفهم الله تعالى بصفة أنفسهم، فزادوا من الحق بعداً، ولو وصفوا الله عز وجل بصفاته، ووصفوا المخلوقين بصفاتهم لقالوا بالفهم واليقين، ولما اختلفوا، فلما طلبوا من ذلك ما تحيروا فيه، ارتبكوا، والله يهدي من يشاء وإلى صراط مستقيم...».

ن - عند ذلك ارتبك عمران كغيره من الحاضرين ثم قال للإمام عليه السلام :

«أشهد أنه كما وصفت، ولكن بقيت لي مسألة...».

أجابه الإمام عليه السلام بكل رضى وطمأنينة: سل عما أردت...».

«أسألك عن الحكيم في أي شيء هو؟ وهل يحيط به شيء؟ وهل يتحول

من شيء إلى شيء؟ أو به حاجة إلى شيء؟...».

قال الإمام عليه السلام :

أخبرك يا عمران فاعقل ما سألت عنه، فإنه من أغمض ما يرد على الخلق في مسائلهم، وليس يفهم المتفاوت عقله، العازب حلمه، ولا يعجز عن فهمه أولوا العقل المنصفون، أما أول ذلك فلو كان خلق ما خلق لحاجة منه لجاز لقائل أن يقول: يتحول إلى ما خلق لحاجة إلى ذلك، ولكنه عز وجل لم يخلق شيئاً لحاجة، ولم يزل ثابتاً لا في شيء، ولا على شيء إلا أن الخلق يمسك بعضه بعضاً، ويدخل بعضه في بعض، ويخرج منه، والله جل وتقدس بقدرته يمسك ذلك كله، وليس يدخل في شيء، ولا يخرج منه ولا يؤوده حفظه، ولا يعجز عن إمساكه، ولا يعرف أحد من الخلق كيف ذلك؟ إلا الله عز وجل، ومن أطلع عليه من رسله، وأهل سره، والمستحفظين لأمره وخزائنه، القائمين بشريعته، وإنما أمره كلمح البصر أو هو أقرب، إذا شاء شيئاً فإنما يقول له: «كن فيكون» بمشيئته وإرادته وليس شيء أقرب إليه من شيء ولا شيء أبعد منه من شيء. . أفهمت يا عمران؟ . .»

«نعم يا سيدي».

والحقيقة أن العالم مهما اكتسب من العلوم والمعارف يبقى عاجزاً عن معرفة نفسه وما تتضمن من أجهزة دقيقة مذهلة، كل جهاز يعمل بنظام تام ودقة متناهية ليؤدي مهمته، فجهاز التنفس والجهاز العصبي والجهاز الهضمي، والجهاز الدموي. . وغير ذلك من الأجهزة التي تتعاون جميعها من أجل استقامة حياة الإنسان الصحية.

فهل يستطيع أن يحيط علماً بالخالق العظيم والمبدع الكبير، وواهب الحياة بكل ما لها وما عليها؟.

إن فكر الإنسان محدود في دائرة معينة كبيرة كانت أم متوسطة أم صغيرة، فكيف يعرف حقيقة الله تعالى. نعم عرفناه وآمنا به من خلال مخلوقاته، لأن كل ذرة في هذا الوجود تنادي بوجود الخالق العظيم، ومبدع الكون المنظم أفضل تنظيم بعناية إلهية عظيمة.

فالله لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء والأرض. قال تعالى: ﴿فَمَنْ

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿١﴾ .

ويقول ابن أبي الحديد:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر عليلا
فكري كلما دان شبراً منك راح ميلا
أنت حيرت ذوي اللب، وبلبلت العقولا

وبعد هذه المناظرة العظيمة والشروحات الكافية الوافية؛ التي أذهلت عقول العلماء والقادة الحاضرين ثم إسلام الصابيء عمران .

إسلام الصابيء:

لما سمع عمران ما سمع ورأى ما رأى الطاقات الهائلة من العلوم الكبيرة والمعارف المختلفة والعميقة؛ التي يتمتع بها ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام الرضا عليه السلام والتي تتضح منها الأجوبة الحاسمة من أعمق المسائل الفلسفية والفقهية، التي لا يهتدي لحلها إلا أوصياء الأنبياء الذين منحهم الله العلم وفصل الخطاب، أعلن إسلامه أمام الجميع وبدأ يقول:

«أشهد أن الله تعالى على ما وصفت، ووحدت، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، عبده المبعوث بالهدى ودين الحق...» .

ثم خر ساجداً لله تعالى وأسلم، وعندها بهر العلماء والمتكلمون من علوم الإمام ومواهبه وعبقرياته، وراحوا يحدثون الناس عن فضل الإمام وتفوقه وسعة علومه، انصرف المأمون ونفسه تتمزق بالألم وقلبه يفيض بالحقد والحسد على الإمام عليه السلام : وبدل أن كان يحقق له الهزيمة حقق له النصر.

خوف العم على ابن أخيه:

أبدى عم الإمام، محمد بن جعفر، مخاوفه على الإمام الرضا عليه السلام من المأمون وكان حاضراً في المجلس، ورأى كيف تغلب ابن أخيه على عمران

(١) راجع الآيات التالية: الزلزلة الآية ٧ وسبأ الآية ٣ ويونس الآية ٦١.

الصابىء الذي يعد في طليعة فلاسفة عصره، وكيف بهر الجميع من القادة وأفحمهم لذلك استدعى الحسن ابن محمد النوفلي، وهو من أصحاب الإمام المخلصين وقال له: «يا نوفلي أما رأيت ما جاء به صديقك - يعني الإمام - ؟ لا والله ما ظننت أن علي بن موسى الرضا خاض في شيء قط، ولا عرفناه به، إنه كان يتكلم بالمدينة، أو يجتمع إليه أصحاب الكلام؟...».

وراح النوفلي يعرفه بعلم الإمام عليه السلام وفضله قائلاً:

«قد كان الحاج يأتونه فيسألونه عن أشياء من حلالهم وحرامهم فيجيبهم وربما كلم من يأتيه يحاججه...».

فقال محمد بن جعفر: إنني أخاف عليه أن يحسده هذا الرجل فيسمه أو يفعل به بلية، فأشر عليه بالامساك عن هذه الأشياء...» لكن النوفلي كان لا يظن بالمأمون إلا خيراً، ولا يخاف منه على الإمام فقال: «ما أراد الرجل - يعني المأمون - إلا امتحانه ليعلم هل عنده شيء من علوم آبائه؟...».

أما عمه فلم يقنع بكلام النوفلي، لأنه متأكد من خبث المأمون ودهائه.

فقال للنوفلي: «قل له: إن عمك محمد قد كره هذا الباب، وأحب أن تمسك عن هذه الأشياء لخصال شتى...».

وكان عمه مصيباً في حدسه، عالماً بما تكنه الأسرة العباسية من العداة والحققد لأهل البيت عليهم السلام وقد تأكد أيضاً أن أسئلة الصابىء وإسلامه على يد الإمام الرضا عليه السلام قد أثار حفيظة المأمون، لذلك أقدم على اغتياله بالسهم كما ظن عم الإمام عليه السلام.

وبعد إسلام عمران الصابىء قام الإمام بعمل جميل، وهو:

تكريم الإمام لعمران:

وبعد انتهاء المناظرة وإسلام عمران أرسل الإمام في طلبه، فلما مثل أمامه رحب به الإمام وقابله بمزيد من الحفاوة والتكريم، ثم دعا له بكسوة فخلعها عليه وأعطاه بعشرة آلاف درهم، فكاد عمران يطير فرحاً من هذا العمل الجميل، والمعروف الكبير الذي أسداه إليه الإمام عليه السلام وأخذ يدعو للإمام، ويشكره على

جميل صنيعه معه، وقال له: «جعلت فداك حكيته فعل جدك أمير المؤمنين عليه السلام». وعمران معروف في عصره أنه من كبار الفلاسفة، لكنه بقي يتردد على الإمام ليكسب من نمير علومه؛ بعد ذلك قال المؤرخون أن عمران أصبح من دعاة الإسلام بفضل ما كسبه من الإمام واقتناعه بكل ما أجابه عليه.

وبعد إسلام عمران شرع المتكلمون من أصحاب المقالات والبدع، أصحابه القدامى، يفيدون عليه ويسألونه عن مسائل في العقيدة الإسلامية وهو يجيبهم عنها، حتى اجتنبوه.

- وحيال هذا الأمر ماذا على المأمون أن يفعل؟ لقد أصبح عمران - كبير فلاسفة عصره، من تلامذة الإمام ومن أصحابه لا ينفك عنه ينفذ طلبات الإمام ويتمثل به ويحترمه ويجله أمام الجماهير، وهذا ما أقلق المأمون. فسرعان ما بعث في طلب عمران وأوصله بعشرة آلاف درهم، كما أعطاه الإمام عليه السلام حتى يسكت عن مدح الإمام عليه السلام.

ثم سارع الفضل بن سهل وزير المأمون وأعطى لعمران مالاً وافراً وهدية كبرى، وهي أن ولاءه على صدقات بلغ فأصاب الرغائب^(١).

هذا هو الإمام العظيم صاحب الفكر العظيم والموقف العظيم، هو ابن الإمام الكاظم عليه السلام الذي اختاره من بين أولاده السبعة ليكون خليفته من بعده. وهو يعلم حسن اختياره، والله أعلم أين يضع رسالته. لم يكتف المأمون بما جرى مع مناظرة عمران الصابىء وفشله الذريع أمام اجابات الإمام الدامغة ثم إسلامه وتقديره للإمام الرضا، فلجأ الحاكم العباسي إلى مؤامرة ثانية عله يستطيع من خلالها تفشيل الإمام أمام علماء عصره، فأحضر سليمان المروزي ليسأل الإمام عليه السلام.

٣ - أسئلة سليمان المروزي:

كان سليمان المروزي من أكبر علماء عصره متضلعا بالفلسفة، ومتمرسا في البحوث الكلامية ويعد في طليعة علماء خراسان.

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٦٨. ١٧٨ وقد ذكر الطبرسي ما يقرب من ذلك في الاحتجاج، والمجلسي في البحار، والحسن بن شعبة في تحف العقول.

عاد المأمون ثانية وانتدبه بعد عمران الصابىء لامتحان الإمام الرضا عليه السلام ، وقد قابله بحفاوة غريبة وتكريم زائد، وقال له :

«إن ابن عمي علي بن موسى الرضا، قدم علي من الحجاز، وهو يحب الكلام وأصحابه، فلا عليك أن تصير إلينا يوم التروية لمناظرته . . .» .

تخوف سليمان من ذلك ظناً منه أنه سوف يعجز الإمام عن أجوبته فيحقد عليه العلويون، فراح يعتذر من المأمون قائلاً: «إنني أكره أن أسأل مثله في مجلسك في جماعة من بني هاشم فينتقص عند القوم إذا كلمني، ولا يجوز الانتقاص عليه . . .» تعهد المأمون له، ووعدته أن لا يصيبه أي أذى أو مكروه قائلاً: «إنما وجهتك إليه لمعرفة بقوتك، وليس مرادي إلا أن تقطعه عن حجة واحدة فقط . . .» .

يرشح من هذا الكلام نية سوء يضمورها المأمون وحقد مبيت عليه . ثم وجه المأمون في الوقت نفسه رسوله إلى الإمام يطلب منه الحضور لمناظرة سليمان . فأجابته الإمام إلى ذلك، وحضره معه وفد من أعلام أصحابه ومعهم عمران الصابىء الذي أسلم على يده . وجرى حديث بينه وبين سليمان حول البداء، فأنكره سليمان وأثبتته عمران، وطلب سليمان رأي الإمام فيه فأقره، واستدل عليه بآيات من القرآن الكريم .

التفت المأمون إلى سليمان وقال له : سل أبا الحسن عما بدا لك وعليك بحسن الاستماع والانصاف، فشرع سليمان بعدد من الأسئلة وجهها للإمام . فقال :

«ما تقول فيمن جعل الإرادة اسماً وصفة مثل حي، وسميع، وبصير وقدير؟ . . .» .

أجاب الإمام عليه السلام : إنما تقول : حدثت الأشياء واختلفت لأنه شاء وأراد، ولم تقولوا: حدثت الأشياء واختلفت لأنه سميع بصير، فهذا دليل على أنهما - أي الإرادة والمشئنة - ليستا مثل سميع، ولا بصير، ولا قدير .

انبرى سليمان قائلاً: «فإنه لم يزل مريداً . . .» .

فرد عليه السلام : «يا سليمان فإرادته غيره؟ . . .» .

«قال سليمان: نعم...».

ثم ذهب سليمان إلى التعدد مع أن الله تعالى متحد مع إرادته، وأبطل شبهته قائلاً: «قد أثبت معه شيئاً غيره لم يزل...».

«ما أثبت...» «أهي - الإرادة - محدثة؟...».

«لا ما هي محدثة...».

لقد ضيق الإمام على سليمان الخناق، فراحت أقواله تتناقض فتارة يقول بقدم الإرادة، وأخرى يقول بحدوثها، فصاح عندها به المأمون، وطلب منه عدم المكابرة، والانصاف في حديثه قائلاً: «عليك بالإنصاف، أما ترى من حولك من أهل النظر؟».

ثم التفت المأمون إلى الإمام قائلاً:

«كلمه يا أبا الحسن، فإنه متكلم خراسان».

فسأله الإمام قائلاً: «أهي محدثة؟...» فأنكر سليمان حدوث الإرادة، فرد

عليه الإمام عليه السلام:

«يا سليمان هي محدثة، فإن الشيء إذ لم يكن أزلياً كان محدثاً، إذا لم يكن محدثاً كان أزلياً...» فانبرى سليمان قائلاً بعد أن ظهرت عليه علامات الاحراج: «إرادته - أي الله - منه؟ كما أن سمعه وبصره وعلمه منه» عندها أبطل الإمام عليه قوله، وقال عليه السلام:

«فأراد نفسه؟...» قال سليمان: «لا».

ثم أخذ الإمام يفند مقالته قائلاً له: «فليس المرید مثل السميع والبصير» وراح سليمان يتخبط خبط عشواء بعد أن ضيق عليه الإمام، وسد عليه كل نافذة يسلك منها، قائلاً:

«إنما أراد نفسه، كما سمع نفسه، وأبصر نفسه، وعلم نفسه» فانبرى الإمام

وأبطل مقالته، قائلاً له:

«ما مضى أراد نفسه؟ أراد أن يكون شيئاً، وأراد أن يكون حياً أو سميعاً أو

بصيراً أو قديراً؟...».

فلم يدر سليمان ماذا يقول فتلعثم وتلجلج ثم أجاب: «نعم» فقال له الإمام عليه السلام: «أفإرادته كان ذلك؟...» «نعم» وبد الإمام يبطل مقالته، ويبيدي ما فيها من التناقض قائلاً: «فليس لقولك: أراد أن يكون حياً سمياً، بصيراً مضي، إذا لم يكن ذلك بإرادته؟...».

والتبس الأمر على سليمان، وراح يقول: «بلى قد كان ذلك بإرادته...».

عند ذلك، بعد أن سمع المجلس هذا التناقض ضحك الجميع، وضحك معهم المأمون المراهن على فشل الإمام الرضا عليه السلام وضحك الإمام عليه السلام والتفت إلى الجماعة، وطلب منهم الرفق بسليمان، ثم قال له: «يا سليمان، فقد حال - أي الله تعالى - عندكم عن حاله وتغير عنها وهذا ما لا يوصف الله به...».

وبان العجز على سليمان واضحاً أمام الجميع، وسيطر سكوت مطلق والتفت الإمام إلى سليمان ليقم عليه الحجة قائلاً:

«يا سليمان أسألك عن مسألة» «سل جعلت فداك» «أخبرني عنك وعن أصحابك تكلمون الناس بما تفقهون وتعرفون؟ أو بما لا تعرفون ولا تفقهون...».

«بل بما نفقه ونعلم...».

ثم أخذ الإمام يقيم الحجة والبرهان على خطأ ما ذهب إليه سليمان قائلاً: «فالذي يعلم الناس أن المرید غير الإرادة، وأن المرید قبل الإرادة، وأن الفاعل قبل المفعول، وهذا يبطل قولكم، إن الإرادة والمرید شيء واحد...».

وعندها شرع سليمان بالقول: «جعلت فداك، ليس ذلك منه على ما يعرف الناس، ولا على ما يفقهون؟».

واندفع الإمام يبطل ما ذهب إليه قائلاً:

«فأراكم أدعيتم علم ذلك بلا معرفة، وقلتم: الإرادة كالسمع والبصر إذا كان ذلك عندكم على ما لا يعرف، ولا يعقل...».

أمام هذه الطاقات الفكرية الهائلة حار سليمان ولم يطق جواباً.

إنه خزان من العلم بعيد المرمى وفكر عميق وشامل يستوعب معارف شتى لا يملكه إلا أهل البيت الذين أرسلهم الله عز وجل منائر مشرقة لهداية الناس على مفارق الطرق.

ثم استأنف الإمام حديثه ليطم على سليمان الحجة قائلاً:

«يا سليمان هل يعلم الله جميع ما في الجنة والنار؟...».

أجاب سليمان على الفور: «نعم».

فقال الإمام عليه السلام: «أفيكون ما علم الله تعالى أنه يكون من ذلك؟...».

أجاب سليمان: «نعم».

فقال الإمام عليه السلام: «فإذا كان حتى لا يبقى منه شيء، إلا كان يزيدهم أو

يطويه عنهم؟...» فأجاب سليمان: «بل يزيدهم...».

وأبطل الإمام قوله: «فأراه في قولك: قد زادهم ما لم يكن في علمه أنه

يكون...».

وعاد سليمان كعادته يعتذر ويردد ما قاله سابقاً: «جعلت فداك فالمريد لا

غاية له...».

ومضى الإمام يفند شبهة سليمان وأوصافه قائلاً: «ليس علمه بذلك بموجب

لانقطاعه عنهم، لأنه قد يعلم ذلك، ثم يزيدهم ثم لا يقطعه عنهم»، وكذلك قال الله

عز وجل في كتابه: ﴿كُلَّمَا نَفِخَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(١).

وقال سبحانه لأهل الجنة: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾^(٢).

وقال عز وجل: ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾^(٣).

فإنه عز وجل يعلم ذلك لا يقطع عنهم الزيادة... أرأيت ما أكل أهل

الجنة، وما شربوا يخلف مكانه؟...».

(١) سورة النساء: الآية، ٥٦.

(٢) سورة هود: الآية، ١٠٨.

(٣) سورة الواقعة: الآيات، ٣٢ - ٣٣.

قال سليمان: «بلى» قال الإمام: «أفيكون يقطع ذلك عنهم وقد أخلف مكانه؟...» قال سليمان: «لا».

ومضى الإمام عليه السلام يقرر ما ذهب إليه قائلاً: «فكذلك كلما يكون فيها إذا أخلف مكانه فليس مبقوط عنهم...».

وراح سليمان يتمسك بالشبه والأوهام والإمام يبطل أقواله بآيات محكمات: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(١).

ويقول عز وجل: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾^(٢).

ووجم سليمان وحار في الجواب وراح الإمام عليه السلام يسد عليه كل نافذة يسلك فيها لاثبات شبهة.

ثم تابع الإمام عليه السلام يسأله عن الإرادة أفعل هي أم غير فعل...؟.

وسليمان يتخبط خبط عشواء، ولا يستطيع أن يرد شيئاً حتى زجره الإمام عليه السلام قائلاً:

«ويلك كم تردد هذه المسألة، وقد أخبرتك أن الإرادة محدثة، لأن فعل الشيء محدث...».

وراح سليمان يكثر من التناقض في كلامه حتى: غرق القوم الضحك وضحك الإمام، والمأمون، وجميع الحاضرين. وقال الإمام: «غلطت، وتركت قولك: إنه يعلم أن إنساناً يموت اليوم، وهو لا يريد أن يموت اليوم، وأنه يخلق خلقاً، وأنه لا يريد أن يخلقهم، وإذا لم يجز العلم عندكم بما لم يرد أن يكون، فإنما يعلم أن يكون ما أراد أن يكون؟».

وراح سليمان يتخبط ويغالط نفسه حتى قال:

«إن الارادة هي القدرة» فرد عليه الإمام بقوله:

«وهو عز وجل يقدر على ما لا يريده أبداً، ولا بد من ذلك، لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾».

(١) سورة ق: الآية، ٣٥.

(٢) سورة البينة: الآية، ٨.

فلو كانت الإرادة هي القدرة كان قد أراد أن يذهب به لقدرته . . . » بان عجز سليمان أمام الجميع ووقف حائراً متردداً أمام هذا البحر الزاخر بالعلم والمعرفة والفضل، فانقطع عن الكلام ولم ينبس ببنت شفة. التفت إليه المأمون وأشاد بمواهب الإمام عليه السلام وعبقرياته الفذة وعلومه الواسعة والعميقة وقال لسليمان: «يا سليمان هذا أعلم هاشمي . . . ».

هذه الرسالة العظيمة، الشبيهة بالرسالة الذهبية، احتوت على بحوث فلسفية بالغة الأهمية تدل بوضوح على سعة أفق الإمام الرضا عليه السلام، وما يحمله من طاقات علمية هائلة أثبتت صدق وواقعية ما تذهب إليه الشيعة الإمامية من أن الإمام لا بد أن يكون أعلم أهل عصره، وبذلك فقد باءت بالفشل محاولة المأمون الذي أضمر السوء للإمام الرضا، وأراد أن يعجزه عن طريق فلاسفته الموهومين، ولو بمسألة واحدة ليتخذ منها وسيلة للطعن في معتقدات الشيعة بالإمامة؟ الذين يعتقدون أن الإمامة لا تقل أهمية عن النبوة من أجل حفظ الرسالة الإسلامية. وسوف نأتي على بحث خاص عن الإمامة وصفات الإمام لاحقاً.

وقد جاء في عيون أخبار الرضا عن لسان الشيخ الصدوق؛ حول هذه المناظرة قوله:

كان المأمون يجلب على الرضا من متكلمي الفرق والأهواء المضلة؛ كل من سمع به حرصاً على انقطاعه عن الحججة مع واحد منهم، وذلك حسداً منه ولمنزلة من العلم، فكان لا يكلمه أحد إلا أقر له بالفضل وألزم الحججة له عليه، لأن الله تعالى ذكره يأبى إلا أن يعلي كلمته، ويتم نوره، وينصر حجته، وهكذا وعد تبارك وتعالى في كتابه فقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(١) ويعني بالذين آمنوا الأئمة الهداة، وأتباعهم العارفين بهم والآخذين عنهم بنصرهم بالحجة على مخالفيهم ما داموا في الدنيا، وكذلك يفعل بهم في الآخرة وإن الله عز وجل لا يخلف الميعاد^(٢).

(١) سورة غافر: الآية، ٥١.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج ١ ص ١٨٢ وما بعدها.

٤ - مناظرة الجاثليق:

كان جاثليق يناظر المتكلمين فيقول: نحن نتفق على نبوة عيسى وكتابه، وأنه حي في السماء، ونختلف في بعثة محمد، ونتفق في موته، فما الذي يدل على نبوته؟.

جاء الجاثليق إلى الإمام الرضا عليه السلام بحضور المأمون، فقال: ما تقول في نبوة عيسى وكتابه، هل تنكر منهما شيئاً؟.

فقال الرضا عليه السلام: أنا مقر بنبوة عيسى وكتابه وما يبشر به أمته.

ثم تابع الإمام مخاطباً الجاثليق: يا نصراني والله إنا لنؤمن بعيسى الذي آمن بمحمد وما ننقم على عيسكم إلا ضعفه وقلة صيامه وصلاته.

فقال: والله ما زال عيسى صائم النهار، قائم الليل.

قال الإمام عليه السلام: لمن كان يصلي ويصوم؟.

فخرس. وقال الجاثليق:

إن من أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، مستحق أن يعبد. فقال الإمام الرضا عليه السلام: وإن اليسع صنع ما صنع، مشى على الماء وأبرأ الأكمه والأبرص، وحزقيل أحيا خمسة وثلاثين ألف رجل من بعد موتهم بستين سنة، وقوم من بني إسرائيل خرجوا من بلادهم من الطاعون وهم ألوف حذر الموت، فأماتهم الله في ساعة واحدة، فأوحى الله إلى نبي مر على عظامهم بعد سنين، إن ناداهم فقال: أيتها العظام البالية قومي باذن الله، فقاموا، وذكر عليه السلام حديث إبراهيم الطير «فصرن إليك» وحديث موسى: «واحتار موسى» لما قالوا: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة».

فاحترقوا، فأحياهم الله من بعد قول موسى: «لو شئت أهلكتهم» وسؤال قريش رسول الله ﷺ أن يحييهم، ثم قال: والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان قد نطقت به، فإن كان من أحيا الموتى يتخذ رباً من دون الله، فاتخذوا وهؤلاء كلهم أرباباً.

عند ذلك، وبعد هذه البراهين القاطعة والحجج الدامغة أسلم النصراني^(١) ثم التفت الإمام عليه السلام إلى جاثليق وسأله:

«ألا تخبرني عن الإنجيل الأول حين افتقدتموه عند من وجدتموه؟».

«ومن وضع لكم هذا الإنجيل؟...».

احتار الجاثليق بالجواب وبدا عليه الارتباك وقال: «ما افتقدنا الإنجيل إلا يوماً واحداً، حتى وجدناه غصاً طريفاً، فأخرجه إلينا يوحنا ومتى...».

فرد عليه السلام قائلاً: «ما أقل معرفتك بسنن الإنجيل وعلمائه، فإن كان كما تزعم فلما اختلفتم في الإنجيل؟ وإنما الاختلاف في هذا الإنجيل الذي في أيديكم اليوم، فإن كان على العهد الأول لم تختلفوا فيه، ولكني مفيدك علم ذلك، اعلم أنه لما افتقد الإنجيل الأول اجتمعت النصارى إلى علمائهم، فقالوا لهم: قتل عيسى بن مريم، وافتقدنا الإنجيل، وأنتم العلماء فما عندكم؟».

فقال لهم ألوفاً ومرقانوس ويوحنا ومتى إن الإنجيل في صدورنا نخرجه إليكم سفيراً في كل أحد، فلا تحزنوا عليه، ولا تخلوا الكنائس فأنا ستلوه عليكم في كل أحد سفيراً حتى نجمعه كله.

أضاف الإمام، الخبير بالدين المسيحي أكثر من أصحابه، وقال: إن لوقا، ومرقانوس، ويوحنا ومتى وضعوا لكم هذا الإنجيل، بعدما افتقدتم الإنجيل الأول وإنما كان هؤلاء الأربعة تلاميذ الأولين أعلمت ذلك؟.

وراح الجاثليق يبدي إكباره للإمام، عندما سمع بهذه المعلومات، ويعترف له إنه لا علم له بذلك قائلاً:

«أما قبل هذا فلم أعلمه، وقد علمته الآن، وقد بان لي من فضل علمك بالإنجيل، وقد سمعت أشياء كما علمته، شهد قلبي أنها حق، واستزدت كثيراً من الفهم».

التفت الإمام عليه السلام إلى المأمون وإلى الجماعة الحاضرين من أهل بيته

(١) المناقب: ج ٢ ص ٤٠٦.

وغيرهم وطلب منهم أن يشهدوا عليه، فقالوا: شهدنا ووجه كلامه صوب الجاثليق فقال له:

«بحق الابن وأمه، هل تعلم أن «متى» قال في نسبة عيسى أن المسيح بن داود بن إبراهيم بن إسحاق بن يعقوب بن يهوده بن حضرون؟».

وقال مرقانوس في نسبة عيسى: أنه كلمة الله أحلها في الجسد الآدمي فصارت إنساناً!!.

وقال ألوفا: أن عيسى بن مريم وأمه كان إنسانين من لحم ودم؛ فدخل فيهما روح القدس؟.

ثم إنك تقول: في شهادة عيسى على نفسه، حقاً أقول لكم: إنه لا يصعد إلى السماء إلا من نزل منها، إلا راكب البعير خاتم الأنبياء، فإنه يصعد إلى السماء، وينزل فما تقول في هذا القول؟.

اعترف الجاثليق بما قالوه في المسيح، وما قاله السيد المسيح في نفسه فقال: «هذا قول عيسى لا ننكره...» فقال له الإمام عليه السلام: «فما تقول في شهادة الوقا ومرقانوس ومتى على عيسى وما نسبوا إليه؟...».

وراح الجاثليق يزكي المسيح، ويكذب ما نسبوه له قائلاً: «كذبوا على عيسى». التفت الإمام من حضر في مجلسه من العلماء قائلاً: «يا قوم أليس قد زكاهم، وشهد أنهم علماء الإنجيل وقولهم حق؟» بان الضعف والانكسار على الجاثليق، وراح يلتمس من الإمام أن لا يسأله فقال: «يا عالم المسلمين أحب أن تعفيني من أمر هؤلاء» فأعفاه الإمام وقال له: «سلني عما بدا لك... عندها بهر الجاثليق من علوم الإمام وقال بخضوع وإكبار ليسألك غيري، فوالله ما ظننت أن في علماء المسلمين مثلك...» عجز المجلس بالتهليل والتكبير واستبان للمأمون ولجميع القادة. أن الإمام عليه السلام نفحة قدسية من نفحات الله، وهبه الله للأمة كما وهب آباءه الذين هم امتداد ذاتي لعلوم جده سيد الكائنات محمد عليه السلام علوماً لا حد لها.

٥ - مناظرة أبي قرّة للإمام:

كان في عصر الإمام شبهات وانحرافات وتزييف أثيرت حول العقيدة الإسلامية، تصدى لها الإمام الرضا جميعها فأبطلها ووضح الحقيقة لكل السائلين ومنهم «أبو قرّة» قصد الإمام من خراسان بهدف امتحانه. استأذن في الدخول عليه وفي جعبته أسئلة عديدة عن أشياء من الحلال والحرام، والفرائض والأحكام، فأجابه الإمام عنها جميعها. ومنها بعض قضايا التوحيد وهي:

«أخبرني جعلني الله فداك عن كلام الله لموسى؟...».

قال الإمام عليه السلام: «الله أعلم أي لسان كلمه بالسريانية أم بالعبرانية...». فأخرج أبو قرّة لسانه، وقال: إنما أسألك عن هذا اللسان ومعنى ذلك أن هل كلمه بلسان كلسان الإنسان؟.

فرد عليه الإمام ذلك بقوله: «سبحان الله عما تقول: معاذ الله أن يشبه خلقه أو يتكلم بمثل ما هم متكلمون، ولكنه تبارك وتعالى ليس كمثل شيء، ولا كمثل قائل ولا فاعل...».

فانبرى أبو قرّة قائلاً: «كيف ذلك؟...».

فقال عليه السلام: «كلام الخالق لمخلوق، ليس ككلام المخلوق لمخلوق، ولا يلفظ بشق فم ولسان، ولكن يقول: «كن» فكان بمشيئته ما خاطب به موسى من الأمر والنهي من غير تردد في نفس؟...».

إن كلام الله تعالى ليس بواسطة الجارحة كما في كلام الإنسان، فإنه تعالى يستحيل عليه ذلك، إذ ليس كمثل شيء، ولا قائل.

وتابع أبو قرّة يسأل الإمام عليه السلام:

«ما تقول في الكتب؟...».

فقال الإمام عليه السلام: «التوراة، والإنجيل، والزيور، والقرآن، وكل كتاب أنزل كان كلام الله، أنزله للعالمين نوراً وهدى، وهي كلها محدثة وهي غير الله حيث يقول: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الرُّعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾^(١).

(١) سورة طه: الآية، ١١٣.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾^(١).

«والله أحدث الكتب كلها التي أنزلها».

فأكمل أبو قرة يسأل: «هل تفتنى هذه الكتب؟».

قال الإمام عليه السلام: «أجمع المسلمون على أن ما سوى الله فان، وما سوى الله فعل الله، والتوراة والزبور والإنجيل والفرقان فعل الله، ألم تسمع الناس يقولون: «رب القرآن». وأن القرآن يقول يوم القيامة: «يا رب هذا فلان - وهو أعرف به منه - قد أظمأت نهاره وأسهرت ليله، فشفعني فيه».

وكذلك التوراة والإنجيل والزبور وهي كلها محدثة، مروية، أحدثها من ليس كمثلته شيء، هدى لقوم يعقلون، فمن زعم أنهم لم يزلن معه، فقد أظهر: أن الله ليس بأول قديم، ولا واحد، وأن الكلام لم يزل معه، وليس له بدو، وليس باله...».

وتابع أبو قرة يسأل عن الكتب فقال:

«إنا روينا: أن الكتب كلها تجيء يوم القيامة، والناس في صعيد واحد قيام لرب العالمين، ينظرون حتى ترجع فيه، لأنها منه، وهي جزء منه، فإليه تصير...».

فقال الإمام عليه السلام: «هكذا قالت النصراني في المسيح أنه روحه، جزء منه، ويرجع فيه وكذلك قالت المجوس: في النار والشمس أنهما جزء منه ترجع فيه. تعالى ربنا أن يكون مجزياً أو مختلفاً، وإنما يختلف، ويأتلف المتجزى لأن كل متجزى متوهم والكثرة والقلة مخلوقة دالة على خالق خلقها...».

ثم تابع يسأل: «إنا روينا أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبين فقسم لموسى الكلام، ولمحمد عليه السلام الرؤية؟...».

قال الإمام عليه السلام: «فمن مبلغ عن الإمام الثقلين: الجن والإنس، إنه لا

(١) سورة الأنبياء: الآية، ٢.

تدرکه الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثل شيء، أليس محمد صلى الله عليه وآله .
«بلى» .

فأوضح الإمام عليه السلام له الأمر، وكشف ما التبس عليه قائلاً: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم: أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول: إنه لا تدرکه الأبصار ولا يحيطون به علماً، وليس كمثل شيء، ثم يقول: أنا رأيت به بعيني، وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر، أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا؟ أن يكون أتى عن الله بأمر ثم يأتي بخلافه من وجه آخر...» .

فتابع يسأل لأنه لم يقتنع بما أوضحه له الإمام فقال: إنه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾^(١) فقال الإمام عليه السلام: «إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾»^(٢) يقول: ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وآله ما رأت عيناه، فقال:

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَابِئِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾»^(٣) فأيات الله غير الله وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾^(٤) .

فإذا رآته الأبصار فقد أحاط به العلم، ووقعت المعرفة...» .
فأجاب أبو قرة: فنكذب الرواية؟...

أية رواية: ومن هو راويها: وعلينا معرفة السند والتمت!

أجابه الإمام الرضا عليه السلام: «إذا كانت الرواية مخالفة للقرآن كذبتها، وما أجمع عليه المسلمون أنه - أي الله تعالى - لا يحاط به علماً، ولا تدرکه الأبصار، وليس كمثل شيء...» .

فقد وضع الإمام عليه السلام المقياس الصحيح لصفة الخبر الصحيح، وهو أنه إن اتفق مع القرآن الكريم فهو صحيح، وإلا فهو باطل.

(١) سورة النجم: الآيتان، ١٣ - ١٤ .

(٢) سورة النجم: الآية، ١١ .

(٣) سورة النجم: الآية، ١٨ .

(٤) سورة طه: الآية، ١١٠ .

وتابع أبو قره يسأل:

ما معنى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

فأجابه الإمام عليه السلام: «لقد أخبر الله تعالى أنه أسرى به، ثم أخبر - أي الله - أنه لم أسرى به - أي أخبر الله عن العلة في هذا الإسراء فقال: «لنريه من آياتنا» فأيات الله غير الله، فقد أعذر، وبين لم فعل به ذلك، وما رآه، وقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

ولم يبق أمام أبي قره إلا أن يسأل الإمام عليه السلام:
«أين الله؟...».

أجابها الإمام عليه السلام: «الآين مكان، وهذه مسألة شاهد عن غائب، فالله تعالى ليس بغائب، ولا يقدمه قادم، وهو بكل مكان، موجود مدبر، صانع، حافظ، ممسك السماوات والأرض...».

فقال أبو قره: «أليس هو فوق السماء دون ما سواها؟...».

أجابه الإمام عليه السلام:

«هو الله في السماوات، وفي الأرض، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، وهو معكم أينما كنتم، وهو الذي استوى إلى السماء وهي دخان، وهو الذي استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وهو الذي استوى على العرش قد كان ولا خلق، وهو كما كان إذ لا خلق، لم ينتقل مع المنتقلين...».

فتابع يسأل:

«ما بالكم إذا دعوتكم رفعتم أيديكم إلى السماء؟...».

أجابه الإمام عليه السلام: «إن الله استعبد خلقه بضروب من العبادة، والله مفازع

(١) سورة الإسراء: الآية، ١.

(٢) سورة الجاثية: الآية، ٦.

يفزعون إليه، ومستعبد، فاستعبد عباده بالقول والعلم، والعمل والتوجه، ونحو ذلك استعبدهم بتوجيه الصلاة إلى الكعبة، ووجه إليها الحج والعمرة، واستعبد خلقه عند الدعاء، والطلب، والتضرع ببسط الأيدي، ورفعها إلى السماء حال الاستكانة، وعلاقة العبودية والتذلل له . . .».

فقال أبو قرة: «من أقرب إلى الله الملائكة أو أهل الأرض؟ . . .» قال الإمام عليه السلام:

«إن كنت تقول بالشبر والذراع، فإن الأشياء كلها باب واحد هي فعله لا يشتغل ببعضها عن بعض، يدبر أعلى الخلق من حيث يدبر أسفله، ويدبر أوله من حيث يدبر آخره من غير عناء، ولا كلفة ولا مؤونة، ولا مشاورة، ولا نصب».

وإن كنت تقول: «من أقرب إليه في الوسيلة، فأطوعهم له وأنتم ترون أن أقرب ما يكون العبد إلى الله، وهو ساجد ورويته أن أربعة أملاك التقوا أحدهم من أعلى الخلق وأحدهم من أسفل الخلق وأحدهم من شرق الخلق، وأحدهم من غرب الخلق فسأل بعضهم بعضاً فكلهم قال: «من عند الله» أرسلني بكذا وكذا، ففي هذا دليل على أن ذلك في المنزلة دون التشبيه والتمثيل . . .».

وتابع أبو قرة حتى استفرغ ما في جعبته من أسئلة فقال: «أتقر أن الله محمول؟ . . .».

قال الإمام عليه السلام: «كل محمول مفعول، ومضاف إلى غيره محتاج فالمحمول اسم نقص في اللفظ، والحامل فاعل، وهو في اللفظ: ممدوح، وكذلك قول القائل: فوق، وتحت، وأعلى، وأسفل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) ولم يقل في شيء من كتبه أنه محمول بل هو الحامل في البر والبحر، والممسك للسموات والأرض، والمحمول ما سوى الله، ولم نسمع أحداً آمن بالله وعظمه قط، قال في دعائه: يا محمول . . .!».

(١) سورة الأعراف: الآية. ١٨٠.

فلم يبق عند أبي قره إلا أن يحتج بالروايات فقال: «أفكذب بالرواية؟ إن الله إذا غضب يعرف غضبه الملائكة الذين يحملون العرش، يجدون ثقله في كواهلهم فيخرون سجداً، فإذا ذهب الغضب، خف فرجعوا إلى مواقفهم...».

فأجابه الإمام عليه السلام: «أخبرني عن الله تبارك وتعالى منذ لعن إبليس إلى يومك هذا وإلى يوم القيامة، فهو غضبان على إبليس، وأوليائه أو عنه راض؟...».

وأيد أبو قره كلام الإمام قائلاً:

«نعم هو غضبان عليه...».

وانبرى الإمام قائلاً: «ويحك كيف تجترى أن تصف ربك بالتغير من حال إلى حال، وأنه يجري عليه ما يجري على المخلوقين؟ سبحانه لم يزل مع الزائلين، ولم يتغير مع المتغيرين...»^(١) بعد سماع هذه الأجوبة القاطعة استولى الذهول على أبي قره وحار في الجواب، وانهمز من المجلس بعد أن أترعت نفسه بالغيظ والحقد على الإمام. لقد أفحم وفشل واندحر، ولم يقتنع على غير المناظرين الآخرين مثل عمران الصابي الذي أسلم في نهاية المناظرة مع الإمام. وقد ظلم نفسه لأنه لم يهتد إلى الحق.

قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَةً وَزَرَّ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢).

٦ - سؤال صباح بن نصر الهندي وعمران الصابي:

سأل صالح بن نصر الهندي وعمران الصابي بحضرة المأمون قال عمران: «العين نور مركبة أم الروح تبصر الأشياء من منظرها؟».

أجاب الإمام عليه السلام:

«العين شحمة وهو البياض والسواد، والنظر للروح، ودليله أنك تنظر فيه

(١) الاحتجاج ج ٢ ص ١٨٥-١٨٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية، ١٥.

فترى صورتك في وسطه، والإنسان لا يرى صورته إلا في ماء أو مرآة وما أشبه ذلك».

قال صباح: «إذا عميت العين كيف صارت الروح قائمة والنظر ذاهب؟».

قال الإمام عليه السلام: «كالشمس طالعة يغشاها الظلام».

قال صباح: «أين تذهب الروح؟...».

قال الإمام عليه السلام: «أين يذهب الضوء الطالع من الكوة في البيت إذا سدت

الكوة؟...».

قال صباح: «أرجو توضيح ذلك».

قال الإمام عليه السلام: «الروح مسكنها في الدماغ، وشعاعها منبث في الجسد

بمنزلة الشمس، دائرتها في السماء وشعاعها منبسط في الأرض، فإذا غابت الدائرة

فلا شمس، وإذا قطع الرأس فلا روح».

وسألاه معاً عن علة الصلاة؟.

فقال عليه السلام: «طاعة أمرهم بها، وشريعة حملهم عليها، وفي الصلاة توفير

له وتبجيل، وخضوع من العبد إذا سجد، والاقرار بالعبودية لله جل جلاله.

وسألاه عن الصوم؟.

فقال عليه السلام: «امتحنهم بضرب من الطاعة كيما ينالوا بها عنده الدرجات،

ليعرفهم فضل ما أنعم عليهم من لذة الماء، وطيب الخبز، وإذا عطشوا يوم

صومهم ذكروا يوم العطش الأكبر في الآخرة، وزادهم ذلك رغبة في الطاعة».

وسألاه: لم حرم الزنا؟.

فقال عليه السلام: «لما فيه من الفساد، وذهاب الموارث، وانقطاع الأنساب لا

تعلم المرأة في الزنا من أحبها، ولا المولود يعلم من أبوه، ولا أرحام موصولة،

ولا قرابة معروفة»^(١).

(١) المناقب: ج ٢ ص ٤٠٧.

الإمام الرضا عليه السلام مع المأمون:

١ - أراد المأمون أن يثبت للناس أن العباسيين أولى بالخلافة من غيرهم فالعباس هو عم الرسول وبالتالي أقرب إليه عليه السلام من غيره. لذلك أخذ يفكر بفتح أبواب جديدة عله يقنع الجماهير بذلك. فسأل الإمام الرضا قال: إنني فكرت في شيء فنتج لي الفكر الصواب فيه، فكرت في أمرنا وأمركم، ونسبنا ونسبكم، فوجدت الفضيلة فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصية.

فقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «إن لهذا الكلام جواباً إن شئت ذكرته لك وإن شئت أمسكت».

«فقال له المأمون: إنني لم أقله إلا لأعلم ما عندك فيه.

قال الرضا عليه السلام: أنشدك الله يا أمير المؤمنين لو أن الله تعالى بعث محمداً عليه السلام فخرج علينا من وراء أكمة يخطب إليك ابنتك كنت زوجته إياها؟ فقال المأمون: سبحان الله وهل أحد يرغب عن الرسول عليه السلام؟

فأجابه الرضا عليه السلام: أفتراه يحل له أن يخطب إليّ؟».

فسكت المأمون هنيهة ثم قال: أنتم والله أمس برسول الله عليه السلام رحماً^(١).

٢ - وسؤال آخر: قال المأمون للإمام الرضا عليه السلام:

أخبرني بأكبر فضيلة لأمر المؤمنين عليه السلام يدل عليها القرآن؟

فقال له الرضا عليه السلام: فضيلة المباهلة، قال الله جل جلاله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ

فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾^(٢) فدعا رسول الله عليه السلام

الحسن والحسين عليه السلام فكانا ابنيه، ودعا فاطمة عليها السلام فكانت في هذا الموضع نساءه، ودعا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فكان نفسه بحكم الله عز وجل، وقد ثبت أنه ليس أحد من خلق الله سبحانه أجل من رسول الله عليه السلام

(١) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٥٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٦١.

وأفضل، فوجب أن لا يكون أحد أفضل من نفس رسول الله ﷺ بحكم الله عز وجل.

فقال المأمون: أليس قد ذكر الله الأبناء بلفظ الجمع وإنما دعا رسول الله ابنه خاصة، وذكر النساء بلفظ الجمع، وإنما دعا رسول الله ﷺ ابنته وحدها، فلم لا جاز أن يذكر الدعاء لمن هو نفسه ويكون المراد نفسه في الحقيقة دون غيره، فلا يكون لأمير المؤمنين عليه السلام ما ذكرت من الفضل؟ فقال الرضا عليه السلام: ليس بصحيح ما ذكرت يا أمير المؤمنين، وذلك أن الداعي إنما يكون داعياً لغيره كما يكون الأمر أمراً لغيره، ولا يصح أن يكون داعياً لنفسه في الحقيقة، كما لا يكون أمراً لها في الحقيقة، وإذا لم يدع رسول الله ﷺ رجلاً في المباهلة إلا أمير المؤمنين عليه السلام فقد ثبت أنه نفسه التي عناها الله تعالى في كتابه، وجعل حكم ذلك في تنزيهه.

فقال المأمون: إذا ورد الجواب سقط السؤال.

٣ - كان المأمون في باطنه يحب سقطات الرضا عليه السلام وأن يتغلب عليه المحتج، وإن أظهر غير ذلك، وفي يوم جمع عنده الفقهاء والمتكلمين، وأوعز إليهم أن ناظروه في الإمامة.

ولما كانوا جماعة طلب إليهم الإمام الرضا عليه السلام ليختاروا واحداً منهم فاختاروا من بينهم رجلاً يعرف بـ «يحيى بن الضحاك السمرقندي» ولم يكن بخراسان مثله. فقال له الإمام الرضا عليه السلام:

سل عما شئت.

فقال: تكلم في الإمامة، كيف ادعيت لمن لم يؤم وتركت من أم، ووقع الرضا به؟. فقال له الإمام عليه السلام:

يا يحيى أخبرني عن صدق كاذباً على نفسه، أو كذب صادقاً على نفسه أيكون محققاً مصيباً، أو مبطلاً مخطئاً؟ فسكت يحيى.

فقال له المأمون: أجب.

فقال يحيى: يعفيني أمير المؤمنين من جوابه.

فقال له المأمون: يا أبا الحسن عرفنا الغرض في هذه المسألة.

فقال الإمام عليه السلام: لا بد ليحيى من أن يخبر عن أئمة أنهم كذبوا على أنفسهم أو صدقوا، فإن زعم أنهم كذبوا فلا إمامة لكذاب، وإن زعم أنهم صدقوا، فقد قال أولهم: وليتكم ولست بخيركم.

وقال تاليه: كانت بيعته فلتة فمن عاد لمثله فاقتلوه، فوالله ما رضي لمن فعل مثل فعلهم إلا بالقتل، فمن لم يكن بخير الناس والخيرية لا تقع إلا بنعوت، منها: العلم، ومنها الجهاد، ومنها سائر الفضائل وليست فيه، ومن كانت بيعته فلتة يجب القتل على من فعل مثلها كيف يقبل عهده إلى غيره وهذه صورته، ثم يقول على المنبر:

إن لي شيطاناً يعتريني فإذا مال بي فقوموني، وإذا أخطأت فأرشدوني فليسوا أئمة بقولهم وإن صدقوا أو كذبوا، فما عند يحيى في هذا جواب.

فعجب المأمون من كلامه وقال: يا أبا الحسن ما في الأرض من يحسن هذا سواك^(١).

٤ - اجتمع في مجلس المأمون جماعة من العلماء من العراق وخراسان، بحضور الإمام علي الرضا عليه السلام فقال المأمون كعادته: أخبروني عن معنى هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٢).

فقال العلماء: أراد الله الأمة كلها.

فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن؟.

فقال الإمام الرضا عليه السلام: لا أقول كما قالوا، أراد الله تبارك وتعالى بذلك العترة الطاهرة عليهم السلام.

فقال المأمون: وكيف عنى العترة دون الأمة؟.

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢٣٢.

(٢) سورة فاطر: الآية، ٣٢.

فقال الرضا عليه السلام: لو أراد الأمة لكانت بأجمعها في الجنة لقول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِ ابْتَدَأَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ثم جعلهم كلهم في الجنة فقال عز وجل: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾^(١) فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم. ثم قال الإمام الرضا عليه السلام:

«هم الذين وصفهم الله في كتابه فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»^(٢).

وهم الذين قال رسول الله «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، انظروا كيف تخلفوني فيهما، يا أيها الناس لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم».

قال العلماء: أخبرنا يا أبا الحسن عن العترة هم الآل أو غير الآل؟

فقال الرضا عليه السلام: هم الآل.

فقال العلماء: فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله يؤثر عنه أنه قال: أمتي آلي، وهؤلاء أصحابه يقولون بالخبر المستفيض الذي لا يمكن دفعه: آل محمد أمته.

فقال الرضا عليه السلام: أخبروني هل تحرم الصدقة على آل محمد؟

قالوا: نعم. قال عليه السلام: فتحرم على الأمة؟

قالوا: لا.

قال عليه السلام: هذا فرق بين الآل وبين الأمة، ويحكم أين يذهب بكم، أصرفتم عن الذكر صفحاً أم أنتم قوم مسرفون، أما علمتم إنما وقعت الرواية في الظاهر على المصطفين المهتدين دون سائرهم.

قالوا: من أين قلت يا أبا الحسن؟

قال: من قول الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا التَّبَوُّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٣).

(١) سورة النحل: الآية، ٣١.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

(٣) سورة الحديد: الآية، ٢٦.

فصارت وراثه النبوة والكتاب في المهتدين دون الفاسقين، وأما علمتم أن نوحاً سأل ربه: ﴿وَأَدَّي نُوْحٌ رَبِّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ وَاوَانَ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾^(١).

فقال له ربه تبارك وتعالى: ﴿قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢).
فقال المأمون: فهل فضل الله العترة على سائر الناس؟.

فقال الإمام الرضا عليه السلام: «إن الله العزيز الجبار فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه».

قال المأمون: أين ذلك من كتاب الله؟.

قال الإمام الرضا عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(٤).

وقال الله في موضع آخر: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٥).

ثم رد المخاطبة في إثر هذا إلى سائر المؤمنين فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٥).

يعني الذين أورثهم الكتاب والحكمة وحسدوا عليهما بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٦) يعني الطاعة للمصطفين الطاهرين والملك هاهنا الطاعة لهم.

فقال العلماء: فأخبرنا هل فسر الله عز وجل الاصطفاء في الكتاب؟ فقال

(١) سورة هود: الآية، ٤٥.

(٢) سورة هود: الآية، ٤٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ٣٣.

(٤) سورة النساء: الآية، ٥٤.

(٥) سورة النساء: الآية، ٥٩.

(٦) سورة النساء: الآية، ٥٤.

الإمام الرضا عليه السلام: فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موضعاً وموطناً، فأول ذلك قوله عز جل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١).

٥ - وسؤال آخر من المأمون:

سأل المأمون الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾^(٢).

فقال الإمام الرضا عليه السلام: إن غطاء العين لا يمنع من الذكر، والذكر لا يرى العين، ولكن الله عز وجل شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام بالعميان، لأنهم كانوا يستقلون قول النبي صلى الله عليه وآله فيه ولا يستطيعون سمعاً. فقال المأمون: فرج عني فرج الله عنك^(٣).

٦ - وتابع المأمون أسئلته أراد منها امتحان الإمام عليه السلام فسأله: «يا ابن رسول الله أليس قولك أن الأنبياء معصومون؟» أجاب الإمام: بلى. فما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٤).

قال عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى قال لآدم: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

وأشار لهما إلى شجرة الحفظة ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة، ولا مما كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة ولم يأكلا منها، وإنما أكلا من غيرها، ولما أن وسوس الشيطان لهما وقال: ﴿مَا هَنَكُمْ مِنْهَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ وإنما ينهاكما أن تقربا غيرها، ولم ينهكما عن الأكل منها ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ولم يكن آدم وحواء شاهدين قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ فأكلا منها ثقة بيمينه بالله، وكان ذلك من آدم قبل النبوة، ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به

(١) سورة الشعراء: الآية، ٢١٤.

(٢) سورة الكهف: الآية، ١٠١.

(٣) أئمتنا الحاج علي دخیل ج ٢ ص ١١٨ عن التوحيد ص ٢٥٦.

(٤) سورة طه: الآية، ١٢١.

(٥) سورة البقرة: الآية، ٣٥.

دخول النار، وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً، لا يذنب صغيرة ولا كبيرة، قال الله عز وجل: ﴿وَعَصَىٰ ثَمَّ أَجَبْتُهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْضِهِمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢). أشهد أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٧ - أخبرني عن قول الله عز وجل في حق إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٣).

قال الإمام عليه السلام: إن إبراهيم عليه السلام وقع إلى ثلاثة أصناف: صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس، وذلك حين خرج من السرب (٤) الذي أخفى فيه، فلما جن عليه الليل، فرأى الزهرة قال: هذا ربي، على الإنكار والاستخبار. فلما أفل الكوكب قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ لأن الأفول من صفات المحدث؛ لا من صفات القدم.

فلما رأى القمر بازغاً قال: «هذا ربي» على الإنكار والاستخبار. «فلما أفل قال: ﴿لَيْنَ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾».

يقول: لو لم يهديني ربي لكنت من القوم الضالين.

فلما أصبح ورأى الشمس بازغة قال: هذا ربي، هذا أكبر من الزهرة ومن القمر على الإنكار والاستخبار، لا على الاخبار والاقرار، فلما أفلت قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس: ﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٥).

(١) سورة طه: الآية، ١٢١ - ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٨٣٤.

(٣) سورة الأنعام: الآية، ٧٦.

(٤) السرب: الكهف.

(٥) سورة الأنعام: الآيتان ٧٨، ٧٩.

لقد أراد إبراهيم بقوله هذا: البيان لقومه بطلان دينهم، ويثبت عندهم أن العبادة لا لمن كان بصفة الزهرة والقمر والشمس وإنما تحق العبادة لخالقها وخالق الكون بكل ما فيه ومن فيه. ولقد احتج على قومه مما ألهمه الله تعالى وآتاه، كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

فقال المأمون: لله درك يابن رسول الله، أخبرني عن قول إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتَّ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (٢).

قال الإمام الرضا عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام إني متخذ من عبادي خليلاً، إن سألتني إحياء الموتى أجبت، فوقع في نفس إبراهيم أنه ذلك الخليل فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتَّ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قال: ﴿فَخَذَ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣).

فأخذ إبراهيم نسراً وطاووساً وديكاً، فقطعهن وخلطنهن ثم جعلهن على كل جبل من الجبال التي حوله، وكانت عشرة منهن جزءاً وجعل مناقيرهن بين أصابعه، ثم دعاهن بأسمائهن؛ ووضع عنده حباً وماء فتطايرت تلك الأجزاء بعضها إلى بعض حتى استوت الأبدان وجاء كل بدن حتى انضم إلى رقبته ورأسه فخلى إبراهيم عليه السلام عن مناقيرهن فطرن، ثم وقعت فشربن من ذلك الماء والتقطن من ذلك الحب، وقلن: يا نبي الله أحييتنا أحياك الله.

فقال إبراهيم: بل الله يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

فقال المأمون: بارك الله فيك يا أبا الحسن.

(١) سورة الأنعام: الآية، ٨٣.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٦٠.

(٣) المصدر نفسه.

٨ - أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿فَوَكَّرُمُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (١).

قال الإمام الرضا عليه السلام: إن موسى دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها، وذلك بين المغرب والعشاء ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فقضى موسى على العدو، وبحكم الله تعالى ذكره، ﴿فَوَكَّرُمُ﴾ فمات ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

يعني الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين، لا ما فعله موسى من قتله أنه يعني الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

ولم يقتنع المأمون فتابع يسأل الإمام الرضا عليه السلام فقال:

ما معنى قول موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

٩ - قال الإمام عليه السلام: يعني: إني وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة، ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني، ﴿فَغَفَرَ﴾.

قال موسى: رب بما أنعمت علي من القوة حتى قتلت رجلاً بوكزة ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (٣) بل أجاهد في سبيلك بهذه القوة حتى ترضى ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَكَ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَمَوِيٌُّّ مُّبِينٌ﴾ (٤) فالتت رجلاً بالأمس، وتقاتل هذا اليوم لأوذيك وأراد أن يبطش به.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ

(١) سورة القصص: الآية، ١٥.

(٢) سورة القصص: الآية، ١٦.

(٣) سورة القصص: الآية، ١٧.

(٤) سورة القصص: الآية، ١٨.

نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١﴾ .

فقال المأمون بعد هذا الشرح للإمام الرضا عليه السلام :

١٠ - جزاك الله عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن، ما معنى قول موسى لفرعون: ﴿قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢) .

قال الإمام عليه السلام : إن فرعون قال لموسى لما أتاه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ أَلْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣) .

قال موسى: ﴿فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن الطريق بوقوعي إلى مدينة من مدائنك ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٤) .

وقد قال لنبيه محمد صلى الله عليه وآله : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ (٥) يقول: ألم يجدك وحيداً فأوى إليك الناس؛ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يعني عند قومك. ﴿فَهَدَى﴾ أي هداهم إلى معرفتك ﴿وَوَجَدَكَ غَائِبًا فَأَعْنَى﴾ يقول: أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً.

فقال المأمون: بارك الله فيك يا ابن رسول الله، ثم تابع يسأل ويسأل. ما معنى هذه الآية قول الله عز وجل:

١١ - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَنَّي﴾ (٦) .

كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران عليه السلام لا يعلم أن الله تعالى ذكره، لا يجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟ قال الإمام الرضا عليه السلام : إن كليم الله موسى بن عمران علم أن الله تعالى منزّه أن يرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه الله عز وجل وقربه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله عز وجل كلمه وقربه

(١) سورة القصص: الآية، ١٩.

(٢) سورة الشعراء: الآية، ٢٠.

(٣) سورة الشعراء: الآية، ١٩.

(٤) سورة الشعراء: الآية، ٢١.

(٥) سورة الضحى: الآية، ٦.

(٦) سورة الأعراف: الآية، ١٤٣.

وناجاه، فقالوا: ﴿كُنْ تُوْمِنَ لَكَ﴾ حتى نستمع كلامه كما سمعت، وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختر منهم سبعين رجلاً لميقات ربهم، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى إلى الطور، وسأل الله تعالى أن يكلمه ويسمعهم كلامه فكلمه الله تعالى ذكره، وسمعوا كلامه، من فوق وأسفل، ويمين وشمال، ووراء وأمام، لأن الله عز وجل أحدثه في الشجرة وجعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: ﴿كُنْ تُوْمِنَ لَكَ﴾ بأن هذا الذي سمعناه كلام: ﴿حَتَّىٰ زَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ فلما قالوا: هذا القول العظيم، واستكبروا وعتوا بعث الله عز وجل عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم، فماتوا فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم، وقالوا: إنك ذهبت بهم فقتلهم، لأنك لم تكن صادقاً فيما ادعيت من مناجاة الله عز وجل إياك، فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك تنظر إليك لأجابك، وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حق معرفته فقال موسى:

﴿يا قوم إن الله لا يرى بالأبصار، ولا كيفية له، وإنما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه﴾ فقالوا: ﴿كُنْ تُوْمِنَ لَكَ﴾ حتى تسأله فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل، وأنت أعلم بصلاحتهم، فأوحى الله جل جلاله: يا موسى سلني ما سألوك فلن أواخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي وَلَكِنِ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُنْتُ إِلٰهِي وَإِنَّا لَأَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) بآية من آياته ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا قَالَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُنْتُ إِلٰهِي وَإِنَّا لَأَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِي وَلَكِنِ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾^(٢) وهو يهوي، ﴿فَسَوْفَ تَرِنِي﴾... ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ بآية من

(١) سورة الأعراف: الآية، ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ١٤٣.

آياته ﴿جَمَلَكُمْ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ .

يقول: رجعت إلى معرفي بك عن جهل قومي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

يعني: أنك لا ترى.

أخذ المأمون، كالسابق بيدي إعجابه بمواهب الإمام الفريدة، وسعة علومه الشاملة وعلومه الواسعة. قائلاً: «الله درك يا أبا الحسن» ثم تابع يسأل عن قول الله عز وجل:

١٢ - ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَدُؤُهُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَوَّرَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١).

قال الإمام الرضا عليه السلام: لقد همت به، وهم بها كما همت به لكنه كان معصوماً، والمعصوم لا يهم بذنب، ولا يأتيه، ولقد حدثني أبي عن أبيه الصادق عليه السلام أنه قال: همت بأن تفعل، وهم بأن لا يفعل. فكرر مقولته المأمون بتقديره الإمام الرضا: «الله درك يا أبا الحسن!!!» .

١٣ - وتابع يسأل: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْنَضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٢).

قال الإمام عليه السلام: ذلك يونس بن متى ذهب مغاضباً لقومه فظن بمعنى استيقن ﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي لا نضيق عليه رزقه، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَّنِي﴾^(٣).

أو ضيق وقدر ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بتركي مثل هذه العبادة التي قد فرغتنى لها في بطن الحوت، فاستجاب الله له وقال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلِيتَّ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٤).

(١) سورة يوسف: الآية، ٢٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية، ٨٧.

(٣) سورة الفجر: الآية، ١٦.

(٤) سورة الصافات: الآيتان، ١٤٣، ١٤٤.

فقال المأمون مقولته الدائمة: لله درك يا أبا الحسن!! .

١٤ - أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (١).

فقال الإمام الرضا عليه السلام: يقول الله عز وجل ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ من قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا جاء نصرنا.

قال المأمون: لله درك يا أبا الحسن!! .

وسأله المأمون أيضاً:

قال الله عز وجل: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢).

فقال الإمام الرضا عليه السلام: لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاث مائة وستين صنماً، فلما جاءهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم، وعظم الأمر، فقالوا:

﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَأَنْطَلِقَ الْأُمَمُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَيَّ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلَمِ الْأُخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخِلِقُ﴾ (٣).

فلما فتح الله عز وجل على نبيه مكة المكرمة قال له سبحانه يا محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (٤) عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم، وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد، عليه، إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عند ذلك مغفوراً بظهوره عليهم...

(١) سورة يوسف: الآية، ١١٠.

(٢) سورة الفتح: الآية، ٢.

(٣) سورة ص: الآيات، ٥، ٧.

(٤) سورة الفتح: الآية، ١.

١٦ - قال المأمون قوله: لله درك يا أبا الحسن!! أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾^(١).

فقال الإمام الرضا عليه السلام: هذا - مما نزل، بإيائك أعني، واسمعي يا جارة - خاطب الله عز وجل نبيه، وأراد به أمته، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾^(٢).

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا لَّيْلًا﴾^(٣).

١٧ - ثم عاد هارون إلى الأسئلة من جديد عله يجد عند الإمام بعض التأخير، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قصد دار زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي في أمر أراده، فرأى امرأته تغتسل، فقال لها:

سبحان الذي خلقك، وإنما أراد بذلك تنزيه الباري عز وجل عن قول: من زعم أن الملائكة بنات الله، فقال الله عز وجل: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِجْسٌ بِالْأَنثَىٰ وَالَّتِي دُونَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَأَ لِنَفْسِهِ لِقَوْلٍ قَوْلًا عَظِيمًا﴾^(٤).

فلما عاد زيد إلى منزله أخبرته امرأته بمجيء رسول الله صلى الله عليه وآله وقوله لها: سبحان الذي خلقك فلم يعلم زيد ما أراد بذلك، وظن أنه قال ذلك لما أعجبه من حسننها، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال له: يا رسول الله إن امرأتي في خلقها، وإنني أريد طلاقها، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: امسك عليك زوجك، واتق الله، وقد كان الله عرفه عدد أزواجه وإن تلك المرأة منهن، فأخفى ذلك في نفسه، ولم يبهه لزيد، وخشي الناس أن يقولوا: إن محمداً يقول لمولاه:

إن امرتك ستكون لي زوجة، يعيبونه بذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ

(١) سورة التوبة: الآية، ٤٣.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٦٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية، ٧٤.

(٤) سورة الإسراء: الآية، ٤٠.

تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١﴾.

ثم إن زيد بن حارثة طلقها واعتدت منه، فزوجها الله عز وجل من نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنزل بذلك قرآناً، فقال عز وجل: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٢).

والآن يبدو أن جعبة المأمون قد نفذت وتعب من الأسئلة وانتهت بذلك هذه المناظرة القيمة التي تدل كغيرها على ما يتمتع به الإمام الرضا من مواهب خيرة، وثورات علمية زاخرة، وإحاطة كاملة بكتاب الله العظيم. وبعد أن حاول المأمون خوض غمار الأنبياء الكرام وطرح الشبهات حولهم، عمد الإمام الرضا عليه السلام على تنزيه أنبياء الله العظام عن اقرار المعصية، وأثبت بالأدلة القاطعة والدلائل الموضحة والبراهين الحاسمة عصمتهم جميعاً. فهم خلفاء الله على أرضه ينفذون شريعة الله عز وجل، ويعملون بكل ما أتاهاهم الله من علم ومعرفة وصبر جميل على إعلاء كلمة الله ومقاومة الانحراف عنها.

الإمام عليه السلام يرد على سؤال ابن السكيت:

جاء أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بـ (ابن السكيت) على الإمام الرضا عليه السلام وهو من أجلاء علماء عصره، وكان في جعبته مسائل عدة منها السؤال التالي. قال للإمام عليه السلام:

«لماذا بعث الله موسى بن عمران باليد البيضاء، وبعث عيسى بآية الطيب، وبعث محمداً بالكلام والخطب؟».

فأجابه الإمام كعادته بحكمة قائلاً: إن الله لما بعث موسى كان الغالب على

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٣٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٣٨.

أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجة عليهم.

وأن الله بعث عيسى في وقت ظهرت فيه الأزمت، واحتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجة عليهم.

وأن الله بعث محمداً عليه السلام في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم.

فبهر ابن السكيت بعلم الإمام وجوابه الكامل الشامل وراح يقول: ووالله ما رأيت مثلك قط، فما الحجة على الخلق اليوم؟.

فأجابه الإمام عليه السلام: العقل يعرف به الصادق على الله في صدقه؛ والكاذب على الله في كذبه.

عندها سكت ابن السكيت وأخذ يقول: «هذا هو والله الجواب»^(١).

وأي جواب! فالله سبحانه وتعالى خلق العقل فجعله الحجة على الإنسان، فإذا ما أطاعه جلب له الرحمة والسعادة ومحبة المؤمنين، وإذا عصاه جلب له النقمة والشقاء وكره الناس. وبالعقل يعرف الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، فهو الحجة من الله على عباده.

وجاء في القرآن الكريم في خطابه للمؤمنين قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(٢).

وقال أحد الشعراء:

الصديق في أقوالنا أقوى لنا والكذب في أفعالنا أفعى لنا

(١) الاحتجاج: ج ٢ ص ٢٢٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٧٠.

المأمون يقدر عظمة الإمام عليه السلام ويشيد بمواهبه:

بعد هذه المناظرة القيمة التي تدل على ثروات الإمام العلمية البعيدة المدى، أخذ المأمون يشيد بمواهب الإمام الرضا عليه السلام الذي أثبت وجوده في جميع المجالات العلمية والاجتماعية والدينية، ولا غرو في ذلك فهو إمام معصوم يخترن العلم في صدره، أخذه من أبيه وأجداده عليهم السلام. وراح المأمون يمدح ويقول:

لقد شفيت صدري يا ابن رسول الله، وأوضحت ما كان ملتبساً علي فجزاك الله عن أنبيائه، وعن الإسلام خيراً. ثم انصرف عن المجلس الذي ضم كبار العلماء والفقهاء والقادة، أخذاً بيد عم الإمام محمد بن جعفر فقال له؛ «كيف رأيت ابن أخيك؟».

فأجابه عم الإمام معجباً بمواهب الإمام قائلاً:

«إنه عالم، ولم نره اختلف إلى أحد من أهل العلم!!».

فرد عليه المأمون قائلاً: «إن ابن أخيك من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله الذين قال فيهم النبي: «ألا إن أبرار عترتي، وأطابت أرومتي أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً، فلا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم، لا يخرجونكم عن هدى ولا يدخلونكم في باب ضلالة».

والعجب كل العجب كيف يعترف المأمون بكل هذا الفضل للإمام عليه السلام ويصرح أمام الملأ بكل هذه الكفاءات التي بهر بها، وردد أثر كل سؤال: «الله درك يا أبا الحسن، وأحسنت يا ابن رسول الله».

ثم يقدم بعد كل هذا الاطراء الذي يخبىء تحته الخبث والسوء والدهاء. فقد نقل علي بن الجهم إلى الإمام الرضا ثناء المأمون واطرائه، وما قاله فيه عمه محمد بن جعفر فتبسم الإمام وقال: «لا يغرناك ما سمعته منه، فإنه سيغثالني، والله تعالى ينتقم لي منه»^(١).

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٩٥. ٢٠٤.

وقد تحقق تنبؤ الإمام عليه السلام فقد ورم أنف المأمون وأترعت نفسه بالحسد والحقد والكراهية للإمام على كل هذه العلوم والمواهب، فقدم على اقتراف أفظع جريمة في الإسلام وفي العالم أجمع، إذ دس له السم واغتاله، وقضى على سليل النبوة ومعدن العلم والحكمة.



ولاية تضليل وعهد نفاق

في سنة مائة وثمان وتسعين هجرية بعد قتل محمد الأمين، وانتقال السلطة إلى أخيه عبد الله المأمون، أحس هذا الأخير، الخليفة العباسي الجديد أن الأخطار تحدق به من كل جانب مما يهدد أمن دولته ويزعزع سلطانه.

ففي المدينة: خرج محمد بن سليمان بن داود بن الحسن، والحسن بن الحسين بن علي بن الحسين، ودعا إلى ابن طباطبا فلما مات هذا دعا إلى نفسه، واشتعلت نار الثورة في أنحاء دولة المأمون وخرج مع كل ثائر عشرات الألوف من أعوانه يناصرونه على أولئك الجبابرة الذين أقاموا عروشهم على جماجم الأبرياء ودماء الصالحاء وقتل الأئمة المعصومين: علي زين العابدين ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق وموسى بن جعفر الكاظم عليهم جميعاً أفضل السلام وأزكى الصلاة.

وفي الكوفة: خرج أبو السرايا يدعو لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن بن علي عليه السلام وبإيعه جميع الناس.

وفي هذه الحالة كانت دولة بني العباس مهددة بالأخطار، وكانت أكثر حركات التمرد بقيادة العلويين.

أدرك المأمون في تلك الفترة، ولم يجف بعد دم أخيه، حراجه الموقف والخطر المحدق به، فلم يجد وسيلة ناجحة لبقاء دولته أفضل من التظاهر بالتشيع. فأعلن رغبته بالتنازل عن الخلافة، التي ضحى بأخيه من أجلها، إلى الإمام الرضا عليه السلام، وهو يعلم علم اليقين أن الإمام المعصوم سيرفض ذلك لأنه قد اختبر دهاء ودهاء أبيه هارون من قبله. وأخيراً الذي حصل أن المأمون قد أكره الإمام علي ولاية العهد والاقامة معه في بلد واحد، وتظاهر نفاقاً وخداعاً بالدعوة للإمام الرضا عليه السلام على المنابر وفي خطب الجمعة.

وغايته من هذا التضليل تلافى مشكلة العلويين الذين كانوا يهددون دولة المأمون، واطمئنانه على موقف الشيعة من خلافته .
لكنه كان يظمر السوء للإمام الذي جعل منه واجهة يستر بها أهدافه الشريرة ومصالحه الشخصية .

وقد ظهر هذا واضحاً في جوابه لبني العباس عندما اعترض عليه بعضهم قائلاً: يا أمير المؤمنين، أعيدك بالله أن يكون تاريخ الخلفاء في اخراجك هذا الشرف الصميم والفخر العظيم من بيت ولد العباس إلى بيت ولد علي بن أبي طالب عليه السلام، أعقب على نفسك وأهلك، جئت بهذا الساحر من ولد السحرة، وقد كان خاملاً فأظهرته، ووضعاً فرغته، ومنسياً فذكرت به، ومستخفاً به فنوهت به، قد ملأ الدنيا مخرقة وتشوقاً... ما أخوفني أن يخرج هذا الأمر عن ولد العباس إلى ولد علي، بل ما أخوفني أن يتوصل الرضا بسحره إلى إزالة نعمتك والتوثب على مملكتك، هل جنا أحد على نفسه وملكه مثل جنائتك؟ .
فقال المأمون المضلل والمنافق:

قد كان هذا الرجل مستتراً عنا يدعو إلى نفسه فأردنا أن نجعله وليّ عهدنا ليكون دعاؤه إلينا، ولنعرف ما يخالفه والملك لنا، وليعتقد فيه المعترفون به أنه ليس مما ادعى في قليل ولا كثير، وأن هذا الأمر لنا من دونه، وقد خشينا أن تركناه على تلك الحالة أن يتفق علينا منه ما لا نسده، ويأتي علينا ما لا نطيقه، والآن وإذا قد فعلنا به ما قد فعلنا، وأخطأنا في أمره ما أخطأنا وأشرفنا من الهلاك - بالتنويه به - على ما أشرفنا، فليس يجوز التهاون في أمره، ولكننا نحتاج أن نضع منه قليلاً قليلاً حتى نصوره عند الرعايا بصورة من لا يستحق هذا الأمر، ثم ندبر فيه بما يحسم عنا مواد بلائه^(١) .

تدبير مدروس:

لقد نجح المأمون في تدبيره هذا، وبذلك هدأ العلويون ولم يحركوا ساكناً ضد المأمون خلال سنتين اللتين عاشهما الإمام الرضا عليه السلام بعد ولاية العهد

(١) البحار: ج ٤٩ ص ١٨٢ وراجع فرائد السمطين: ج ٢ ص ٢١٤.

المشؤوم، مراعاة منهم لجانب الإمام، حتى أن عامة الشيعة كانوا يعتبرون الإمام شريكاً في الحكم.

مراقبة سرية دقيقة: لقد وضع المأمون مراقبين حول الإمام يحصون عليه أنفاسه فمنع خاصته ومواليه من الاتصال به، وترك إلى جانب الإمام حاجباً يبلغ المأمون كل ما يتكلم به الإمام وكل ما يجري حوله، ولم يفسح المجال لبيان ما هو الواقع إلا لبعض خواصه سراً.

قال محمد بن عرفة: «قلت للإمام الرضا عليه السلام يا ابن رسول الله ما حملك على الدخول في ولاية العهد؟ فقال عليه السلام ما حمل جدي أمير المؤمنين على الدخول في الشورى»^(١).

وقال الريان بن الصلت: «دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له: يا ابن رسول الله، الناس يقولون: إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا، فقال عليه السلام: قد علم الله كراهتي لذلك فلما خيرت بين قبول ذلك وبين القتل. اخترت القبول على القتل ويحهم أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبياً ورسولاً فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن العزيز ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾^(٢). ودفعتنى الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الأشراف على الهلاك، على أنني ما دخلت في هذا الأمر إلا دخول خارج منه؛ فإلى الله المشتكى وهو المستعان»^(٣) وجاء في البحار قال ياسر:

ولما ولي الرضا العهد سمعته وقد رفع يده إلى السماء وقال: اللهم إنك تعلم أنني مكره مضطر فلا تؤاخذني كما لم تؤاخذ عبدك ونبيك يوسف حين وقع إلى ولاية مصر»^(٤).

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ ص ٣٦٤.

(٢) سورة يوسف: الآية، ٥٥.

(٣) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٩.

(٤) البحار: ج ٤٩ ص ١٣٠.

وفي هذا السياق روى الصدوق عن بعض أصحابه عن الرضا، قال له رجل: أصلحك الله كيف صرت إلى ما صرت إليه من المأمون؟ وكأنه أنكر عليه ذلك. فقال له أبو الحسن الرضا عليه السلام:

يا هذا أيهما أفضل: النبي ﷺ أو الوصي؟ فقال الرجل: لا بل النبي قال ﷺ: أيهما أفضل: مسلم أو مشرك؟ قال الرجل: لا بل مسلم قال ﷺ: فإن العزيز عزيز مصر كان مشركاً وكان يوسف عليه السلام نبياً، وأن المأمون مسلم وأنا وصي، ويوسف سأل العزيز أن يوليه حين قال:

﴿قَالَ أَحْمَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وأنا أجبرت على ذلك^(١).

وهكذا كان ليس بالإمكان أفضل مما كان.

البيعة (المفومة) للرضا عليه السلام بولاية العهد:

جاء في مقاتل الطالبين أن المأمون: «وجه إلى الفضل بن سهل فأعلمه أنه يريد العقد، وأمره بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل على ذلك ففعل واجتمعا بحضرته، فجعل الحسن يعظم ذلك عليه، ويعرفه ما في اخراج الأمر من أهله عليه. فقال له:

إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل فاجتمعا معه على ما أراد. فأرسلهما إلى علي بن موسى فعرضاً ذلك عليه فلم يزاها به وهو يأبى ذلك ويمتنع منه، والإمام المعصوم يعلم ما تحت الرماد؟! إلى أن قال له أحدهما:

إن فُعلت وإلا فعلنا بك وصنعنا، وتهده، ثم قال له الآخر: والله أمرني بضرب عنقك إذا خالفت ما يريد، ثم دعا به المأمون فخاطبه في ذلك فامتنع،

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٨.

فقال له قولاً شبيهاً بالتهديد، ثم قال له: إن عمر جعل الشورى في ستة أحدهما جدك، وقال: من خالف فاضربوا عنقه، ولا بد من قبول ذلك فأجابه علي بن موسى الرضا إلى ما التمس^(١).

قال الشيخ المفيد: «قال المأمون إنني أريد أن أخلع نفسي من الخلافة وأقلدك إياها فما رأيك؟ فأنكر الإمام الرضا عليه السلام هذا الأمر وقال له: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الكلام وأن يسمع به أحد فرد عليه الرسالة: فإذا أبيت ما عرضت عليك فلا بد من ولاية العهد من بعدي. فأبى علي الرضا عليه السلام إباءً شديداً، فاستدعاه إليه وخلا به ومعه الفضل بن سهل ذو الرياستين ليس في المجلس غيرهم.

وقال له: إنني قد رأيت أن أقلدك أمر المسلمين وأفسخ ما في رقبتني وأضعه في رقبتك، فقال له الرضا عليه السلام: الله الله يا أمير المؤمنين إنه لا طاقة لي بذلك ولا قوة لي عليه، قال له: فإنني موليك العهد من بعدي. فقال له عليه السلام اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين، فقال له المأمون كلاماً فيه كالتهديد له على الامتناع عليه، وقال في كلامه إن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة أحدهم جدك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وشرط فيمن خالف منهم أن يضرب عنقه ولا بد من قبولك ما أريده منك فإنني لا أجد محيصاً عنه.

فقال له الرضا عليه السلام: «فإنني أجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد، على أنني لا آمر ولا أنهى ولا أفتي ولا أقضي ولا أولي ولا أعزل، ولا أغير شيئاً مما هو قائم؛ فأجابه المأمون إلى ذلك كله»^(٢).

ومما يؤكد ذلك: ما رواه الصدوق:

روى الصدوق بإسناده عن أبي الصلت الهروي قال: إن المأمون قال للرضا علي بن موسى عليه السلام يا ابن رسول الله قد عرفت فضلك وعلمك وزهدك

(١) مقاتل الطالبين ص ٥٦٢ والإمام الرضا عليه السلام يدرك ماذا حدث لأبيه الإمام موسى الكاظم ولجده الإمام الصادق من المأمون ومن غدره وظلمه.

(٢) الإرشاد: ص ٢٩٠.

وورعك وعبادتك وأراك أحق بالخلافة مني، فقال الرضا عليه السلام: بالعبودية لله عز وجل أفتخر، وبالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شر الدنيا، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله تعالى. فقال له المأمون: إني قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك. فقال له الرضا: إن كانت هذه الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز لك أن تخلع لباساً ألبسه الله وتجعله لغيرك. وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز أن تجعل لي ما ليس لك. فقال له المأمون:

يا ابن رسول الله فلا بد لك من قبول هذا الأمر. فقال عليه السلام: لست أفعل ذلك طائعاً أبداً. فمازال يجهد به أياماً حتى يش من قبوله، فقال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحب مبايعتي لك فكيف ولي عهدي لتكون لك الخلافة بعدي، فقال الرضا عليه السلام: والله لقد حدثني أبي عن آبائه عن أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ أنني أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسهم مظلوماً تبكي علي ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد. فبكى المأمون ثم قال له: يا رسول الله: ومن الذي يقتلك أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حي، قال الرضا عليه السلام: أما أني لو أشاء أن أقول من الذي يقتلني لقلت. فقال المأمون يا ابن رسول الله إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك ودفع هذا الأمر عنك ليقول الناس إنك زاهد في الدنيا، فقال الرضا عليه السلام: والله ما كذبت منذ خلقتني ربي تعالى وما زهدت في الدنيا ولديني لأعلم ما تريد.

قال المأمون: وما أريد؟ قال عليه السلام: الأمان على الصدق قال لك الأمان؟ قال تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى الرضا لم يزهده في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة. فغضب المأمون ثم قال:

إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجزرتك على ذلك، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك. فقال الرضا عليه السلام: قد نهاني الله عز وجل أن ألقى بيدي إلى التهلكة فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك؛ وأنا أقبل ذلك على أن لا أولي أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر بعيداً مشيراً.

فرضي منه بذلك وجعله ولي عهده على كراهة منه عليه السلام بذلك^(١).
قال أبو الفرج:

«ثم جلس المأمون في يوم الخميس، وخرج الفضل بن سهل فأعلم الناس برأي المأمون في علي بن موسى، وأنه ولي عهده، وسماه الرضا وأمرهم بلبس الخضرة، والعود لبيعته في الخميس الآخر على أن يأخذوا رزق سنة. فلما كان ذلك اليوم ركب الناس من القواد والقضاة وغيرهم من الناس في الخضرة وجلس المأمون ووضع للرضا وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه وفرشه، وأجلس الرضا عليهما في الخضرة، وعليه عمامة وسيف، ثم أمر ابنه العباس بن المأمون فبايع له أول الناس، فرفع الرضا يده فتلقى بطهرها وجه نفسه وببطنها وجوههم. فقال له المأمون: ابسط يدك للبيعة.

فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا كان يبايع، فبايعه الناس ووضعت البدر، وقامت الخطباء والشعراء فجعلوا يذكرون فضل علي بن موسى وما كان من المأمون في أمره.

ثم دعا أبو عباد بالعباس بن المأمون، فوثب، ودنا من أبيه فقبل يده وأمره بالجلوس.

ثم نودي محمد بن جعفر بن محمد، فقال له الفضل بن سهل: قم، فقام، فمشى حتى قرب من المأمون ولم يقبل يده، ثم مضى فأخذ جائزته وناداه المأمون: ارجع يا أبا جعفر إلى مجلسك فرجع.

ثم جعل أبو عباد يدعو بعلوي وعباسي فيقبضان جوائزهما حتى نفذت الأموال، ثم قال المأمون للرضا: قم واخطب في الناس وتكلم فيهم، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إن لنا عليكم حقاً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن علينا حق به، فإذا أدبتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم^(٢).

وفي رواية للرازي عن أبيه يقول: سمعت أبي يقول: حدثني من سمع

(١) علل الشرائع: باب ١٧٣ ص ٢٣٧.

(٢) مقاتل الطالبيين: ص ٥٦٣.

الرضا عليه السلام يقول: الحمد لله الذي حفظ منا ما ضيع الناس ورفع منا ما وضعوه، حتى لقد لعنا على المنابر، منابر الكفر ثمانين عاماً، وكنتم فضائلنا وبذلت الأموال في الكذب علينا، والله تعالى يأبى لنا إلا أن يعلي ذكرنا ويبين فضلنا والله ما هذا بنا، وإنما هو برسول الله صلى الله عليه وسلم وقربتنا منه حتى صار أمرنا، وما نروي عنه إنه سيكون بعدنا من أعظم آياته ودلالات نبوته^(١).

فرح في غير محله!!

ذكر المدائني عن رجاله قال: لما جلس الرضا علي بن موسى عليه السلام في الخلع بولاية العهد قام بين يديه الخطباء والشعراء، وخفقت الألوية على رأسه فذكر بعض من حضر من كان يختص بالرضا أنه قال: كنت بين يديه في ذلك اليوم فنظر إليّ، وأنا مستبشر بما جرى فأوماً إلي أن أدنو فدنوت منه فقال لي من حيث لا يسمعه غيري: لا تشغل بالك بهذا الأمر ولا تستبشر له فإنه شيء لا يتم^(٢).

الإمام يعلم المكيدة ويعرف سر المؤامرة:

قال ابن الجهم: رأيت إكرام المأمون للرضا، فقلت للرضا: الجملة لا تضلني ما أرى من إكرامه لك. فقال لا يغرنك ما رأيت فإنه سيقتلني بالسم وهو ظالم واكنم هذا^(٣).

الاحتفال بولاية العهد:

لما حضر العيد وكان قد عقد للرضا عليه السلام الأمر بالولاية، قال ياسر الخادم والريان بن الصلت: بعث المأمون إليه بالركوب إلى العيد والصلاة بالناس

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٦٤.

(٢) الإرشاد للشيخ المفيد: ص ٢٩٢. والأربيلي في كشف الغمة ج ٢ ص ٢٧٧ والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٢٥٦.

(٣) الإمام الرضا كان يعلم بالمكيدة من أولها ويعرف جيداً هدف المأمون من مسابرة، فهو الإمام المعصوم ويعلم جيداً ماذا حدث لأبيه الكاظم الذي كظم غيظه سنيناً طويلة في السجن على يد والد المأمون هارون الرشيد، والذي سممه في النهاية، ويعرف نهاية جده الإمام الصادق عليه السلام كيف سمم له، لكنه اختار أهون الشرين أحلاهما مر، إما السكوت على م أو القتل.

والخطبة لهم، فبعث إليه الرضا عليه السلام قد علمت ما كان بيني وبينك من الشروط في دخول الأمر فاعفني من الصلاة بالناس، فقال له المأمون: إنما أريد بذلك أن تطمئن قلوب الناس ويعرفوا فضلك ولم تزل الرسل يتردد بينهم في ذلك، فلما أُلح عليه المأمون أرسل إليه: إن أعفيتني أحب إليّ وإن لم تعفني خرجت كما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال له المأمون: أخرج كيف شئت، وأمر القواد والحجاب والناس أن يبكروا إلى باب الرضا عليه السلام قال: فقعده الناس لأبي الحسن عليه السلام في الطرقات وعلى السطوح، واجتمع النساء والصبيان ينتظرون خروجه، وصار جميع القواد والجند إلى بابه فوقفوا على دوابهم حتى طلعت الشمس، فاغتسل أبو الحسن عليه السلام ولبس ثيابه وتعمم بعمامة بيضاء من قطن ألقى طرفاً منها على صدره وطرفاً بين كتفه، ومسّ شيئاً من الطيب وأخذ بيده عكازة وقال لمواليه: افعلوا مثل ما فعلت فخرجوا بين يديه وهو حاف قد شمر سراويله إلى نصف الساق وعليه ثياب مشمرة، فمشى قليلاً ورفع رأسه إلى السماء وكبّر وكبّر مواليه معه ثم مشى حتى وقف على الباب. فلما رآه القواد الجند على تلك الصورة سقطوا كلهم عن الدواب إلى الأرض، وكان أحسنهم حالاً من كان معه سكين قطع بها شرابة جاجيلته^(١)، ونزعها وتحفى، وكبر الرضا عليه السلام على الباب وكبر الناس معه فخيّل إلينا أن السماء والحيطان تجاوبه وتزعزت مرو بالبكاء والضجيج، لما رأوا أبا الحسن عليه السلام وسمعوا تكبيره، وبلغ المأمون ذلك فقال له الفضل بن سهل ذو الرياستين: يا أمير المؤمنين إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس وخفنا كلنا على دمائنا فانفذ إليه أن يرجع فبعث إليه المأمون قد كلفناك شططاً وأتعباك ولسنا نحب أن تلحقك مشقة فارجع، وليصل بالناس من كان يصلي بهم على رسمه، فدعى عليه أبو الحسن عليه السلام بخفه فلبسه وركب ورجع، واختلف أمر الناس في ذلك اليوم ولم ينتظم أمر صلاتهم^(٢).

وقد أظهرت هذه البادرة روحانية الإمام عليه السلام وزهده في الدنيا، ورفضه

(١) جاجيلته: نوع من النعل.

(٢) الإرشاد: ص ٢٩٣ ورواه الأريلي في كشف الغمة ج ٢ ص ٢٧٨.

لمباهج الملك والسلطان، ووصف البحري خروج الإمام عليه السلام إلى الصلاة بهذه
الكيفية بقوله:

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لأبساً نور الهدى يبدو عليك فيظهر
ومشيت مشية خاضع متواضع لله لا يزهر ولا يستكبر
ولو أن مشتاقاً تكلف غير ما في وسعه لمشى إليك المنبر^(١)
يقول الرواة:

إن خروج الإمام إلى الصلاة بهذه الكيفية كانت من أهم العوامل التي أدت
إلى حقد المأمون على الإمام، وإقدامه على اغتياله.

(١) المناقب: ج ٤ ص ٣٧٢.

— الواقعة^(١) —

أسباب انحرافهم عن الإمام الرضا عليه السلام :

بعد وفاة الإمام الكاظم مني الإمام الرضا عليه السلام بأكثر من محنة قاسية كان يقاسي منها ويتجرع مرارتها. من هذه المحن :

أ - معاناته من تحديات الحكام ومؤامراتهم وغدر أجهزتهم.

ب - انقسام أصحاب أبيه الذي حقق للحاكمين رغباتهم الشخصية، وأطماعهم الخاصة التي كانوا يعملون من أجلها، لأنهم يرون إن التفاف الشيعة حول إمامهم الشرعي يشكل خطراً على عروشهم التي قامت على الظلم والطغيان، ودماء الصلحاء والأبرياء والأتقياء، كان همهم الدنيا وبها رجها وسلطانها الزائل، ونسوا أو تناسوا الآخرة ونعيمها الدائم.

تؤكد أكثر المصادر أن الذين وقفوا عند الإمام موسى بن جعفر ولم يرجعوا إلى الإمام الرضا عليه السلام كانوا من أعيان أصحابه، وتبريرهم الكاذب في ذلك أنهم أنكروا وفاته، وادعوا بأنه القائم من آل محمد، وقد غاب عن قومه كما غاب موسى بن عمران من بعده، وتشعبت آراؤهم بعد ذلك حول غيبته وحياته.

هؤلاء عداهم النوبختي في كتابه فرق الشيعة فقال: «وأنكر بعضهم قتله وقالوا: مات ورفعته إليه الله وسيرده عند قيامه، وقال بعضهم: لا يزال الإمام

(١) سببة تسميتهم بالواقعة لأنهم وقفوا عند الإمام الكاظم عليه السلام، ولم يرجعوا إلى الإمام الرضا عليه السلام وقد أنكروا وفاته وادعوا بأنه القائم من آل محمد عليه السلام، وقد رفع كما رفع عيسى بن مريم، وبأنه سوف يعود لعالم الدنيا مرة أخرى، ورفضوا إمامة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وخلافته لأبيه. ولذلك سمو بالواقفية. وقد تشعبت آراؤهم بعد ذلك حول غيبته وحياته.

موسى حياً، ثم يمضي فيقول: أن فرقة منهم قالت: لا ندري أحي هو أم ميت، لأننا روينا فيه أخباراً كثيراً على أنه القائم المهدي».

وقال النوبختي إن من بين فرقهم فرقة يقال لها البشيرية، تدعي هذه أن موسى بن جعفر لم يموت ولم يحبس، وأنه حي غائب وهو المهدي المنتظر، وقد استخلف على الأمة في غيبته محمد بن بشير وجعله وصيه وأعطاه خاتمه وعلمه جميع ما تحتاج إليه رعيته. كما نسب لهذه الفرقة من الواقفة إنكار بعض الضرورات الإسلامية والقول بالتناسخ، وأن الإمام واحد وتعدد الأئمة من حيث هذا الواحد ينتقل من بدن إلى بدن على حد تعبيره.

ويقول النوبختي أيضاً أنه قد غلب عليهم اسم الكلاب الممطورة، وكان سبب ذلك أن يونس بن عبد الرحمن وعلي بن إسماعيل الميثمي ناظرا بعضهم في الإمام بعد الإمام موسى بن جعفر، ولما اشتد النزاع بينهم قال لهم علي بن إسماعيل: أتم كلاب ممطورة.

ولعل جميع من كتب في فرق الشيعة بعد النوبختي قد اعتمد على كتابه حول هذا الموضوع، لأنه أول من كتب في الفرق حسب ما أعلم ولم يعتمد التحقيق السليم وتحري الحقائق فيما كتبه عن فرق الشيعة، كما يظهر ذلك من كتابه فرق الشيعة.

وما يحسن بيانه: بالرغم من أن النوبختيين يدعون التشيع لأهل البيت إلا أنهم كانوا من العناصر الفارسية الموالية للحكام. حتى أن النوبختي نفسه مؤلف كتاب فرق الشيعة كان من المقررين إليهم، والحكام كانوا يبذلون الأموال الطائلة من أجل مصالحتهم ويشترون الضمائر للتشويش على الشيعة، وتشويه معالم التشيع بكل ما لديهم من وسائل. وهذا ما نلمسه نحن اليوم في بعض البلدان العربية!

ولا أريد من خلال ذلك أن أشكك في وجود هذه الفرقة؛ فلقد وقف جماعة على الإمام موسى بن جعفر ولم يرجعوا لخليفته الشرعي الإمام الرضا عليه السلام لأسباب عديدة لعل من أبرزها كما يقول المؤلفون في أحوال الرجال: طمعهم فيما كان بأيديهم من أموال الأخماس التي كانوا يجبنونها للإمام الكاظم عليه السلام.

إنما الذي يدعو إلى الشك هو تعدد فرقهم ومذاهبهم كما يدعي النوبختي، ومن جاء بعده من المؤلفين في الفرق والمذاهب.

وعلى أية حال ففكرة الوقف مهما كانت أسبابها ودوافعها؛ كانت الهدف الصائب والأمنية الغالية لحكام ذلك العصر؛ لأنهم كانوا يتخوفون من اجتماع الشيعة وتوحيد كلمتهم تحت راية إمام واحد، وقد اجتهد المنصور قبل هارون فقال بارجاع الشيعة إلى إسماعيل بن جعفر وعبد الله الأفتح، فانشقوا الشيعة إلى فئتين: فئة منهم لهذا، وفئة منهم لذلك. وهذا ما يحدث اليوم في العالم وخاصة في لبنان، فقد يعمل الاستعمار وأعوانه إلى تقسيم الشيعة إلى فئات وأحزاب كل فئة لها هدف ولها رئيس ولها منهج. . . .

ولا ننسى رسالة المنصور لعامله في المدينة التي يأمره فيها بقتل وصي الإمام الصادق، لكن الإمام عليه السلام احتاط لذلك فأوصى إلى أربعة أحدهم المنصور نفسه.

وقد ذكرنا في بحث سابق كيف كان الإمام موسى الكاظم عليه السلام يستعمل الحيلة والحذر؛ حتى لا ينكشف أمره للمنصور بتلك السرعة، مما أدى إلى تخبط أصحابه في بداية الأمر ورجوع بعضهم إلى الأفتح وغيره، لكن لما انكشف الواقع وبانت المؤامرة رجعوا كلهم إلى الإمام الشرعي الواحد.



أقطاب الواقعة ودوافعهم

يقول المثل: الأقربون أولى بالمعروف، لكن أصحاب موسى بن جعفر طبقوا المثل بالعكس، فقد روى الرواة أن أول من أظهر فكرة الوقف على الإمام موسى عليه السلام جماعة من أعيان أصحابه المقربين منه. كان قد عمد إليهم بجباية الأخماس من شيعته. جمعوا من خلال مهمتهم هذه مبلغاً كبيراً من المال، وكان ذلك في الشطر الأخير من حياته وهو في غياهب السجون.

ولما دس إليه السم هارون الرشيد واستشهد في سجنه، طالبهم الإمام الرضا عليه السلام بما عندهم من الأموال. لكن أطماعهم غررت بهم واهتموا بديانهم الزائلة، أنكروا على الإمام الرضا عليه السلام موت أبيه الإمام موسى عليه السلام، وادعى بعضهم أنه غائب وسوف يرجع من غيبته كما رجع موسى بن عمران. فنشروا فريتهم هذه طمعاً بالمال.

وكان من أبرزهم علي بن أبي حمزة البطائني وكان عنده ٣٠ ألف دينار، وزيد بن مروان القندي وعنده ٧٠ ألف دينار.

وعثمان بن عيسى الرواسي وعنده ٣٠ ألف دينار و ٦ جوار.

وأحمد ابن أبي بشر السراج وعنده ١٠ آلاف دينار.

وجاء في رواية أحمد بن حماد أن عثمان بن عيسى كان في مصر وعنده للإمام مال كثير، فبعث إليه الإمام الرضا ليرد الأمانة إلى أهلها، فكتب إليه: إن أباك لم يمت، فرد عليه الإمام الرضا عليه السلام بكتاب: لقد جاءتنا الأخبار بموته واقتسمنا ميراثه بعد أن تأكدنا من ذلك، فكتب إليه عثمان: إن لم يكن أبوك قد مات فليس لك من ذلك شيء، وإن كان قد مات كما تدعي فلم يأمرني بدفع شيء إليك. أما علي بن حمزة البطائني وزيد بن القندي، فقد أنكروا وجود أي مال لديهما. لكن بدعتهم هذه قد بانة في حوارهما مع يونس بن عبد الرحمن بعد أن حاولا اغراءه بمبلغ من المال لكي يستر عليهما ويتبنى موقفهما، وهذا ما يؤكد

اغتصابهما للمبالغ الكبيرة التي كانت بحوزتهما. ويؤكد هذه الحقيقة ما رواه الكشي في رجاله بسنده إلى أحمد بن الفضل أن يونس بن عبد الرحمن قال: مات أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وليس من قوامه أحد إلا وعنده المال الكثير، وكان ذلك سبب جحودهم موته، ومنهم زياد القندي جمع سبعين ألف دينار. وعند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار.

ثم تابع يقول: فلما رأيت ذلك وتبين لي الحق، وعرفت من أمر أبي الحسن الرضا عليه السلام ما علمت، تكلمت في ذلك ودعوت الناس إليه فأرسلا لي وقالوا لي: لا تدع إلى هذا الأمر، فإن كنت تريد المال فنحن نغنيك، وضمنا لي عشرة آلاف دينار على أن أكف عن الكلام وأترك هذا الأمر. فقلت لهما:

إنا روينا عن الصادقين أنهم قالوا: إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب الله عنه نور الإيمان، وما كنت أدع الجهاد وأمر الله على كل حال فناصرني وأظهرها لي العداوة.

وهذا شاهد ثان وإن كان الأمر لا يحتاج إلى دليل!!.

وشاهد آخر اعترف بخطيئته وشهد على نفسه.

كان أحمد ابن أبي بشر السراج أحد أقطاب الواقعة وقد اعترف على نفسه وقال: بأن الذي دعاه لعدم الرجوع إلى أبي الحسن الرضا الأموال التي كانت عنده للإمام الكاظم عليه السلام.

جاء في الغيبة للطوسي: أن الحسين بن فضال قال: كنت أرى عند علي بن الحسين بن فضال شيخاً من أهل بغداد وكان يمازح عمي ويهزل معه فقال له يوماً: ليس في الدنيا شر منكم يا معشر الشيعة، فقال له عمي: ولم لعنك الله، قال: إني متزوج من بنت أحمد بن أبي بشر السراج، فقال لي لما حضرته الوفاة: إنه كان عندي عشرة آلاف دينار وديعة لموسى بن جعفر فدفعت ابنه عنها بعد موته وشهدت أنه لم يمت، فالله الله خلصوني من النار وسلموها لأبي الحسن الرضا، فوالله ما أخرجنا حبة منها ولقد تركناه يصلي في نار جهنم.

حوار حول الإمامة مع بعض الواقفين:

كان لابن السراج وابن المكارى الحسين بن أبي سعيد وعلي بن أبي حمزة البطائني حوار مع الإمام الرضا عليه السلام حول إمامته بعد أبيه، رواه الكشي في رجاله عن محمد بن مسعود بسنده إلى منصور بن العباس البغدادي أنه قال:

حدثنا إسماعيل بن سهل قال: حدثني بعض أصحابنا وسألني أن أكتب اسمه قال: كنت عند الرضا عليه السلام فدخل عليه علي بن أبي حمزة وابن السراج وابن المكارى فقال له ابن أبي حمزة:

ما فعل أبوك؟ قال: مضى موتاً، فقال له: إلى من عهد من بعده؟.

فقال: عهد إلي، فقال له: فأنت إمام مفترض الطاعة من الله، قال: نعم، قال ابن السراج وابن المكارى: قد والله أمكنك من نفسه، قال: وملك وبما أمكنته أتريد أن آتي بغداد وأقول لهارون: أنا إمام مفترض الطاعة، والله ما ذلك عليّ، وإنما قلت ذلك لكم عندما بلغني من اختلاف كلمتكم وتشتت أمركم لثلاثا يصير سرکم في عدوكم.

فقال له ابن أبي حمزة: لقد أظهرت شيئاً ما كان يظهره أحد من آبائك ولا يتكلم به، قال: بلى لقد تكلم خير آبائي رسول الله صلى الله عليه وآله لما أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين، فلقد جمع من أهل بيته أربعين رجلاً وقال لهم: أنا رسول الله إليكم، فكان أشدهم تكديباً له وتآليفاً عليه: عمه أبو لهب، فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله: إن خدشني خدش فلست بنبي، فهذا أول ما أبدع لكم من آيات النبوة، وأنا أقول لكم: إن خدشني هارون خدشاً فلست بإمام فهذا ما أبدع لكم من آية الإمامة.

ثم قال له علي بن أبي حمزة: أنا روينا عن آبائك أن الإمام لا يلي أمره إلا إمام مثله، فقال له أبو الحسن الرضا:

أخبرني عن الحسين بن علي عليه السلام كان إماماً أم لا؟ فقال: لقد كان إماماً، فقال له الرضا: فمن ولي أمره؟ قال: ولده علي بن الحسين قال: لقد كان علي بن الحسين أسيراً في يد عبيد الله بن زياد في الكوفة، فخرج وهم لا يعلمون إلى كربلاء حتى ولي أمر أبيه ورجع، فقال له أبو الحسن الرضا: إن الذي أمكن

علي بن الحسين عليه السلام أن يأتي كربلاء فيلي أمر أبيه وكأنه ليس في حبس أو أسر، لهو قادر على كل شيء.

وبعد أن تفتت فكرة الوقف في أوساط الشيعة ناظرهم الإمام الرضا أكثر من مرة فرجع منهم عدد كبير عنها، وأصر عليها جماعة كالبطائني والقندي وابن السراج وغيرهم، وقد لعنهم الإمام ووصفهم بالزندقة والإلحاد.

فقد روى عنه سليمان الجعفري أنه قال في جواب من سأله عنهم: ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

وقال عليه السلام ليوسف بن يعقوب: لا تعطيه من الزكاة فإنهم كفار مشركون وأنهم يعيشون حيارى، ويموتون زنادقة.

وكتب أيضاً عليه السلام في جواب من سأله عنهم فقال كما جاء في بعض الروايات: «الواقف معاند للحق ومقيم على سيئة إن مات عليها كانت جهنم مأواه وبئس المصير». وقال عليه السلام في رواية أخرى ما يشبه هذا الكلام: «إن الواقفة والنصاب بمنزلة واحدة ليسوا من المسلمين ولا من المؤمنين»، كما جاء في روايات عديدة في رجال الكشي.

الدنيا الغرارة:

ويقول الكشي أيضاً في رجاله: أن جماعة من الشيعة رجعوا بعد أبي الحسن موسى بن جعفر إلى ولده أحمد بن موسى واختلفوا إليه مدة من الزمن، وكانوا قد أيقنوا بوفاة والده موسى بن جعفر.

ومن هؤلاء إبراهيم وإسماعيل ابنا أبي السماك، ولما خرج ابن طباطبا ضد الحكم العباسي وأرسل إليه الرشيد جيشاً بقيادة أبي السرايا؛ خرج معه أحمد بن الإمام موسى ابن جعفر لحرب ابن طباطبا فقال له جماعة: إن هذا الرجل قد خرج مع أبي السرايا فما تقولان؟.

فأنكر عليه ذلك ورجعا عنه وقالوا: إن أبا الحسن لا يزال حياً ووقفنا عند القول بإمامته. مما يشير بوضوح إلى أن المنحرفين عن أبي الحسن الرضا كانوا

بين من أغرتهم الدنيا واستبد بهم الطمع، فتظاهروا بانكار موت أبيه طمعاً بما كان بأيديهم من الأموال التي كانت بحوزتهم لأبي الحسن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

ومن هؤلاء نذكر: ابن السراج والبطائني، والقندي، وابن عيسى الرواسي وغيرهم من وكلائه والقيمين على أمواله.

ومنهم أيضاً الطابور الخامس المندسون بين أصحاب الأئمة عليهم السلام بوحي من الحكام الغاصبين، ومن المشعوذين والمنحرفين كمحمد بن بشير وأمثاله، وفريق آخر ممن انحرفوا عنه لأنهم كانوا محدودي التفكير والمعرفة، فأخذوا ببعض المرويات التي لم تكن ظاهرة المحتوى ظهوراً يرفع الشك والالتباس كالحسن بن قياما الصيرفي، وزرعة بن محمد الحضرمي وأمثاله ممن كانوا يتعللون ببعض المرويات المكذوبة، لكن هؤلاء كانوا أقل خطراً من النوعين السابقين، وأمكن إرجاع أكثرهم إلى الإمام الشرعي بعد الحوار الذي كان يجري بينهم وبين الإمام تارة وبينهم وبين أصحابه تارة أخرى، ومن هذا النوع من الواقعة روى الكشي:

بسنده عن الفضل بن شاذان أنه قال: حججت سنة ثلاث وتسعين ومائة ١٩٣هـ وسألت أبا الحسن الرضا عليه السلام فقلت له: جعلت فداك ما فعل أبوك؟ قال:

مضى كما مضى أبأؤه، قلت: فكيف أضع بحديث حدثني به يعقوب بن شعيب عن أبي بصير أن أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال:

إن جاءكم من يخبركم أن ابني هذا مات وكفن وقبر ورفضوا أيديهم من تراب قبره فلا تصدقوه، فقال: كذب أبو بصير، ليس هكذا حدثه إنما قال:

إن جاءكم عن صاحب هذا الأمر أنه مات وكفن وقبر ورفضوا أيديهم من تراب قبره فلا تصدقوه، ويعني الإمام بصاحب هذا الأمر الإمام الثاني عشر من الأئمة المعصومين.

ومن هؤلاء المندسين الكاذبين أيضاً محمد بن يونس بن الحسن الواسطي عن الحسن بن قياما الصيرفي أنه قال: سألت أبا الحسن الرضا عن أبيه فقال:

مضى كما مضى أباه فقلت: فكيف أصنع بحديث حدثني به زرعة بن محمد الحضرمي عن سماعة بن مهران؛ أن أبا عبد الله الصادق قال: إن ابني هذا وأشار إلى ولده موسى فيه شبه لخمسة أنبياء يحسدكما حسد يوسف ويغيب كما غاب يونس وعد ثلاثة غير هذه، فقال:

كذب زرعة بن محمد ليس هكذا حدث سماعة بن مهران، إنما قال: صاحب هذا الأمر يعني القائم فيه شبه من خمسة أنبياء ولم يقل ابني هذا.

وعلى أي حال لا يهمننا البحث عن الواقفة واتجاهاتهم والأسباب التي دفعتهم لذلك، إنما عرضنا هذه اللمحات عنهم لأن لها صلة مباشرة بحياة الإمام الرضا عليه السلام التي استمرت تصدم بالأحداث حتى آخر مراحلها، وبسببها كانت نهاية حياته في سجن هارون الرشيد ببغداد الظالم المجرم لعنه الله.

ما شاهده الإمام الرضا عليه السلام من المحن والمآسي:

بقي الإمام الرضا مع أبيه عليه السلام نحواً من ثلاثين سنة ونيف، شاهد خلالها ضرراً من المحن وألواناً من البلايا التي أحاطت بأبيه الإمام موسى الكاظم عليه السلام الذي كان وجوده رغم كونه بعيداً عن مواقف المجابهة مع الحكم، ووقوفه مسالماً للحكام، يثير قلقهم ويقض مضاجعهم.

فلقد كان المنصور يتحرراه يوماً بعد يوم، ويراقب جميع تحركاته وتصرفاته مما جعله يحتجب عن شيعة ليخلصهم من شر محدق بهم.

بعث إليه الخليفة العباسي الثالث المهدي ٧٧٥م - ٧٨٥م يستدعيه إلى بغداد ولما وصل عليه السلام أدخله فوراً إلى السجن لمدة من الزمن، ولم يخرج حتى رأى في نومه علياً عليه السلام يتهدده ويقرأ عليه الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾^(١) ومع ذلك فقد أخذ عليه العهود والمواثيق على أن لا يخرج عليه، ولا يتحرك في ثورة تستهدف أحداً من حكام دولتهم. وبوفاة المهدي.

(١) سورة محمد: الآية، ٢٢ و ٢٣.

وبعده الهادي ٧٨٥م - ٧٨٦م الذي لم تطل ولايته تسلم الرشيد سدة الحكم ٧٨٦م - ٨٠٩م وهي أطول فترة في الحكم العباسي، وبخلافته بدأت بوادر المأساة التي حلت بالبيت العلوي الذي كان يتزعمه الإمام موسى الكاظم عليه السلام وكان له منها القسط الأوفر. فقد اعتقله هارون الرشيد وضيق عليه كثيراً في ظلمات السجون المرعبة مدة أحد عشر عاماً، ينقله خلالها من سجن إلى سجن، والمشرفون على إدارة سجنونه يتهربون من قتله. ولما أعيته الحيلة ولم يجد من يستجيب له سوى السندي بن شاهك بمساعدة وزيره يحيى بن خالد البرمكي، فأمره الرشيد بأن يدس له السم في الطعام ليتخلص منه^(١).

لقد حدث كل هذا والإمام الرضا عليه السلام يشاهد بمرارة وألم تلك الأحداث القاسية التي قضت على الكثيرين من أهل بيته وبني عمومته ويكفي مأساة أبيه (الكاظم) عليه السلام من بدايتها وحتى نهايتها.

وكان المصير نفسه ينتظره من أولئك الطغاة إن هو تحرك بأي حركة ضدهم، لأن الخصومة بين البيت العلوي والبيت العباسي كانت لا تقف عند حدود الأشخاص وإنما كانت خصومة مبادئ ومواقف، خصومة بين فئتين، فئة تمثل الإسلام بكل أبعاده القويمه وأهدافه النبيلة، وفئة تمثل العنصرية والنزعة القبلية التي برزت بكل مظاهرها في عهد أسلافهم الأمويين. ولم يختلف الهدف عما كان يحارب من أجله أبو سفيان وأبو جهل وأمّية بن صفوان وغيرهم من جبابرة قريش وطغاتها الذين وقفوا ضد الدعوة الإسلامية وحاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله وأذوه؛ ولكن هذه المرة من لون آخر وأسلوب جديد من أساليب ذلك العصر وباسم الإسلام. إذن ليس الأمر غريباً إذا كان الإمام الرضا عليه السلام ينتظر من حكام عصره، ملوك بني العباس المصير نفسه الذي انتهى إليه والده الإمام الكاظم عليه السلام بالرغم من أنه بقي خارج سجونهم ومعتقلاتهم قرابة أحد عشر عاماً لأنه عاش بعيداً عن السياسة وشؤونها والسياسيين وشجونهم، وبالتالي لقي المصير نفسه، أخرجته بنو العباس من الدنيا شهيداً، في حين أنه لم

(١) كان قد تعلم هذه الطريقة من معاوية بن أبي سفيان الذي قال: إن لله جنوداً من عسل. حيث كان يدس السم في العسل.

يخرج عليهم ولم يقم بأية حركة ضدهم، حتى ولا فكر في السلطة في يوم من الأيام. هذا الجور العباسي الذي يشبه الإجرام الأموي وصفه أحد الشعراء وقال:

ألا ليت جور بني مروان دام لنا
وليت عدل بني العباس في النار
ولا ريب أن الإمام الرضا قد لقي من حكام عصره خلال الأعوام العشرين التي عاشها بعد استشهاد أبيه، ضروباً من المحن وألواناً من الآلام من نوع آخر، كان يعاني من وقعها ومرارتها الكثير الكثير وبالتالي لا بد أن يلاقي المصير نفسه الذي لقيه والده من قبله كما ترجح ذلك القرائن والأحداث التي رافقت تاريخ وفاته.

ولعل موقف الحكام المتصلب من الإمام الرضا عليه السلام ومن غيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام بالإضافة إلى ما بين المبادئ التي كان يمثلها كل منهما من بعد شاسع، لعل ذلك الموقف مصدره هو إيمان جانب كبير من المسلمين بإمامتهم وأحقيتهم بمنصب الخلافة والإصرار على أن المتقمصين لها قد اغتصبوها من أصحابها الشرعيين، وبذلك تجاوزوا ما فرضه الله عليهم لعباده إلى أبعد الحدود.

وهذا ما جعل قادة الفكر وكبار العلماء يلتفون حولهم لتفوقهم العلمي في شتى المجالات، وسمو أخلاقهم ونبل تصرفهم. كل ذلك أدى إلى افتتان العامة والخاصة بهم والتقرب منهم واعتبارهم البديل الأفضل في ممارسة الحكم وتحمل أعبائه ومسؤولياته.

إلى جانب ذلك كانت الوشايات المغرضة والمصالح الحاقدة التي كانت تستهدف القضاء عليهم؛ من قبل خصومهم من بني عمومتهم الأقربين والمتعاونين معهم من المغرضين كالبرامكة وغيرهم من أكلة الجبنة. وهذا ما جعل الحكام الظالمين يتنفسون الصعداء لما يرتكبون من تنكيل، ومبرراً لمضايقاتهم. لذلك كان الحكام العباسيون يعتبرون الأئمة المعصومين من أخطر العناصر التي تهدد دولتهم وتندر بزوالها وتقويضها فكان ذلك الموقف الحاقد والمجرم الذي لم يحدث التاريخ بأسوأ منه، من تاريخ معاوية بن أبي سفيان ومؤامرتة وحروبه ضد الإمام علي بن أبي طالب أمام الفقهاء وسيد العلماء... إلى مأساة الإمام الحسين سيد الشهداء إلى قتل وتشريد الأئمة المعصومين: الإمام زين العابدين والإمام الباقر

والإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا والإمام الجواد والإمام الهادي والإمام حسن العسكري والإمام محمد بن الحسن المهدي المنتظر عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام. وقد وجدنا الصحابة والتابعين من النابيين وأرباب الفكر، ومن جاء بعدهم من العلماء والفقهاء والشعراء والفلاسفة في العصرين الأموي والعباسي يضعون أهل البيت في المكانة العليا التي أنزلهم فيها الله ورسوله علماً وخلقاً وشرفاً وعظمة.

والشافعي وابن حنبل وابن عربي وعبد الله بن عمر ومحمد بن طولون يقولون إن حب أهل البيت وسلوكهم ونهجهم هو العدل، وهم حبل الله المتين الذي ينير الطريق للمتمسك بهم. قال الشافعي:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي
والعلماء والشعراء لا يكتفون بتأليف الكتب في مناقب الأئمة الاثني عشر بل ينظمون أسماءهم لؤلؤاً من الشعر المجدول من روحانية الصدق في ولايتهم.

أحداث أليمة ومؤامرات مريرة:

جاء في تاريخ اليعقوبي وغيره أن الإمام الرضا عليه السلام بقي بعد أبيه الإمام الكاظم عليه السلام عشر سنوات في عهد هارون الرشيد حيث كانت وفاة أبيه سنة ١٨٣هـ وكانت وفاة الرشيد سنة ١٩٣هـ.

خلال هذه المدة الصعبة تجرع الإمام الرضا مرارة الأحداث التي استقبلت إمامته بين الحين والآخر من قبل أنصار الحكام والدائرين في فلكهم الذين كانوا يصورون خطر الإمام على ملكهم وخلافتهم، ظناً منهم أن ذلك سيمنحهم عطف الحكام ويعزز مراكزهم عندهم.

نذكر بعض هذه المؤامرات الدنيئة منها:

ما جاء في رواية موسى بن مهران عن جعفر بن يحيى البرمكي أنه قال: سمعت عيسى بن جعفر يقول لهارون الرشيد حين توجه من الرقة إلى مكة: اذكر يمينك التي حلفت بها في آل أبي طالب، فإنك حلفت إن ادعى أحد الإمامة بعد

موسى بن جعفر أن تضرب عنقه صبراً، وهذا علي ابنه يدعي هذا الأمر ويقال له ما يقال في أبيه . فنظر إليه الرشيد غاضباً، وكأن الندم يحز في نفسه، وقال: ما تريد؟ أتريد أن أقتلهم جميعاً؟! .

قال موسى بن مهران: فلما سمعت ذلك من جعفر بن يحيى هرعت إلى الإمام وأخبرته بمقالة الرشيد فقال عليه السلام: ما لي ولهم والله لا يقدرون مني على شيء .

وكان من أشد الناس تحريضاً على الإمام الرضا عليه السلام البرامكة الخونة . فهم الذين نسجوا خيوط المؤامرة البشعة على أبيه الإمام الكاظم عليه السلام مستغلين حقد ابن أخيه وحسده له، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: وهو يحاول أن يدفعه عليه ليلحقه بأبيه: هذا علي بن موسى قد قعد مكان أبيه وادعى الأمر لنفسه، فقال هارون: أو ما يكفينا ما صنعنا بأبيه بالأمس، أتريد أن نقتلهم جميعاً؟! .

من خلال هذه الكلمات نستشف أن هارون الرشيد كان يشعر بعظم ما ارتكبه من آثام مع الإمام الكاظم عليه السلام وربما كان يعيش في صراع مع نفسه؛ التي شبت من الآثام ولم تعد تستوعب إثمًا جديدًا بقتل ولده الإمام الرضا . وعذاب الضمير أشد أنواع العذاب .

لكن المحاولات الكثيرة التي كانت تقوم بها حاشيته أوغرت صدره وقدرت أخيراً أن تدفعه لمحاولة الانتقام منه . وكانت إرادة الله تحول بينه وبين ما يريد من ظلم وطغيان . فقد جاء عن أبي الصلت الهروي أنه قال: «كان أبو الحسن الرضا ذات يوم جالساً في بيته إذ دخل عليه رسول هارون الرشيد، فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقام وقال لي: يا أبا الصلت إن الرشيد لا يدعوني في مثل هذا الوقت إلا لداهية، فوالله لا يمكنه أن يعمل بي شيئاً أكرهه لكلمات وقعت إلي من جدي رسول الله ﷺ، ثم خرج وخرجت معه حتى دخل على هارون، فلما نظر إليه الرضا قرأ تلك الكلمات فلما وقف بين يديه نظر إليه وقال:

يا أبا الحسن قد أمرنا لك بمائة ألف درهم وكتب لنا حوائج أهلك وارجع إلى أهلك إن أحببت، فلما قام الإمام ليرجع قال الرشيد: أردت أمراً وأراد الله خلافه وما أراد الله إلا الخير» .

لكن جماعة من أصحاب الإمام ومحبيه الذين عاشوا مرارة الألم من جراء ما قاساه أبو الإمام الكاظم عليه السلام من البلاء و الظلم من هارون الرشيد كانوا يترقبون له المصير نفسه ويحاولون اقناعه ليعبد عن مواطن الخطر، فطلبوا منه أن يستتر في دعوته ويحتاط لنفسه ولشيئته من أولئك الطغاة الظالمين الذين لا يرقبون الله سبحانه في شيء من أمورهم فكل همهم المناصب الدنيوية، والخلافة التي اغتصبوها ويخافون عليها في كل لحظة من العلويين أصحاب الحق المشروع.

لكن الإمام الرضا عليه السلام كان يبدو وكأنه تلقى عن آبائه ما سيكون من أمره وأن الرشيد على ضلاله وطغيانه لن يصل إليه بسوء. فلم يعبأ بتلك المحاولات ولم يغير من سلوكه ونهجه وإظهار الدعوة إلى الله. فهو عليه السلام يعمل من أجل كلمة الله لتبقى هي العليا.

وقد روي الكليني في الكافي عن صفوان بن يحيى أنه قال: لما مضى أبو الحسن موسى عليه السلام وقام من بعده ولده الرضا وأظهر الدعوة لنفسه خفنا عليه من ذلك الطاغية وقلنا له: إنك أظهرت أمراً عظيماً وإنا نخاف عليك من هذا المجرم، فقال عليه السلام يجهد جهده فلا سبيل له علي.

وجاء في روضة الكافي عن محمد بن سنان أنه قال: قلت لأبي الحسن الرضا في أيام هارون: إنك قد شهرت نفسك بهذا الأمر وجلست مجلس أبيك وسيف هارون يقطر بالدم. فقال عليه السلام جرأتي على ذلك ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه: إن أخذ أبو جهل من رأسي شعرة واحدة فاشهدوا بأنني لست بنبي، وأنا أقول لكم: إن أخذ هارون من رأسي شعرة فأنا لست بإمام.

ودخل عليه جماعة من الواقعة وبعد حوار جرى بينه وبينهم قال له علي بن أبي حمزة: أما تخاف هؤلاء على نفسك؟ فقال الإمام عليه السلام: لو خفت عليها كنت عليها معيناً، أن رسول الله ﷺ أتاه أبو لهب فتهدهه فقال له رسول الله ﷺ: إن خدشت من قبلك خدشة فأنا كذاب، فكانت أول آية نزع بها رسول الله ﷺ وهي أول آية أنزع بها لكم أن خدشت خدشاً من قبل هارون فأنا كذاب.

فقال له الحسين بن مهران وكان من الواقعة: قد أتانا ما نطلب إن أظهرت

هذا القول، قال الإمام عليه السلام : أتريد مني أن أذهب إلى هارون وأقول له : أنا الإمام وأنت لست بشيء، ما هكذا صنع رسول الله في أول أمره، إنما قال ذلك لأهله ومواليه ومن يثق به دون الناس. وظل أنصار الرشيد وبخاصة البرامكة الحاقدين على العلويين يشحنونه على الإمام الرضا؛ وكان يطيعهم ويستجيب لطلبهم أحياناً فيرسل في طلب الإمام الرضا ليقتاله ويتخلص منه. لكن الله سبحانه كان في عونه فيخلصه من الرشيد ومن أعوانه الأشرار؛ إلى أن وقعت نكبة البرامكة وانتقم الله له ولأبيه منهم؛ على يد الرشيد نفسه في حين أنهم كانوا العقل المدبر لسياسته ومن أقرب أعوانه إليه.

تعرض بيت الإمام الرضا للإساءة والسلب:

جاء في تاريخ ابن الأثير أن بيت الإمام الرضا قد تعرض للسلب والإساءة، بعد أن خرج محمد بن جعفر بالمدينة وأعلن الثورة والتمرد على الحكم العباسي الجائر في عهد الرشيد، فأرسل إليه هذا الطاغية جيشاً بقيادة الجلودي أحد أعوانه وأمره بضرب عنقه إن ظفر به، ولم يقف عند هذا الحد، بل أوعز إليه أن يهاجم دور آل أبي طالب ويسلب ما على نسائهم من ثياب وحلل، ولا يدع على واحدة منهن نوباً يسترها، وبعد أن ظفر الجلودي بمحمد بن جعفر والثائرين معه، هاجم دور الطالبيين وحاول تنفيذ أوامر الرشيد بها، ولما انتهى إلى دار الإمام الرضا عليه السلام بجنده وخيله وقف الإمام على باب داره وجعل نساءه في بيت واحد ثم حاول منعهم من دخوله، فقال له الجلودي: لا بد أن أدخل البيت وأتولى بنفسي سلبهن كما أمرني الرشيد، فقال له الإمام الرضا عليه السلام : أنا أسلبهن لك ولا أترك عليهن شيئاً إلا جئتك به؛ وظل يمانعه ويحلف له بأنه سيأخذ جميع ما عليهن من حلي وحلل وملابس حتى سكن روعه، ووافق على طلب الإمام عليه السلام.

فدخل الإمام الرضا عليه السلام على نسائه ولم يدع عليهن شيئاً إلا أخذه حتى أقراطهن وملابسهن وخلخيلهن، ثم أضاف إلى ذلك جميع ما في الدار من قليل أو كثير وسلمه إلى الجلودي رسول هارون^(١).

(١) وهذا منتهى السفالة من هارون الرشيد، وفقدان الغيرة والحمية حتى مع بنات عمه العلويات.

فترة زمنية هادئة:

مات الرشيد وترك كل ما جمع من مال وسلطان وخدم، سنة ١٩٣هـ وتسلم بعده الحكم ابنه الأمين كونه ولياً للعهد بمقتضى توزيع الأدوار بين أولاد هارون الثلاثة: الأمين والمأمون والقاسم. ثم وزع المناطق بينهم فجعل للأمين ولاية العراق والشام إلى آخر المغرب، وللمأمون من همدان إلى آخر المشرق بما في ذلك خراسان ونواحيها. وللقاسم الجزيرة والثغور والعواصم.

بقي الأمين بعد أبيه هارون خمس سنوات ونيف، وفي سنة ١٩٨هـ دارت المعارك بين الأخوين الأمين والمأمون فقُتِل الأمين وانتقلت السلطة إلى المأمون الذي اجتمع عليه المسلمون في جميع أطراف الدولة. وكان الأمين بعد أن انتقلت الخلافة إليه قد غدر بأخيه المأمون وخلعه من ولاية العهد وجعلها لولده موسى من بعده؛ وكان ذلك بإشارة من الفضل بن الربيع لأن هذا كان يحقد على المأمون، وقد خاف على مركزه في الدولة أن ينتزعه منه المأمون إن أفضت الخلافة له. في هذه الفترة كان عهد الهدوء عند الإمام الرضا عليه السلام ولم يذكر المؤرخون أي موقف يشير إلى الإساءة للإمام أو الفتك به. ولعل مرد ذلك إلى انصراف الأمين للملذات والشهوات، بالإضافة إلى الخلافات بين الأخوة والانقسام الخطير بين أفراد الأسرة الحاكمة. وكان من نتائجها اقصاؤه لأخيه المأمون من ولاية العهد مما زاد من حدة الصراع واضطراب الأوضاع في جميع أنحاء الدولة.

فمن الممكن أن يكون لذلك كله دخل في انصراف الأمين وجهاز حكمه عن مراقبة الإمام الرضا عليه السلام وملاحقته، كما كان يفعل أسلافه مع غيره من الأئمة عليهم السلام مما سمح له بفترة هادئة انصرف خلالها إلى أداء رسالته ونشر مبادئ الإسلام في ذلك الجو الذي كان مشحوناً بالصراعات العقائدية والخلافات المذهبية والمجالات الفلسفية...



ظلم وثورات

لقد تظاهر الحكام العباسيون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المؤكد أن هذا التظاهر لا قيمة له عند الله لأنه لا يحقق الأثر الإيجابي ولا يؤدي ثمرته الاجتماعية المرجوة منه، كما لا يخلي صاحبه من تبعه هذا الواجب التكافلي إلا إذا أذاه بعامل نفسي جدي، من العزيمة الصادقة والإرادة الجازمة. وقد أوضح الرسول الأكرم هذا المعنى: «كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يد الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطراً» أي لتلتزمه باتباع الحق إلزاماً. هذا والركون إلى الظلم ظاهرة معيبة ومنكرة تدل على خَوَر في العزم ورضى به، بل ومشاركة الساكت فيه، لذا كان جديراً بعقاب الظالم عينه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن آوِيَاءَ تُنصُرُونَ﴾^(١).

والإمام الصادق عليه السلام أمر جماعته بمقاطعة أهل الجور، ومنعهم من المرافعة عند حكام الجور فقال: أيما رجل كان له وبين أخ له ممارسة في حق، فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبينه فأبى إلا أن يرفعه إلى هؤلاء، كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن بَيْنِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٢).

وكان يعلن عليه السلام بأن المرافعة إلى حكام الجور والظلم إثم، وإن حكمهم غير نافذ لأن الحكومة للإمام العادل بالحكم العالم بالقضاء، كني أو وصي نبي.

وقد نبه جماعته فقال عليه السلام: «إياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل

(١) سورة هود: الآية، ١١٣.

(٢) سورة النساء: الآية، ٦٠، والظاهر يريد بهؤلاء حكام بني العباس.

الجور، وإيما مؤمن قدم مؤمناً في خصومة إلى قاض أو سلطان جائر يقضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الاثم». وقال في جواب من سأله عن ذلك: «ما أحب أن أعقد لهم عقدة، أو أكيت لهم وكاء، إن الظلمة في سرادق من نار، حتى يحكم الله بين العباد»^(١).

موقف الإمام الرضا عليه السلام من ثورة العلويين على الحاكمين:

روى المؤرخون أن المأمون استقبل خلافته بأخطر ثورة ضده في تلك الفترة من التاريخ وهي:

ثورة محمد بن إبراهيم الحسين المعروف بابن طباطبا التي قادها ومهد لها السري بن منصور المعروف بأبي السرايا، وقد انطلقت هذه الثورة من الحجاز إلى الكوفة ومنها إلى أكثر المناطق في العراق، ثم تفرعت عنها انتفاضات أخرى قادها العلويون في البصرة واليمن والبحرين والحجاز وغير ذلك من الأقطار.

وثورة إبراهيم بن موسى بن جعفر في اليمن بعد أن استولى عليها، وثورة الحسين بن حسن الأفطس في مكة.

وثورة زيد بن جعفر في البصرة، وهو المعروف على لسان بعض المؤرخين بزيد النار لكثرة ما قتل وأتلف وأحرق من دور العباسيين وأنصارهم وممتلكاتهم إلى غير ذلك في المناطق الأخرى.

وقد ذكرنا سابقاً أن الأسباب التي دفعت المأمون إلى تولية الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد هي تطويق هذه الانتفاضات، وتخدير الشيعة المناصرين لهم في مختلف المناطق، وخاصة شيعة خراسان الذين ناصروا الدولة العباسية وعززوا موقفه خلال المعارك الدامية بينه وبين أخيه الأمين. وقد نجح المأمون في هذا التدبير إلى حد ما حيث لزم العلويون جانب الهدوء مراعاة لمركز الإمام الرضا عليه السلام ولم يذكر المؤرخون عن أي تحرك علوي ضد المأمون خلال تلك الفترة القصيرة التي عاشها الإمام الرضا عليه السلام بعد ولاية العهد.

(١) راجع الإمام الصادق عطر النبوة ومنهج حياة للمؤلف ص ٣١١.

موقف الإمام عليه السلام:

أما موقف الإمام الرضا من انتفاضات العلويين وتحركاتهم ضد الحاكمين فلم يكن على ما يبدو سلبياً من حيث مبدأ الثورة المناهضة للظلم والطغيان، بل كان كغيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام يباركون كل نائل على الظلم والباطل حتى ولو فشل عسكرياً إذا كانت ثورته ضمن الحدود المشروعة ولصالح الأمة، لأن الثورة النزيهة في الغالب تكشف للشعوب زيف الحكام وواقعهم الكريه وتترك وراءها فئة مقهورة تحس بالظلم والتجاوزات، وتحاسب عليها، وأحياناً تضطر الحاكم إلى تصحيح سلوكه ووسائل حكمه فيخفف من ظلمه إلى حد ما.

والسؤال الذي يراود خاطر القارئ في هذا المقام هو أن الأئمة إذا افترضنا أنهم كانوا يباركون بعض تلك الانتفاضات، فلماذا لم يتولوا هم قيادتها؟

كلنا يعلم أن الأئمة المعصومين كانوا يتمتعون بعقل ناضج ونظرة حكيمة وادراك سليم فيحسبون نتيجة الأمور قبل أن تقع، فإذا تأملنا جيداً بين تلك الانتفاضات وبين المهمات التي انصرف إليها الأئمة عليهم السلام تبين لنا أنهم كانوا يعلمون بأن نصيب تلك الانتفاضات سيكون الفشل السريع، لأنها لم تقم على أسس صحيحة ومدروسة تضمن لها النجاح. فالثورة الناجحة بنظرهم تحتاج إلى قاعدة شعبية واضحة المعالم مزودة بالوعي والاخلاص، تستجيب لتخطيط القائد في كل ما يتوقف عليه نجاحها؛ وهذا لم يتوفر لتلك الانتفاضات التي كانت تحدث هنا وهناك.

وما يجدر ذكره أن الأصوات التي كانت ترتفع ضد الحاكمين كان يقودها الأئمة عليهم السلام ونخص الثورة الثقافية التي تفرضها مصلحة الإسلام العليا يوم ذاك، والتي كان النجاح حليفها في مختلف الميادين كما يظهر ذلك للمتتبع تاريخهم بدقة وحكمة.

فالأئمة عليهم السلام كانوا يباركون كل ثورة على الظلم والباطل إذا كانت تلك الثورة في سبيل الحق، وفي نصرة المظلومين حتى ولو كان نصيبها الفشل فإنها تكشف زيف الحاكمين وأخطاءهم، وتترك وراءها في المجتمع من يحس بالظلم

والقهر والعدوان . ومما يبدو أن تلك الانتفاضات قد حققت بلا ريب انتصاراً كبيراً في هذا المجال .

لكن المكاسب الكبرى التي حققتها ثورة الأئمة عليهم السلام لمصلحة الإسلام لم يكن بالإمكان تحقيق شيء منها لو أنهم اشتركوا بتلك الانتفاضات أو تولوا قيادتها .

وعلى أي حال فالذي أنكره الإمام الرضا عليه السلام على بعض الثائرين من العلويين أنهم كانوا يغترون ببعض المظاهر؛ وينخدعون لبعض الأصوات التي كانت تهتف باسمهم، فيدعون ما ليس لهم ويخرجون بدون تخطيط دقيق وبالتالي يكون نصيبهم القتل والتشريد .

كما أنهم عليهم السلام قد أنكروا على بعض الثائرين إسرافهم في القتل والسلب واحراق البيوت ونهب الممتلكات . وكان نصيب الأبرياء من ذلك أكثر من نصيب الحاكمين وأعوانهم؛ ولذا فإن الإمام الرضا عليه السلام قد وقف من أخيه زيد بن الإمام موسى عليه السلام ذلك الموقف المتصلب؛ ونبه مراراً وحذره على عدوانه وتجاوزاته التي افتعلها والتي لا تقرها الشرائع العادلة والأديان السماوية الرحيمة .

وقد عرف أخوه زيد عند المؤرخين بزيد النار لكثرة ما أحرق من الدور وأهلك من الممتلكات التي تخص العباسيين ومن يلوذ بهم من الأعوان والأتباع . وذكر ابن الأثير في تاريخه أنه قبض على رجل من المسودة فأحرقه بالنار واستولى بعد ذلك على كثير من أموال التجار، سوى ما أخذه من أموال العباسيين وأنصارهم .

وقد خرج في البصرة عندما استولى أبو السرايا على الكوفة وجهاتها بعد أن انتقلت الخلافة إلى المأمون والإمام الرضا عليه السلام لا يزال في المدينة؛ فأرسل إليه المأمون، جيشاً عرمرماً بقيادة علي بن سعيد، وبعد أن دارت معارك ضارية بين الفريقين طلب زيد بن موسى بن جعفر الأمان فأعطاه القائد العباسي ما أراد وأخذته أسيراً إلى بغداد وسلمه إلى الحسن بن سهل فأمر بضرب عنقه وكان قد حضر مجلسه الحجاج بن خيثمة، فقال له: أيها الأمير إن رأيت أن لاتعجل عليه فإن عندي نصيحة لك، فأمر السيف الذي كان قد استعد لضرب عنقه بالتوقف وقال

للحجاج: ما هي نصيحتك؟ قال: أيها الأمير هل أتاك بما تريد أن تفعله أمر من أمير المؤمنين؟ قال: لا.

قال: فعلام تقتل ابن عم أمير المؤمنين من غير أمره وقبل أن تستطلع رأيه، ثم حدثه بما كان من أمر أبي عبد الله الأفظس وقد حبسه الرشيد عند جعفر بن يحيى؛ فقتله جعفر وبعث برأسه إلى الرشيد في طبق مع هدايا النيروز فحقد عليه الرشيد، ولما غضب على البرامكة وأمر مسروراً بقتل جعفر بن يحيى، قال له: إذا سألك جعفر عن ذنبه فقل له أنه يقتلك بابن عمه ابن الأفظس الذي قتلته من غير أمره.

ثم قال الحجاج بن خيثمة للحسن بن سهل: أفتأمن أيها الأمير حادثة تحدث بينك وبين أمير المؤمنين وقد قتلت هذا الرجل فيقتلك به ويحتج عليك بمثل ما احتج به الرشيد على جعفر بن يحيى، فقال الحسن للحجاج: جزاك الله خيراً، ثم أمر بترك زيد وإرجاعه إلى الحبس فلم يزل محبوساً في بغداد حتى كانت ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام فأرسله الحسن إلى المأمون في خراسان، فلما أدخل على المأمون قال له: يا زيد خرجت بالبصرة وتركت أن تبدأ بدور أعدائنا من بني أمية وثقيف وعدي وباهلة وآل زياد وقصدت دور بني عمك فأحرقتها.

فقال له زيد كما يدعي الراوي: أخطأت يا أمير المؤمنين من كل جهة وإن عدت إليها بدأت بأعدائنا، فضحك المأمون وبعث به إلى الإمام الرضا عليه السلام وقال له: لقد وهبتك جرمه فاحكم عليه بما ترى.

وجاء في رواية يأسر الخادم أنه لما دخل على الإمام الرضا قال له: ويحك يا زيد ما الذي غرك حتى أرقت الدماء وقطعت السبيل، أغرك حديث سمعته عن رسول الله ﷺ أن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار؟ ثم زاد فقال:

إن ذلك ليس لي ولا لك، لقد عنى رسول الله ﷺ حسناً وحسيناً، والله ما نال ذلك إلا بطاعة الله، فإن كنت ترى أنك تعصي الله وتدخل الجنة فأنت إذن أكرم على الله منهما ومن أبيك موسى بن جعفر. والله يا زيد لا ينال أحد ما عند

الله إلا بطاعته، فقال له زيد: أنا أخوك وابن أبيك، فقال له الإمام الرضا عليه السلام: أنت أخي ما أطعت الله عز وجل، إن نوحاً قال: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أرحم الراحمين، فقال له الله عز وجل: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ لَكَ بِهِ عِلْماً إِنِّي أَنْتَ عَظِيمٌ﴾ (١).

فأخرجه الله من أن يكون من أهله بمعصية الله .

وجاء في رواية عن محمد بن يزيد النحوي عن أبيه أنه قال: إن المأمون وهب جرم زيد بن موسى إلى أخيه الرضا عليه السلام وقال له: يا أبا الحسن لئن خرج أخوك وفعل ما فعل فلقد خرج قبله زيد بن علي وقتل، ولولا مكانك مني لقتلته فليس ما أتاه بصغير، فقال الإمام الرضا عليه السلام: يا أمير المؤمنين لا تقس أخي زيداً إلى زيد بن علي بن الحسين فإنه من علماء آل محمد عليهم السلام غضب الله عز وجل فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول: رحم الله عمي زيداً أنه دعا إلى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفي بما دعا إليه، ولقد استشارني في خروجه فقلت له: يا عم إن رضيت أن تكون المقتول بالكناسة فشأنك فلما ولي قال جعفر بن محمد: ويل لمن سمع داعيته فلم يجبه، فقال له المأمون: يا أبا الحسن أليس قد جاء بمن ادعى الإمامة بغير حقها ما جاء، فقال الإمام الرضا إن زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق، وأنه كان أتقى الله من ذلك إنه قال: أدعوكم إلى الرضا وكان زيد ممن خوطب بهذه الآية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَعِصُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٢).

(١) سورة هود: الآيتان، ٤٥ - ٤٦.

(٢) سورة الحج: الآية، ٧٨.

العلم عند أهل البيت عليه السلام

إذا كان الدين مصدر هداية فيجب أن يكون مصدر معرفة:

كانت الحياة الفكرية عند العرب قبل الإسلام متجهة نحو الشعر واللغة والقصص والأمثال، ومعرفة الأنساب والأيام، وبعد الإسلام اتجهت إلى كل ما تعرض له الإسلام، وأصبح مظهر الحياة الفكرية عند المسلمين دينياً.

لكن الإسلام لم يتعرض للعبادات والعقائد والأخلاق فحسب، بل تناول أيضاً الحياة الإنسانية من كل جوانبها في تنظيم الدولة والتشريع والقضاء، وعلاقة الناس بعضهم مع بعض. هذا التنظيم الجديد وهذه الحياة المنظمة نتج عنهما إن آمن المسلمون بمبدأ عام، ألا وهو أن الدين هو مصدر التشريع، وقد حدا بهم هذا الإيمان فاتخذوا من الدين أساساً لحياتهم الفكرية بثتى فروعها، فبحثوا عن إرادة الله، والقضاء والقدر، وتكوين الطبيعة؛ وكانوا في كل ذلك يقصدون الرسول الأكرم في كل مسألة تعرض لهم، سواء أكانت دينية أم دنيوية، لأن الدين، كما هو معروف لما كان مصدر الهداية لهم فيجب أن يكون مصدر المعرفة أيضاً بكل جوانبها.

وقد رافقتهم هذه الظاهرة في جميع أدوار حياتهم، وازدادت وتطورت بعد أن اتصلوا بالفلسفة اليونانية، والحضارة البيزنطية والفارسية فتم بذلك تلقيح الحضارة العربية بحضارة الأمم الأخرى، فحولوا الفلسفة وقربوها من الدين، وأوضح مثال على ذلك: علم الكلام والتوحيد فإنه فلسفي في صورته ديني في مادته.

وليس من هدفنا الآن أن نترجم لكل إمام من أئمة أهل البيت عليه السلام ونبين منزلته من العلوم في جميع الحقول الدينية والاجتماعية والعلمية والقانونية والأخلاقية والفلسفية...، وإنما غرضنا أن نوجه صورة لعلومهم على وجه العموم. وخير مثال على ذلك علم النبي محمد ﷺ، وعلم الإمام علي عليه السلام

الذي أخذه عن الرسول ﷺ مباشرة وعلمه للسبطين الكريمين الحسن والحسين عليهما السلام وعنهما أخذ الإمام علي زين العابدين وعنه أخذ ابنه الإمام محمد الباقر عليه السلام الذي لقب بالباقر لأنه بقر العلم بقرأ، وعنه أخذ ابنه الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي وضع المذهب الجعفري العظيم. وعنه أخذ ابنه الإمام موسى الكاظم عليه السلام وعنه أخذ ابنه الإمام علي الرضا عليه السلام الذي نحن بصدد الكتابة عنه وهكذا كان نقل العلوم النبوية إلى الأئمة الاثني عشر المعصومين عليهم السلام.

من هذه العلوم نذكر علم الطب الذي كان ولم يزل مرجعاً أساسياً لكل الأطباء ماضياً وحاضراً. ولا بد من ذكر نبذة سريعة عن علم الطب الذي كان سائداً عند العرب في الجاهلية وكيف تطور على يد المسلمين المبدعين.

علم الطب قبل الإسلام:

عاش الإنسان صنوفاً مرهقة من الأمراض في العصور الجاهلية، ولم يكن علم الطب منتشرأ في تلك العصور المظلمة. فكان الشخص إذا أصيب بمرض حمله أهله ووضعوه في الطريق العام فإذا اجتاز بهم أحد سأله: هل ابتلي أحد عندكم بمثل ما ابتلي به ولدنا؟ فإذا قال: نعم، سأله عن كيفية علاجه حتى شفى، فيصفه لهم فيعالجونه به.

أما عن الطرق التي كانوا يعالجون بها مرضاهم فنذكر بعضها:

التميمة^(١): وهي خرزة كانوا يصفونها لمرضاهم، فيضعونها على صدورهم كالقلادة، معتقدين أن المريض يشفى بها. وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع^(٢)

أما أسباب المرض فيعزى أكثرها إلى أوهام كانت عندهم منها:

خروج المريض في الليل البهيم، وقد داس برجله دون أن يدري، إحدى الجن، فأصابته بهذا المرض انتقاماً منه، وثأراً لكرامتها.

(١) أدب العرب في عصر الجاهلية للمؤلف.

(٢) أبو ذؤيب الهذلي: المصدر نفسه.

كما يقولون أيضاً بسقاية المريض ببعض الخرز السامة من قبل أعدائه، الأمر الذي يوجب انهيار صحة المريض. ولا تزال مثل هذه الترهات موجودة عند بعض سكنة الأرياف السذج.

ولما انبثق نور الإسلام على العالم، ودمر معالم الجاهلية وخرافاتهما، دعا بصورة إيجابية وشاملة إلى طلب العلم، وجعل طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة. والله سبحانه وتعالى ميز العلماء الذين يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

والعلماء الأتقياء هم الذين يخشون الله. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(٢) والنبي الكريم جعل العلماء ورثة الأنبياء. وقد حث الإسلام على العلم لأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتطور الحياة العامة وتنمو الحضارة في ظلام الجهل.

ومن بين العلوم التي حث على طلبها علم الطب، فقد أكد الرسول الأعظم عليه السلام، على دارسته واتقانه وإشاعته روى أنه عليه السلام اجتاز على جماعة في مسجده، وأمامهم شخص يحدثهم وهم يصغون إليه، فسألهم عنه فقالوا له:

«يا رسول الله إنه علامة؟» فأجابهم عليه السلام: بأي شيء عالم؟.

أجابوا: «إنه عالم بأنساب العرب...».

فأنكر عليهم عليه السلام وقال كلمته الخالدة: «إن هذا علم لا يضر من جهله، ولا ينفع من علمه، إنما العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان».

إن معرفة الأنساب لا توجب تطور الفكر، ولا تعمل على تطور الحياة وقد حرم الإسلام كل علم لا ينفع مثل علم السحر وعلم الشعوذة، لأنهما من وسائل إضاعة الوقت وتدمير الفكر الإنساني وإشاعة الضلال بين الناس، الأمر الذي يتعارض مع ما ينشده الإسلام من تنمية الفكر ونشر المعرفة، والقضاء على جميع أسباب التخلف في المجتمع، إن على صعيد الفرد، أم على صعيد الجماعة.

(١) سورة الزمر: الآية، ٩.

(٢) سورة فاطر: الآية، ٢٨.

اهتمام الإسلام بالصحة العامة:

اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً في شؤون الصحة العامة ووضع منهجاً خاصاً ودقيقاً للوقاية من الأمراض عملاً بالحكمة المأثورة: «درهم وقاية خير من قنطار علاج». ومما وضعه:

أولاً - التوازن في الطعام والشراب وعدم الإسراف:

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١).

فإذا ما سألنا أطباء اليوم عن مغزى هذه الآية الكريمة لصادقوا عليها واعتبروها قاعدة أساسية للصحة العامة على امتداد التاريخ، لأن الإسراف في تناول الطعام يجلب للإنسان أخطر الأمراض ومن بين ما يمتنى به:

١ - تصلب شرايين القلب.

٢ - الإصابة بداء السكر.

٣ - وارتفاع ضغط الدم إلى غير ذلك من الأمراض، ولم يقتصر التوازن الذي دعا إليه الإسلام على الطعام والشراب، وإنما شمل جميع الأمور الحياتية. حتى الأمور النفسية، فقد نهى عن الإفراط في الفرح والسرور أو الغضب والغيظ.

وقد أعلن بعض الأطباء المعروفين أن الإسراف في الطعام والشراب يعرض الإنسان إلى الإصابة بشتى الأمراض، لذلك دعا الإسلام إلى استراحة في الجهاز الهضمي ففرض الصوم في شهر رمضان المبارك وتكون هذه استراحة للمعدة من الهضم المتواصل. وقد ذكر الأطباء منافع كثيرة وهائلة للصوم فألفت كتب عديدة في هذا الموضوع.

ثانياً - النظافة:

دعا الإسلام إلى النظافة، وجعلها جزءاً من الإيمان، وقد شاع قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «النظافة من الإيمان» وهذا أمر هام جداً حيث قرنها صلى الله عليه وآله بالإيمان فالمؤمن نظيف وكلما بعد عن النظافة بعد عن الإيمان.

(١) سورة الأعراف: الآية، ٣١.

وتشتمل النظافة في الإسلام على ما يلي :

- ١ - **نظافة الجسد** : غسل البدن بأسره عند عروض الجنابة، لكل من الرجل والمرأة وفرض الإسلام الوضوء عند الصلوات اليومية : من المضمضة إلى الاستنشاق وغسل الوجه واليدين وإزالة كل ما على الجسم من جراثيم وأوساخ .
- ٢ - **نظافة اللباس** : إن طهارة اللباس للمؤمن واجبة وجوباً لازماً لأجل الصلاة اليومية ومن الطبيعي أن طهارة اللباس ونظافته لها تأثير مباشر على صحة الإنسان ووقايته من الإصابة ببعض الأمراض .
- ٣ - **تنظيف الأسنان** : دعا الإسلام إلى تنظيف الأسنان، فأمر بالسواك، وحث عليه وخصه بأن يكون من شجر الأراك، وقد أثبتت البحوث الطبية الحديثة أنه معقم للأسنان وأنه أفضل بكثير من المعجون الذي تستعمل اليوم لتنظيف الأسنان .
- ٤ - **نظافة المسكن** : ندب الإسلام إلى نظافة المسكن، وإزالة ما فيه من القمامة وغيرها من الأوساخ، ومن المؤكد أن له أثراً فعالاً في وقاية الإنسان من الأمراض .

ثالثاً - غرس الأشجار:

اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بغرس الأشجار وحث على غرسها وسقيها ورعايتها وذلك لما للأشجار من أثر فعال في تنقية الهواء؛ الذي هو من أهم الأسباب في سلامة الإنسان من الإصابة ببعض الأمراض .

بالإضافة إلى منافع الأشجار الصحية والاقتصادية الهامة .

هذه بعض الأسباب التي عالج بها الإسلام شؤون الصحة العامة، ومن المؤكد أنها لو طبقتها الناس اليوم لأصبح الطب عندهم وقائياً .

وللائمة الطاهرين عليهم السلام دور فعال في نشر الطب وتعلمه واتفقانه والإمام الصادق عليه السلام الملهم الأول لقضايا الفكر والعلم، في دنيا الإسلام . قد اعتنى بعلم الطب عناية خاصة حيث عين وقتاً خاصاً في جامعته الكبرى التي ضمت أربعة آلاف طالب لإلقاء المحاضرات في علم الطب، وكان يحضرها كبار أطبار

عصره، وتعتبر مدرسة الإمام الصادق في الطب أول مدرسة أسست في الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

وكان له حوار مع الطبيب النصراني ففصل الهيكل العظمي والأعصاب وشرحها شرحاً وافياً ودقيقاً، كما له في كتابه «توحيد المفضل» فوائد الأدوية والعقاقير. ولنستمع إلى قوله في تفصيل وشرح الهيكل العظمي: قال عليه السلام:

«إن الله خلق الإنسان على اثني عشر وصلاً، وعلى مائتي وستة وأربعين عظماً، وعلى ثلاثمائة وستين عرقاً، فالعروق هي التي تسقي الجسد كله والعظام تمسكها، والشحم يمسك العظام، والعصب يمسك اللحم، وجعل في يديه اثنتين وثمانين عظماً، في كل يد واحد وأربعون عظماً، منها في كفه خمسة وثلاثون عظماً، وفي ساعده اثنان وفي عضده واحد، وفي كتفه ثلاثة، وكذلك في الأخرى».

«وفي رجله ثلاثة وأربعون عظماً، وفي ساقه اثنان، وفي ركبته ثلاث وفي فخذه واحد، وفي وركه اثنان، وكذلك في الأخرى».

«وفي صلبه ثمانية عشر فقرة، وفي كل واحد من جنبه تسعة أضلاع وفي عنقه ثمانية، وفي رأسه ستة وثلاثون عظماً، وفي فيه ثمانية وعشرون واثنان وثلاثون...»^(١).

فإذا أمعنا النظر في هذا التفصيل الدقيق للهيكل العظمي عرفنا أن ذلك لا يمكن إلا لمن أتاحت له فرصة دراسة الطب والتشريح.

ومن نظرياته عليه السلام الكبيرة الأهمية، نظرية تدور حول عمر الإنسان، فقال أن عمر الإنسان يتوقف بعد مشيئة الله على أمرين هما:

العناية بالصحة والاعتدال في الطعام. وقد أيدت البحوث الطبية ذلك لكن الإنسان يتسبب تقصير عمره بنفسه، فلو اتقى ربه، وأدى الفرائض وكف عن المحرمات، ولم يسرف في المأكل والمشرب لاستمتع بحياة أطول^(٢).

(١) المناقب ج ٤ ص ٢٢٥ - ٢٥٦.

(٢) راجع دائرة المعارف للقرن العشرين ج ١ ص ٦٩٩.

وقد تخرج من مدرسة الإمام الصادق عليه السلام في مجال الطب والصيدلة: جابر بن حيان، مفخرة الشرق، والرائد الأعلى لعلم الكيمياء، وقد ألف في علم الطب رسائل عديدة منها:

١ - رسالة في الطب.

٢ - كتاب في السموم.

٣ - كتاب النبض.

٤ - كتاب التشريح^(١).

والجدير بالذكر أن جابر بن حيان قد اعترف في جميع كتبه، أنها لم تكن من بنات أفكاره، وإنما تلقاها من أستاذه الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

والإمام الرضا أخذ كل هذه العلوم من جده وكان علماً من أعلام الطب، متمرساً في جميع فروعها، وقد تتلمذ عنده الطبيب المعروف «أبو علي الحسن بن فضل» وهو من مشاهير علماء الطب، ومن مؤلفاته «كتاب الطب»^(٢).

ويستدل على مهارة الإمام الرضا عليه السلام في هذا العلم رسالته الذهبية المشهورة في علم الطب، وسوف نأتي على ذكرها انشاء الله.

ولم تقتصر علوم الرضا عليه السلام ومعارفه، على علم الطب، وإنما شملت جميع العلوم العقلية والنقلية، والتي منها علوم الشريعة الإسلامية فقد كان المرجع الوحيد الذي تؤخذ منه أحكام الدين في عصره، وقد تعبد فقهاء الإمامية بما أثر عنه من أحكام الشريعة، وجعلوها من السنة ومن المصادر الرئيسية عندهم في الفتيا.

بالإضافة إلى ذلك كان كغيره من الأئمة المعصومين المتصدي في زمانه لحماية الإسلام، وصيانته من الملحدين والعابثين والمنحرفين. وقد أجاب على جميع أسئلة الفلاسفة والمتكلمين وكبار علماء المذاهب والأديان ما يزيد على عشرين ألف مسألة معظمها من المسائل الغامضة والمعقدة المتعلقة بأصول الدين

(١) الفهرست لابن النديم: ص ٣١٢.

(٢) المصدر نفسه.

فأبهر عقولهم ودان عدد كبير منهم بإمامته ومواهبه وسعة معارفه عليه السلام.

ومن الجدير بالذكر: أن أولئك العلماء قد جلبهم المأمون من جميع أنحاء العالم، وعقد معهم اجتماعاً سرياً، فوعدهم بالثراء العريض إن امتحنوا الإمام، وعجز عن إجابة بعض مسائلهم. وغايته من ذلك الطعن بشخصية الإمام عليه السلام أولاً والطعن أيضاً بمعتقدات الشيعة ومواهبهم المختلفة التي طبق شذاها جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي. لكن جميع محاولاته باءت بالفشل وبرز الإمام الرضا أمام العلماء وأمام الرأي العام أنه أعظم الشخصيات العلمية، والرائد الأعلى للحركة العلمية والحضارية في العالم الإسلامي.

والآن سوف نقف عند مؤلفه العلمي العظيم: الرسالة الذهبية في الطب التي تعتبر من أعظم الوسائل في تقدم الصحة العالمية، والقاعدة الأساس للطب الوقائي في هذه العصور.



الرسالة الذهبية في الطب

سبب تأليفها:

تحدث المؤرخون والأدباء عن تميز بلاط المأمون عن بقية ملوك عصره من بني العباس، فقد كان في معظم الأوقات ندوة من ندوات العلم والأدب ومجمعاً لرواد الشعر والأدب والحكمة والعلم، وخصوصاً في عهد الإمام الرضا عليه السلام رائد النهضة الفكرية والعلمية في عصره. لقد تحول البلاط العباسي إلى مسرح للبحوث العلمية والأدبية والفلسفية والدينية. ومن بين البحوث التي حظيت باهتمام المأمون هو ما يتضمنه بدن الإنسان من الخلايا العجبية والأجهزة الغريبة، وبديع تركيب أعضاء الإنسان التي تجلت فيها حكمة الخالق العظيم، وروعة قدرته، وجمال صنعته، فبحثوا فيما يصلح بدن الإنسان ويفسده من الأطعمة والمشروبات وقد ضمت الندوة كبار العلماء، والقادة، والأطباء وكان في طليعتهم.

١ - الإمام الرضا عليه السلام الإمام الثامن من الأئمة المعصومين.

٢ - المأمون^(١).

٣ - يوحنا بن ماسوية^(٢).

(١) هو عبد الله بن هارون الرشيد (١٧٠هـ - ٢١٨هـ) كان من الطراز الأول في الدهاء والسياسة، وعصره حافل بالفتن والأحداث السياسية، من أهمها ما وقع بينه وبين أخيه الأمين من المعارك فقتل الأمين وتخربت بغداد العريقة، مدينة السلام، وزينة الشرق في عصرها.

(٢) من أشهر علماء الطب في عصره سرياني الأصل، عربي النشأة، كان أبوه صيدلانياً في (جند نيسابور) ثم صار من أطباء العيون، خدم هارون الرشيد ونشأ ابنه يوحنا، وقد عهد إليه هارون بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة في (أنقرة) (وعمورية) وغيرهما من بلاد الروم، وجعله أميناً على الترجمة. وقد خدم الرشيد والمأمون واستمر في البلاط العباسي إلى أيام المتوكل فكانوا لا يتناولون شيئاً من الأكل إلا بحضورته، وكان يقف على رؤوسهم.

٤ - جبرائيل بن بختيشوع^(١).

وقد أصاب شهرة واسعة، وثروة طائلة، وكان مجلسه ببغداد عامراً بجميع الأطباء والأدباء والفلاسفة. له نحو من أربعين كتاباً منها (البرهان) يقع في ثلاثين جزءاً، ومنها (خواص الأغذية والبقول). ومنها أيضاً (معرفة العين وطبقاتها) إلى غير ذلك من المؤلفات العلمية الهامة^(٢).

خاض هؤلاء القوم في البحوث الطبية، ولم يشترك معهم الإمام الرضا في الحديث، فانبرى إليه المأمون قائلاً:

«ما تقول يا أبا الحسن في هذا الأمر الذي نحن فيه اليوم، والذي لا بد منه من معرفة هذه الأشياء، والأغذية، النافع منها والضار وتدبير الجسد؟».

طلب المأمون من الإمام عليه السلام أن يخوض مع هؤلاء العلماء في الحديث ويفتح لهم آفاقاً من العلم فيما يتعلق بأجهزة بدن الإنسان، ويرشدهم إلى النافع من الأغذية والضار، وما يصلح بدن الإنسان. فأجابه الإمام عليه السلام «عندي ما جربته، وعرفت صحته بالاختبار، ومرور الأيام، مع ما وافقني عليه من مضي من السلف، مما لا يسع الإنسان جهله، ولا يعذر في تركه فأنا أجمع ذلك مع ما يقاربه مما يحتاج إلى معرفته...».

لقد وعد الإمام المأمون بأن يقدم له ما يحتاجه، ويعم نفعه، وتشمل فائدته لكل من عمل به، فزوده (بالرسالة الذهبية) الحافلة بالوصفات الصحية التي

(١) الأعلام: ج ٩ ص ٢٧٩ وأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٤٨ - ٢٥٦ وطبقات الأطباء ج ١ ص ١٧٥ - ١٨٣ والفهرست لابن النديم ص ٢٩٥ ودائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٧١.

(٢) كان طبيب الرشيد له مكانة عالية عنده، قال الرشيد لأصحابه: من كانت له حاجة إلي، فليخاطب بها جبرائيل فإني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني وكان القواد يطلبونه في كل أمورهم. ولما توفي الرشيد خدم الأمين، ولما ولي المأمون سجنه، ثم أطلقه وأعادته إلى مكانته عند أبيه الرشيد، ولم يزل إلى أن توفي ودفن في (دير مار جرجس) بالمداين. من تأليفه: (المدخل إلى صناعة المنطق) وكتابه في (صناعة البخور) ورسالة في (المطعم والمشرب) ترجم له الأعلام ج ٢ ص ١٠٠ وطبقات الأطباء ج ١ ص ١٢٧ - ١٣٨.

استفادها من تجاربه الخاصة، ومن تجارب آبائه الذين هم سلالة علم النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وورثه حكمه.

دراسة المأمون للرسالة:

درس المأمون الرسالة بامعان عدة مرات، وإنه حسب ما يقول: كلما جدد قراءتها، ظهرت له بدائعها وعظيم حكمتها، فهي من دخائر الكتب، ومن مناجم الثروات العلمية، لأنها حوت: أصول الصحة العامة، وقواعد الطب في وقت كان الطب في أول مراحلها، بل فتحت أفقاً مشرقة لهذا العلم. وبعد أن عرضها المأمون على أعلام الطب في عصره، سألهم، فوجد كل واحد منهم قد أطراها، وأثنى عليها، ثم اعترفوا جميعهم بفضل الإمام عليه السلام وتمرسه في هذا العلم، وأنها سدت فراغاً في علم الطب.

إعجاب المأمون بالرسالة الذهبية:

أعجب المأمون بالرسالة الذهبية، وأمر أن تكتب بماء الذهب وتوزع على أولاده وأفراد أسرته، وجهاز دولته، كما أمر أن تودع نسخة منها في بيت الحكمة. وأثنى عليها برسالة طويلة جاء فيها قال بعد البسملة: «الحمد لله أهل الحمد ووليه، وله آخره وبدؤه، ذو النعم والافضال والإحسان، والإجمال، أحمده على نعمه الظاهرة وفواضله المتكاثرة وصلى الله على سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد الله خاتم النبيين.

أما بعد:

فإني نظرت في رسالة ابن عمي العلوي، الأديب، والفاضل الحبيب، والمنطقي الطيب في إصلاح الأجسام، وتدبير الحمام، وتعديل الطعام، فرأيتها في أحسن التمام ودرستها متدبراً، ورددت نظري فيها متفكراً، فكلما أعدت قراءتها والنظر فيها، ظهرت لي حكمتها، ولاحت لي فائدتها، وتمكنت من قلبي منفعتها، فوعيتها حفظاً، وتدبرتها فهماً إذ وجدتها من أعظم الذخائر...

فأمرت أن تكتب بماء الذهب لنفاستها وحسن موقعها وعظم نفعها وسميتها «المذهبة» وخزنتها في خزانة الحكمة، وذلك بعد أن نسخها آل هاشم

فتيان الدولة، لأن بتدبير الأغذية تصلح الأبدان، وبصحة الأبدان تدفع الأمراض، وبدفع الأمراض تكون الحياة، وبالحياة تنال الحكمة، وبالحكمة تنال الجنة.

ولأنها خرجت من بيوت الدين يوردون حكم الرسول المصطفى، وبلاغات الأنبياء، ودلائل الأوصياء، وآداب العلماء، وشفاء للصدور والمرضى من أهل الجهل والعمى، رضوان الله عليهم ورحمته وبركاته، على أولهم وآخرهم وصغيرهم وكبيرهم.

وكانت أهلاً للصيانة والادخار، وموضِعاً للتأهيل والاعتبار وحكيماً يعول عليه، ومشيراً يرجع إليه، ومن معادن العلم أمراً وناهيّاً ينقاد له.

فعرضتها على خاصتي وصفوتي من أهل الحكمة والطب، وأصحاب التأليف والكتب المعدودين في أهل الدراية، والمذكورين بالحكمة وكلُّ مدحها وأعلاها، ورفع قدرها وأطراها، إنصافاً لمصنفها، وإذعاناً لمؤلفها وتصديقاً له في ما حكاها».

فتأمل معي هذا الاعجاب البالغ برسالة الإمام عليه السلام من قبل المأمون، وهذا الثناء الواضح لذلك أصفى عليها وسام الذهبية وأوعز باستنساخها وتوزيعها على شباب أسرته، وجهاز دولته، وايداع نسخة منها في مكتبة الحكمة، وكان من محتويات هذه الرسالة الذهبية العظيمة التي أعجب بها المأمون ما يلي:

أ - وضعت برنامجاً مفيداً للصحة العامة يستفاد منها في إصلاح الأجسام ووقايتها من الاصابة بالأمراض.

ب - العناية بنظافة البدن، وبث النشاط فيه، فقد ذكرت الرسالة عرضاً مفصلاً لشؤونه.

ج - الاعتدال في الطعام والشراب، وهذا يعد الأساس لصحة الإنسان ومن أهم العناصر الذي تبنتني عليه الصحة العامة، وقد تعرضت الرسالة لتفصيل ذلك بصورة موضوعية، وشاملة...

وبعد هذا العرض لأهمية الرسالة الذهبية أصبحنا متشوقين للاطلاع على بنودها ومحتوياتها.

محتويات الرسالة الذهبية

ألقت هذه الرسالة الخالدة الأضواء على جسم الإنسان، وبينت ما يصلحه من الأغذية، وما يفسده منها وهذه أهم بنودها:

قال الإمام عليه السلام مخاطباً المأمون، بعد البسملة:

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى لم يبتل عبده المؤمن ببلاء - المرض - حتى جعل له دواء يعالج به، ولكل صنف من الداء صنف من الدواء وتدبير ونعت...» ثم تابع سليل النبوة الطاهرة عليه السلام مشبهاً الأجسام الإنسانية بالملك...

«إن الأجسام الإنسانية جعلت في مثال الملك:

فملك الجسد هو القلب. والعمال: العروق، والأوصال، والدماغ.

وبيت الملك: قلبه. وأرضه الجسد. والأعوان: يده، ورجلاه، وعينه، وشفته، ولسانه وأذناه. وخزائنه: معدته، وبطنه.

وحجابه: صدره، فاليدان يقربان ويبعدان ويعملان على ما يوحي إليهما الملك. والرجلان: ينقلان الملك حيث يشاء. والعينان: يدلان على ما يغيب عنه، لأن الملك وراء الحجاب لا يوصل إليه إلا بهما وهم سراجاه.

أيضاً وحسن الجسد وحرزه. والأذنان لا يدخلان على الملك إلا ما يوافقهما لأنهما لا يقدران أن يدخلتا شيئاً حتى يوحي الملك إليهما، فإذا أوحى إليهما أطرق الملك منصتاً لهما حتى يسمع منهما، ثم يجيب بما يريد فيترجم عنه اللسان بأدوات كثيرة منها ريح الفؤاد، وبخار المعدة، ومعونة الشفتين، وليس للشفتين قوة إلا بالأسنان، وليس يستغني بعضهما عن بعض...».

في هذا المقطع عرض الإمام الحكيم إلى ما يحوي بدن الإنسان من الأجهزة العجيبة التي تجلت في إبداعها قدرة الله الهائلة، وتنظيمه المحكم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(١).

(١) سورة الانفطار: الآيات، ٦ - ٧ - ٨.

هذا الجسد الذي حوى من الأجهزة العديدة والخلايا المختلفة ما يعجز عنه الوصف وصفه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رائد الحكمة والبيان فقال:
 أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
 ونعود إلى كلام الإمام الرضا عليه السلام حيث شبه بدن الإنسان بالدولة التي يتكون جهازها من الرئيس والجند والأعوان، والأرض التي يكون حاكماً عليها وقد ذكر من أعضاء البدن وأجهزته الرئيسية:

١ - القلب:

ملك الجسم وسلطانه، يدفع الدم إلى نواحي الجسم جميعها حاملاً معه مواد الغذاء (الأوكسجين) ليوزعها في كل أنحاء الجسم، ثم يأخذ معه الفضلات لتخليص الجسم منها.

فالقلب يدفع الدم إلى الرئتين، المصفاة الأساسية، فيأخذ كفايته من (O) (الأوكسجين) من الهواء الذي يتنفسه الإنسان، وفي الرئتين يتخلص الدم من بعض الفضلات التي جمعها من نواحي الجسم على شكل غاز يعرف بـ (غاز ثاني أوكسيد لكاربون) (C2O)، والقلب يدفع الدم إلى الكليتين أيضاً، أما عن دقات القلب: فهي سر من أسرار الخلق والابداع.

ينبض القلب بمعدل (٧٠) ضربة في الدقيقة الواحدة حيث يصل إلى ١٤٠٠٠٠ يوماً و ٢٤٠ مليون مرة سنوياً وما يزيد عن (٢٠٠٠) مليون مرة في متوسط العمر.

إن القلب مصدر الحياة لجميع الكائنات الحية، فهو ملك الجسم وجميع أعضاء الإنسان جنوده وأعوانه، فإذا سكت عن الحركة هلك الكائن الحي، وهلك جميع جنوده وأعوانه الكائنة في جسمه.

وأما عن الحرارة في الجسم:

فهنالك ما يشبه ميزان الحرارة داخل الجسم، فإذا جاءت الأخبار الحسية من الجلد تخبر عن الوسط الخارجي، ودرجة حرارته، فتسارع هذه المناطق الكائنة في الجذع الدماغى، وما فوقه، إلى جهاز الدوران تستحثه على أن حمى الحدود

الخارجية، وتأمره أن يقوم بدور العامل المخلص في هذه الأزمة، ويستجيب جهاز الدوران المرن، وسرعان ما تحدث تقلصات العروق الدموية، ويضخ القلب الدم بما يفي حاجة الجلد، فإذا كان بارداً أقل تدفق الدم الذي يحمل الحرارة ليعدل البرودة، والعكس بالعكس.

حاسة السمع:

في علم الأصوات نرى بعضها يصدر من أقصى الحلق، وبعضها يصدر من أقصى اللسان أو من وسطه أو من طرفه، وبعضها يخرج من خلال الأنف، وبعضها يمر من الشفتين؛ منفرجتين أو منطبقتين أو مستديرتين: والصوت الإنساني يختلف في النطق بين الحدة والعمق وبين الشدة والرخاوة والخفوت، وبذلك تختلف الحروف من حيث مخارجها بين الهمس والجهد والشدة والميوعة والفحيح والصغير والأزير والغرغرة. . وهذا كله له وقعه على الأذن.

والأذن من الأجهزة العجيبة في جسم الإنسان وقد حوت ما يلي:

أ - الأذن الخارجية: وهي صيوان الأذن الخارجي مع الممر الذي يوصل إلى غشاء الطبل.

ب - الأذن الوسطى: وفيها ثلاث عظام تشبه أدوات الحداد: (المطرقة والسندان) وركابة السرج، وعضلتان (المطرقة والركابة)، ويوجد نفق يوصل ما بين الأذن الوسطى والبلعوم.

ج - الأذن الداخلية: وتحتوي على ما يشبه الحلزون، وثلاث إطارات، وهذه الأقسام متصلة بعضها ببعض، ومتداخلة، في داخل الأذنية، أفنية غشائية تشبه الكيس، وداخل الحلزون الذي يدور دورتين ونصف يوجد عضو كورتني. والأذن الداخلية هي التي تستقبل الأصوات، وأما الأذن الوسطى والخارجية فهما اللتان تنقلان الصوت.

أما انتقال الصوت فهو نتيجة اهتزاز جزئيات المادة، ولهذا فإن الصوت لا ينتقل ما لم يكن هناك وسط مادي:

«هواء سائل، غازات، أجسام صلبة».

وهنا بحوث مهمة تكشف عن عظمة الخالق الحكيم وبديع صنعه، عرضت لها كتب الطب.

ومما يلاحظ وجود خلايا على الغشاء في الأذن الداخلية تسمى بالخلايا السمعية التي تنتهي بشعيرات دقيقة تتأثر بالاهتزاز، إذ تحول الطاقة الميكانيكية للصوت إلى طاقة كيميائية يتم تحويلها بصورة معقدة عجيبة.

هذه الخلايا التي أحببت أن تقوم بهذا العمل الجبار، طوعاً منها ورغبة تساهم مساهمة فعالة في عملية السمع.

ويحيط هذه الخلايا ما يسمى بالنهايات العصبية التي تشكل امتداداً لخلية عصبية تتلقى هذه بدورها الصوت مرموزاً إليه بإشارات كهربائية، ثم تحويلها من الطاقة الكيميائية.

وأغرب من هذا كله أن ذبذبات الاشارات الكهربائية تساوي ذبذبات الصوت التي التقطتها الأذن من البداية.

وما نلاحظ أخيراً أن هذه الإشارات الكهربائية تصل إلى خلايا خاصة في الدماغ تقوم بترجمتها وفق رموز خاصة تدل على مميزات الصوت المسموع، فسبحان الله عن سر هذا الجهاز الدقيق، كيف تعاونت سائر أجزائه بانسجام تام، وتألف تام، لتؤدي دورها الكامل في عملية السمع.

كل أعضاء الأذن تعاونت بمحبة واخلاص لتقوم بالمهمة الملقاة على عاتقها في هذه الحياة، فهل نتعلم نحن أعضاء المجتمع الواحد تقليد أعمال الطبيعة الأصيلة الناجحة؟!.

كل ما تقدم من هذا التكوين الإلهي يرشح بالمحبة، وبالمحبة التي أمر بها الإسلام تعمير وتبني عالياً صروح الحياة الإنسانية السعيدة. ومن المحبة، يحصل التعاون البناء بين المسلمين، ومن التعاون تولد القوة الفاعلة، ومن القوة الفاعلة يحصل التغيير المبارك والنجاح الأكيد.

حاسة البصر:

أداة البصر العين وهي من آيات الله العظمى، فبواسطتها يميز الإنسان بين الظلام والنور، ويتعرف على المحيط الخارجي فيرى الأشياء بأشكالها وألوانها. ولا يعرف قيمة هذه الحاسة الهامة سوى المحرومين منها. متعة النظر الذي ما بعده متعة.

والعين من أروع غرف التصوير الفنية، فهي غرفة مظلمة، مغلقة بثلاثة جدارات: من الظاهر إلى الباطن:

أ - الصلبة: وهي التي تعطي اللون الأبيض.

ب - المشيمية: وهي التي تروي العين بعروقها.

ج - الشبكية: وهي التي تحمل العناصر الحساسة، والمستقبلة للضوء، وهي المخاريط والعصييات.

وفي المقدمة توجد بلورة دقيقة هي القرنية، تدخل النور القادم إلى العين، ثم يجتاز النور بعد القرنية سائلاً شفافاً، كاسراً للنور هو الخلط المائي الذي يقع ما بين القرنية والقزحية.

د - القزحية: هي التي تعطي لونها المعهود، وتفتح في مركزها ثقباً واحداً خاصة لاستقبال النور كعدسة المصور، وهي الحدقة، وإذا دخل النور الحدقة واجه بلورة من نوع جديد، هي الجسم البلوري، وهي أعجب بلورة موجودة في الكون، لأنها تتمدد، وتقلص، بحيث تختلف وجوه تحد بها إلى درجة كبيرة، وبالتالي تتطابق العين مع المناظر التي تقع أمامها، فإذا كانت المسافة المرئية قريبة، تمددت وتقلصت بما يناسب الحالة والعكس بالعكس. فهي البلورة الحركية العاقلة، وبعد الجسم البلوري يدخل النور خلطاً جديداً شفافاً كاسراً للنور هو الخلط الزجاجي.

فإذا انتهى النور من عبوره، وصل إلى الشبكية حتى تستقبله العصييات والمخاريط، وتنقله بشكل سيالة عصبية إلى الفص القفوي.

ويضاف إلى عجائب صنع العين بدائع حمايتها ووقايتها، فقد جعل الله

تعالى العينين في منطقة خاصة من الوجه، منخفضة، يحيط بها ثلاث تلال مرتفعت وهي: الحاجبان والهرم الأنفي والبروز العظمي من الجبهة.

بالإضافة إلى ذلك فالعينان مغطتان بجفنين يفتحان ويغلقان بمنتهى السرعة، وقد جعل الله تعالى فيهما الشعر الأسود كما جعل ذلك في الحاجبين، وذلك من أجل تقليل كمية الضوء الذي يصل إلى العينين للحفاظ عليهما، كما منحهما سائلاً عمقاً لتطهيرهما وتعقيمهما... ف سبحان الخالق العظيم الكريم. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(١).

هذه بعض الأعضاء التي أشار إليها الإمام عليه السلام في الرسالة الذهبية الخالدة وقد عرض إلى خصوصياتها ووظائفها بصورة أوسع وأشمل، علم التشريح في عصرنا الحاضر.

وقد قمت بزيارة شخصية لبعض الأطباء المختصين وقرأت عليهم ما جاء في هذه الرسالة الذهبية كل واحد حسب اختصاصه فأعجبوا بهذا الوصف الدقيق والشامل وقالوا: لو لم تقل لنا أن هذا الكلام في القرن الثاني الهجري؛ لقلنا أنه من طبيب اخصائي في عصرنا الحاضر.

الدماغ:

هو من بديع صنع الله ومن أعظم مخلوقاته، وبه يتميز الإنسان على بقية الحيوانات التي تعيش بالغرائز لا غير. وهو القوة المهيمنة على جسم الإنسان والمسيطرة على جميع حركاته.

- ويتابع الإمام عليه السلام:

- العروق:

تعده العروق عصب الحياة وهي التي تسيطر على جسم الإنسان وتعمل عملها في الخوف والغضب والفرح وسائر الانفعالات النفسية، والتي منها العمل الجنسي.

(١) سورة الرعد: الآية، ٨.

وقسم من الأعصاب يسمى بـ(الأعصاب الإرادية) وهي التي تسيطر على طائفة معينة من العضلات في الجسم، والتي تسمى بالعضلات المخططة. وقد ألقت بحوث عديدة ومهمة في علم وظائف الأعضاء، وكلها تدل على عظمة الخالق العظيم الحكيم.

قال العلماء أن الدماغ لا يضاهيه في عظمته أي مخلوق آخر، فهو يحتوي على ملايين من التلافيف والأسلاك، ومخازن لا تمتلىء يحفظ فيها ما يودع من علوم وأفكار وصور وغير ذلك فسبحان الله الخالق المبدع. أما الحديث عن أجهزته العجيبة ودورها في حياة الإنسان وتسيير حركاته واتجاهاته، وحكمها المطلق في مسيرته، فإن ذلك يستدعي وضع كتاب خاص لها.

اليدان والرجلان:

من الأجهزة الهامة في بدن الإنسان: اليدان وذلك لما فيهما من تركيب بديع يساعد على القيام بما يحتاج إليه الإنسان من مأكّل ومشرب، وما يبدعان من أعمال ذات شأن في الكتابة والصياغة والفنون.

وأما الرجلان: فإنهما الآلة الضرورية لبلوغ الإنسان مآربه، وقضاء حوائجه ولولاها لما تمكن أن يصنع شيئاً. وإذا ما تأملنا في صنعهما بهذه الكيفية، وكذلك صنع اليدين والكفين والأصابع، فإن جميع ذلك قد تم بتدبير من الخالق العظيم المبدع لجميع ما في الوجود.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١).

وجميع ما تعمله اليدان كل ذلك بتوجيه من الدماغ وإيحاء منه.

أما عن النطق والتأثيرات الظاهرة والباطنة في الجسد:

قال عليه السلام: «والكلام لا يحسن إلا بترجيعة في الأنف، لأن الأنف يزين الكلام، كما يزين النفخ المزمار، وكذلك المنخران هما ثقبتا الأنف يدخلان على الملك - أي القلب - بما يحب من الريح الطيبة، فإذا جاءت ريح تسوء الملك،

(١) سورة التين: الآية، ٤.

أوحى إلى اليمين فحجبا بين الملك وتلك الريح .

وللملك على هذا ثواب، وعقاب، فعذابه أشد من عذاب الملوك الظاهرة، القاهرة في الدنيا، وثوابه أفضل من ثوابهم:

فأما عذابه: فالحزن. وأما ثوابه فالفرح.

وأصل الحزن في الطحال، وأصل الفرح في الكليتين. ومنهما يوصلان إلى الوجه، فمن هناك يظهر الفرح والحزن، فترى علامتهما في الوجه، وهذه العروق كلها طرق من طرق العمال إلى الملك. ومن الملك إلى العمال ومصدق ذلك أنه إذا تناولت الدواء، أدته العروق إلى موضع الداء باعانتها. . . .».

لقد عرض سليل النبوة الطاهرة عملية النطق العجيبة بذاتها، فالكلام يخرج منسجماً متوازناً يهدف إلى معنى يفيد السامع، وهو من الظواهر الكريمة التي من الله بها على الإنسان وميزه عن الحيوان.

قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١).

فما يريد الإنسان أن يؤديه من متطلبات وحاجات يتكون في الدماغ أو في الفؤاد، وهذا يوحي إلى اللسان بتأديته. فاللسان آلة تنفذ أوامر الدماغ أو الفؤاد. قال الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد، وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
ثم ذكر الإمام عليه السلام ثواب القلب وعقابه:

للقلب ثواب عظيم وعقاب أليم على الجسم، وكلاهما يظهران على سحنات الوجه. فالفرح يغطي الوجه بانبساطه، والحزن يغمره بانقباضه، والحزن يتكون في الطحال، وينبعث منه. والفرح يتكون في الكليتين فمن هذه الأعضاء تنبعث هذه الظواهر.

الجسد كالأرض الطيبة:

قال عليه السلام: «واعلم يا أمير المؤمنين، أن الجسد بمنزلة الأرض الطيبة، متى

(١) سورة الرحمن: الآيات، ١ - ٢ - ٣ - ٤.

تعودت بالعمارة والسقي، من حيث لا يزداد في الماء فتغرق، ولا ينقص منه فتعطش، دامت عمارتها، وكثر ريعها، وزكى زرعها، وإن تغوفل عنه فسدت، ولم ينبت فيها عشب، فالجسد بهذه المنزلة، وبالتدبير في الأغذية والأشربة يصلح، وتزكو العافية.

فانظر يا أمير المؤمنين ما يوافقك، ويوافق معدتك، ويقوى عليه بدنك ويستمره من الطعام، فقدره لنفسك، واجعله غذاءك.

واعلم يا أمير المؤمنين أن كل واحدة من هذه الطبائع تحب ما يشاكلها فاغذ ما يشاكل جسدك، ومن أخذ من الطعام زيادة لم تغذه، ومن أخذه بقدر لا زيادة عليه، ولا نقص في غذائه، نفعه.

وكذلك الماء فسيبيله أن تأخذ من الطعام كفايتك، في أيامه، وارفع يدك منه، وبك إليه بعض القرم^(١)، وعندك إليه ميل، فإنه أصلح لمعدتك ولبدنك، وأذكى لعقلك، وأخف لجسمك...».

لقد وضع الإمام عليه السلام منهجاً عاماً للصحة يستفيد منه كل فرد في كل العصور وأساسه: التوازن والاعتدال، وعدم الإسراف في الطعام والشراب وقد ذكر القرآن الكريم للأخذ بهذه القاعدة من أجل حفظ بدن الإنسان وسلامته من الإصابة بالأمراض. قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ﴾ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٢) إن الجهاز الهضمي عند الإنسان من أكثر الأجهزة حيوية واحساساً، وهو يتأثر بالإسراف في الأكل الذي تنجم عنه السمنة التي هي من أعظم الآفات المهلكة لبدن الإنسان.

فالعناية بالتغذية وخصوصاً في مقتبل العمر، لها تأثير كبير على الحالة الصحية في السنوات المتقدمة من عمر الإنسان، كما أنها تطيل في عهد الشباب، وهي من أحدث الوسائل في الوقاية الصحية، التي تمنع مما يصيب الإنسان من الأمراض المختلفة، نتيجة مباشرة من إسرافه في الطعام والشراب، وعدم توازنه

(١) القرم: الشهية للطعام.

(٢) سورة الأعراف: الآية، ٣١.

في حياته الجنسية وغيرها من شؤون حياته .

إن تشبيهه بدن الإنسان بالأرض الطيبة هو تشبيهه بديع من إمام حكيم، فالإنسان إذا اعتنى بأرضه، وأصلحها ورعاها فإنها تعطي وتثمر أطيب الثمرات، فالرعاية السليمة تعطي ثماراً سليمة .

وكذلك بدن الإنسان إذا اعتنى صاحبه به، ولم يفسده بكثرة الأكل والشرب، فإنه يصلح، ويتمتع الإنسان بصحة كاملة التي هي من أعلى وأثمن ما يتمناه في حياته .

وهذه العناية حسب تأكيد الإمام، هي ضرورة التوازن في تناول الطعام، فيرفع الأكل يده منه وعنده ميل إليه فإن ذلك أجدى له في حفظ صحته، ووقايته من الإصابة بالأمراض .

أما الإفراط في الأكل والشرب فله مضاعفاته السيئة، التي منها الإصابة بالسمنة وهي تسبب - على الأكثر - عدة أمراض :

أ - عجز القلب عن العمل .

ب - ارتفاع ضغط الدم .

ج - الإصابة بداء السكر .

إلى غير ذلك من الأمراض الناجمة عن الاسراف في تناول الطعام .

تنظيم الأكل:

قال عليه السلام : «واعلم يا أمير المؤمنين، كل البارد في الصيف، والحر في الشتاء والمعتدل في الفصولين، على قدر قوتك وشهوتك .

وابدأ بأول الطعام بأخف الأغذية التي يتغذى بها بدنك، بقدر عادتك وبحسب طاقتك ونشاطك، وزمانك الذي يجب أن يكون أكلك في كل يوم عندما يمضي من النهار ثماني ساعات، أكلة واحدة، أو ثلاث أكالات في يومين، تتغذى باكرأ في أول يوم، ثم تتعشى، فإذا كان اليوم الثاني فعند مضي ثماني ساعات من اليوم الثاني، أكلت أكلة واحدة، ولم تحتج إلى العشاء كذا أمر جدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلياً عليه السلام في كل يوم وجبة، وفي غده وجبتين، وليكن ذلك

بقدر لا يزيد ولا ينقص، وارفغ يدك من الطعام وأنت تشتهي، وليكن شرابك على أثر طعامك...».

نلاحظ في هذا المقطع اهتمام الإمام عليه السلام بتنظيم الأكل الذي تبنى عليه الصحة العامة ومن نصائحه في ذلك:

أ - تناول المواد الباردة في الصيف مثل الخضروات والفواكه، واجتناب الأطعمة الثقيلة فإنها تعود بالأمراض الجسيمة على بدن الإنسان وذلك لحرارة الطقس الذي لا يساعد على هضم الطعام.

وأما في الشتاء فيحسن تناول الأطعمة الثقيلة التي تحتوي على السمن والسكر فإن البدن يحتاج إليها، وبرودة الطقس تساعد على هضمها.

ب - أن يأكل الإنسان قدر طاقته في جميع فصول السنة، ولا يجهد نفسه فيحملها فوق طاقتها.

ج - أن يتناول أولاً أخف الأغذية، وأيسرها على جهازه الهضمي، ويلاحظ في الوقت نفسه سنه، فكلما تقدم به العمر ينبغي أن يكون طعامه خفيفاً قليل الملح وقليل الدهن، لأن كثرتهمما تؤدي إلى تصلب الشرايين خصوصاً بعد عمر الخمسين عاماً.

د - أن يقلل من وجبات الطعام، فيقتصر في اليومين على ثلاث وجبات من الطعام حسب رأي الإمام عليه السلام، ومن المؤكد أن تنظيم أكل الإنسان على هذه الصورة يؤدي إلى استقامة البدن ووقايته من الأمراض.

هـ - الاعتدال في تناول الطعام حيث أكد عليه السلام على ضرورة عدم الإسراف في تناول الطعام، فيقوم من المائدة، وهو يشتهي الطعام، فلا يكون شراً ويملاً معدته من الطعام.

ولا غرو فالإمام الرضا سليل النبوة؛ أخذ علم الطب عن جده الإمام الصادق عليه السلام حيث كانت مدرسته في الطب أول مدرسة تؤسس في الإسلام في شبه الجزيرة العربية، ولا يفوتنا أن القواعد العامة لعلم الطب كانت متشابهة في

أكثر المدارس، غير أننا نرى في مدرسة الإمام جعفر الصادق ما لا نراه في مدرسة قبلها، مما يدل على أنه هو المستنبط لهذه القواعد والواضع لهذه النظريات، ولا يخفى بأن بعض قواعد الطب قد وردت في أحاديث الرسول ﷺ التي جمع بعضها في كتب الطب النبوي المتداولة والمشهورة.

ولا ننسى باب مدينة علم الرسول، علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يعد كالبحر الزاخر بشتى العلوم والمعارف: الدينية والعلمية والفلسفية والأدبية... والإمام الرضا هو ابن هذه السليلة الطاهرة التي كان همها سعادة الناس كل الناس.



برامج الأغذية في فصول السنة

وضع الإمام عليه السلام في رسالته الذهبية، برنامجاً شاملاً لتناول الصالح من الأطعمة واجتناب الضار منها على مدار السنة، وقد ترافق هذا البرنامج بوصفات صحية هامة. وفي ذلك قال عليه السلام:

«ونذكر ما ينبغي ذكره، من تدبير فصول السنة، وشهورها الرومية الواقعة فيها، في كل فصل على حدة، وما يستعمل من الأطعمة والأشربة وما يجتنب منه، وكيفية حفظ الصحة من أقاويل القدماء...».

ثم بدأ بفصل الربيع: فسماه روح الزمان وأوله:

١ - آذار: عدة أيامه ثلاثون يوماً، وفيه يطيب الليل والنهار، وتلين الأرض ويذهب سلطان البلغم، ويهيج الدم، ويستعمل من الغذاء اللطيف واللحوم، وينفى فيه أكل البصل والثوم، والحامض، ويستعمل فيه شرب المسهل، والفصد والحجامة...».

لقد شبه الربيع بروح الزمان وهو تشبيه رائع وجميل، فالربيع هو من أزهى فصول السنة وأكثرها فائدة على الكائنات الحية.

أجل إنه روح الزمان، ففيه يطيب الليل والنهار، وتنعم الطبيعة بعدوبة الهواء، وتكون الأرض لينة وقابلة للعطاء والنماء.

لكن الإمام حذر في هذا الفصل من تناول البصل والثوم والحامض لأنها تسبب أضراراً للبدن، وسوف يكشفها الطب الحديث، كما ندب إلى شرب المسهل.

٢ - نيسان:

ثلاثون يوماً، يطول فيه النهار، ويقوى مزاج الفصل، ويتحرك الدم وتهب فيه الرياح الشرقية، ويستعمل فيه من المأكّل المشوية، وما يعمل بالخل، ولحوم

الصيد، وتعالج بالجماع، والتمريغ بالدهن في الحمام، وبشرب الماء على الريق، وبشم الرياحين والطيب...».

دعا الإمام عليه السلام في هذا الفصل إلى تناول المأكّل المشوية، وما يطبخ بالخل، ولحوم الطير، فإن ذلك يعود بفائدة كبيرة على الجسم، كما دعا أيضاً إلى تمرغ البدن بالدهن، لما له من أثر نافع على أعصاب الإنسان. وأوصى بشرب الماء على الريق صباحاً، وذلك لما له من أثر في تنظيف المجاري البولية، وأزالة ما فيها من بعض الرمل.

٣ - أيار:

واحد وثلاثون يوماً، وهو آخر فصل الربيع، تصفو فيه الرياح، وقد نهى فيه عن الملوحات واللحوم الغليظة كالرؤوس، ولحم البقر، واللبن.

وينفع فيه دخول الحمام أول النهار، وتكره فيه الرياضة قبل الغذاء...، في هذا الشهر لا يتحمل فيه الجهاز الهضمي الأغذية الثقيلة، وخصوصاً عند كبار السن حيث تضعف عندهم جميع الأجهزة والخلايا، ذلك أن تناول اللحوم الغليظة يؤدي إلى الأضرار الجسيمة التي منها الإصابة بالضغط الدموي.

٤ - حزيران:

ثلاثون يوماً، يذهب فيه سلطان الدم، ويقبل زمان الصفرة، وينهى فيه عن التعب، وأكل اللحم دائماً، والاكثار منه، وشم المسك والعنبر، وينفع فيه أكل البقول الباردة كالهندباء، والبقلة الحمقاء^(١)، وأكل الخضار كالخيار، والفاكهة الرطبة، واستعمال المحمصات، ومن اللحوم لحم الماعز الثني، والجدي، ومن الطيور الدجاج والألبان، والسّمك الطري... .

فشهر حزيران أول شهور الصيف، تضعف فيه الأبدان، لأنها تواجه قسوة الحر ومرارته، وقد نبه الإمام عليه السلام على اجتناب: عدم التعب والخلود إلى الراحة، وعدم تناول اللحوم بكثرة.

(١) البقلة الحمقاء: هي سيدة البقول، وحمقاء لأنها تنبت في المسيل.

ودعا إلى أكل الخضروات لللطافتها وسهولة هضمها، ذلك لأنها خفيفة على المعدة .

٥ - تموز:

قال عليه السلام : واحد وثلاثون يوماً، فيه شدة الحرارة، وتغور فيه المياه، ويستعمل فيه شرب الماء البارد على الريق، وتؤكل فيه الأشياء الباردة الرطبة، والأغذية السريعة الهضم، ويستعمل فيه الشموم والرياحين الباردة الرطبة، والطيبة الرائحة . . .

أما شهر تموز فهو من أثقل فصول السنة، وأشدّها قسوة على الإنسان، وذلك لشدة الحر، وهو مما يسبب غور المياه .

وقد أكد الإمام عليه السلام في هذا الشهر على شم الرياحين الباردة، الطيبة الرائحة، وذلك لانعاشها الجهاز العصبي .

٦ - آب:

قال عليه السلام : آب واحد وثلاثون يوماً، فيه تشتد السموم، ويهيج الزكام بالليل، ويهب الشمالي، ويصلح المزاج بالتبريد^(١)، والترطيب، وينفع فيه شرب اللبن الرائب، ويجتنب فيه الجماع، والمسهل، ويقبل فيه الرياضة ويشتم الرياحين الباردة . . . وشهر آب هو كشمهر تموز في قسوته وحرارته، يشتد فيه الزكام، وذلك لضعف الأبدان بسبب ما تعانیه من الحر، وقد دعا الإمام في هذا الشهر إلى تناول الأشياء الباردة لتخفف من شدة الحر .

٧ - أيلول:

قال عليه السلام : أيلول ثلاثون يوماً فيه يطيب الهواء، ويقوى سلطان المرة السوداء، ويصلح شرب المسهل، وينفع فيه أكل الحلاوات، وأصناف اللحوم المعتدلة، كالجداوي، والحوالي من الضأن ويجتنب لهم البقر، والاكثار من لحم الشواء، ودخول الحمام، ويستعمل فيه الطيب المعتدل المزاج، ويجتنب فيه أكل البطيخ والقثاء .

(١) الريد: تمر نضح بالماء .

في هذا الشهر تخف شدة الحرارة، ويطيب الهواء في آخره، وينفع فيه أكل الحلويات، شرط أن لا يكون الشخص مصاباً بداء السكر، أو بالسمنة، عندها يصبح أكل الحلويات مضر للغاية، وينفع فيه أكل اللحوم بجميع أصنافها إلا لحم البقر، فإنه مضر، كما حذر الإمام من أكل البطيخ والخيار والقثاء، فهي مضرّة في هذا الفصل.

٨ - تشرين الأول:

قال عليه السلام: واحد وثلاثون يوماً، فيه تهب الرياح المختلفة ويتنفس فيه ريح الصبا، ويجتنب فيه الفصد، وشرب الدواء، ويحمد فيه الجماع، وينفع فيه أكل اللحم، ويقلل فيه شرب الماء، وتحمد فيه الرياضة.

هذا الشهر هو من فصول السنة المميزة، تنكسر فيه حرارة الشمس وتهب فيه ريح الصبا، وحذر الإمام عليه السلام في هذا الشهر الفصد لأنه يعود بالضرر على الجسم، كما شدد على التقليل من شرب الماء، ودعا إلى الرياضة لأنها تفيد في حيوية الجسم وتبعث فيه النشاط.

٩ - تشرين الثاني:

قال عليه السلام: هو ثلاثون يوماً فيه يقع المطر الوشمي، ونهي فيه عن شرب الماء بالليل، ويقلل من دخول الحمام والجماع، ويشرب بكرة كل يوم جرعة ماء حار، ويجتنب أكل البقول مثل الكرفس والنعناع والجرجير...

هذا الشهر هو من أطيب فصول السنة، يستقبل فيه الناس الشتاء وبه يقع المطر الموسمي، مصدر الخير والرحمة، ومنه تخضر الأرض وتأتي ثمارها، وينبغي للإنسان أن يشرب كل يوم صباحاً جرعة ماء حار، وقد حذر الإمام عليه السلام من أكل بعض الخضروات لما فيه من أضرار.

١٠ - كانون الأول:

قال عليه السلام: هو واحد وثلاثون يوماً، تقوى فيه العواصف، ويشد في البرد وينفع فيه كل ما ذكر في شهر تشرين الثاني يحذر فيه من أكل الطعام البارد، ويتقى فيه الحجامة، والفصد، ويستعمل فيه الأغذية الحارة بالقوة والفعل.

شهر كانون الأول هو أول شهر من فصل الشتاء، يشد فيه البرد القارس،

وتقوى فيه العواصف... وقد حذر الإمام عليه السلام من تناول الأطعمة الباردة، لأنها تؤثر على الصحة وتجر إلى بعض الأمراض.
كما دعا الإمام فيه إلى تناول الأغذية الحارة لما لها من فوائد صحية.

١١ - كانون الثاني:

قال عليه السلام: واحد وثلاثون يوماً، يقوى فيه البلغم، ينبغي أن يتجرع فيه الماء الحار على الريق، ويحمد فيه الجماع، وينفع الاحساء فيه، مثل البقول الحارة كالكرفس، والجرجير والكراث، وينفع فيه دخول الحمام، والتمريغ بدهن الخيري^(١).

في هذا الشهر يواجه الناس شدة البرد وقساوته، لذلك ندب الإمام إلى شرب الماء الحار في الصباح الباكر ليتقي الإنسان مخلفات البرد، كما دعا إلى دخول الحمام لأن به نشاط الدورة الدموية.

١٢ - شباط:

قال عليه السلام شباط ثمانية وعشرون يوماً، تختلف فيه الرياح وتكثر الأمطار، ويجري فيه الماء في الغور، وينفع فيه أكل الثوم، ولحم الطير، والفاكهة، ويقلل من الحلويات، وتحمد فيه كثرة الحركة والرياضة...

في دخول شهر شباط تخف قسوة البرد، وتكثر الأمطار، وتكتسي الأرض بالبساط الأخضر، ويجري الماء في الأغوار، لذلك دعا الإمام إلى أكل الثوم الذي هو من أعظم البقول فائدة على الجسم، فهو يقيه من كثير من الأمراض، كارتفاع ضغط الدم، والسكري وغيرهما.

إلى هنا ينتهي حديث الإمام عليه السلام عن فصول السنة وما ينبغي أن يستعمله الإنسان فيها من الأغذية النافعة، وما يجب تجنبه من الأغذية الضارة، وقد سألت بعض الأطباء الاختصاصيين في الصحة العامة عن صحة هذه المعلومات فأجابوا أنها كلها مفيدة وبصورة خاصة توزيعها على مدار السنة.

(١) الخيري: معرب قيل الخطمي.

وقد عقب الإمام بعد هذا التفصيل بقوله:

«إعلم يا أمير المؤمنين إن قوة النفس تابعة لأمزجة الأبدان، وإن الأمزجة تابعة للهواء، وتتغير بحسب الهواء في الأمكنة...».

مما لا ريب فيه أن البيئة الجغرافية لها تأثير واضح على صحة الإنسان، كما لها تأثير أيضاً على طبعه وأخلاقه، ونلاحظ هذه الفروق بين الأجناس البشرية الذين يقطنون في مختلف بقاع الأرض. الحارة والباردة والمتوسطة. نلاحظ ذلك بوضوح عندنا نحن العرب في مختلف المناطق في الجزيرة العربية. فطبيعة المكان القاسية في الصحراء كيفت الإنسان العربي في محيطه، فانفراده في تلك الصحراء، الحمراء السمراء، جعل لونه نحاسياً، وعزيمته فولاذية، ودفاعه غريباً عجيبياً في الشجاعة والبسالة والاعتماد على النفس. إن ذلك المناخ العنيد جعل الرأس العربي في تلك البيئة رأساً فريداً، إذ أفنى الضعيف منه، ولم يبق من هذا الرأس الأسمر إلا الصالح للحياة.

أما نحن اليوم، فإذا جلسنا في مجرى هواء ناعم أصبحنا نسعل طوال الليل، وإذا عرقنا أصبحنا بزكام دائم قد يحملنا إلى دخول المستشفى. وقد يصح فينا قول الشاعر أحمد شوقي:

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

كما أن طبيعة البيئة تؤثر على النواحي النفسية، فالشجاعة العربية في ذلك المحيط هي من هبات المحيط وعطاياه السنية. فالذي يعيش في بيت من الوبر فلا بد له من أن يكون شجاعاً، حاضر البديهة والقلب واليد، ليقابل عدويه: الإنسان والحيوان. وإنما نتمنى لو بقي العرب في حالتهم تلك قبل اكتشاف البترول!! والإمام الرضا عليه السلام يرى من المؤكد أن قوة الفكر وسلامته، تابعة لصحة الجسم فإذا ابتلي الإنسان بأمراض تضعف قواه العقلية، وفي المثل القائل: «العقل السليم في الجسم السليم» كما أن من المؤكد أيضاً، في نظره، أن طيب الهواء وعدوبته، من العناصر الأساسية في الصحة العامة.

وما نراه أن الإصابة بالأمراض الجسدية أهون بكثير من الإصابة بالأمراض الأخلاقية... من هنا كان قول الشاعر:

يهون علينا أن تصاب جسمونا وتسلم أعراض لنا وعقول.



وصايا الإمام الرضا عليه السلام الصحية

تضمنت الرسالة الذهبية كوكبة من الصفات الطبية والوصايا الصحية، كان لها ولم يزل الفائدة الكبرى في حياة الإنسان من بينها:

النوم:

عرض الإمام عليه السلام النوم الصحي وكيفيته، فقال:

«اعلم يا أمير المؤمنين إن النوم سلطان الدماغ، وقوام الجسد وقوته، فإذا أردت النوم، فليكن اضطجاعاً أولاً على شقك الأيمن، ثم انقلب على الأيسر، وكذلك فقم من مضجعك وعود نفسك القعود من الليل، وادخل الخلاء لحاجة الإنسان والبث فيه بقدر ما تقضي حاجتك ولا تطل فيه، فإن ذلك يورث داء الفيل».

يرى الإمام أن النوم من العناصر الأساسية في إقامة حياة الإنسان، وصحة جسده، لقد خلق الله في جسم الإنسان بعض الأجهزة التي يتولد منها النوم، وتقوم في الوقت نفسه على إعطاء الجسد الحيوية والنشاط، وتزيل عنه ما عاناه في أثناء النهار من جهد ومتاعب وتفكير.

ثم بيّن الإمام كيفية النوم الصحيح، وهي أن ينام الإنسان على جنبه الأيمن لأن في ذلك راحة للقلب، وسلامة للجسم. كما بين أيضاً كيفية الدخول إلى المرافق، فمن الحكمة أن لا يطيل المكث فيها.

الشراب:

ذكر الإمام عليه السلام وصفة طبية كاملة للشراب الحلال، وكيفية تركيبه وصنعه، وهو يحوي كميات كبيرة من «الفيتامينات» كان منها العسل والزبيب وقد ذكرت هذه الوصفة في كتاب الدكتور زيني «طب الإمام الرضا» وعقب على ذلك بقوله:

«لهذا الشراب الحلال قيمة غذائية كبرى، لما يحويه من عناصر مفيدة، تعتبر أهم مصادر ومولدات الطاقة الحرارية التي يحتاجها الجسم دائماً، وبصورة مستمرة، وخاصة في الفصول الباردة، أما عن سهولة هضمه وتمثيل عناصره، فحدث عنه ولا حرج، إذ يعتبر سكر العنب «الكلوكوز» من أسهل المواد هضمًا، ومن المواد التي يأخذها، يمكن الاستغناء عن أكثر أصناف الغذاء الأخرى إلا مادة «الكليكوجين» التي تخزن في الكبد كغذاء احتياطي يمكن استعماله في أي وقت من الأوقات.

معجون الأسنان، السواك:

قال عليه السلام واصفًا معالجة الأسنان.

«إعلم يا أمير المؤمنين إن أجود ما استكتت به ليف الأراك^(١)، فإنه يطيب النكهة، ويشد اللثة، وهو نافع من الحفر^(٢)، إذا كان ذلك باعتدال، والاكثار منه يرق الأسنان، ويزعزعها، ويضعف أصولها.

فمن أراد حفظ الأسنان فليأخذ قرن الأيل^(٣)، محروقًا، وكزمازجًا^(٤)، ووردًا، وسنبل الطيب، وحب الأثل^(٥)، أجزاء سواء، وملحًا أندرانياً^(٦)، ربع جزء، فيدق الجميع ناعماً، ويسنن به فإنه يمسك الأسنان ويحفظ أصولها من الآفات المعارضة.

ومن أراد أن يبيض أسنانه: فليأخذ من ملح أندراني، ومثله زبد البحر، فيسحقها ناعماً، ويستن به. . .».

عرض الإمام عليه السلام وصفتين لإصلاح الأسنان: الأولى: السواك بعود الأراك، وهو من الوصفات الجيدة في إصلاح الأسنان. وقد حلل هذا العود فتبين

(١) ليف الأراك: غصن الأراك.

(٢) الحفر: داء يصيب الأسنان.

(٣) الأيل: الوعل.

(٤) الكزمازج: ثمرة شجرة الطرفاء.

(٥) ثمرة شجرة الطرفاء.

(٦) الملح الأندراني: يشبه البلور.

أنه أروع الأدوية لتطهير الأسنان، وصيانتها من التسوس، وأنه أنفع من المعاجن الحديثة.

والوصفة الثانية: فهي المعجون وقد ذكر الإمام الأجزاء التي يتألف منها وهو يقضي على تسوس الأسنان.
وقال عليه السلام: .

الحذر من الجمع بين بعض المأكولات والمشروبات:

حذر الإمام عليه السلام من الجمع بين بعض المأكولات والمشروبات لأنها تسبب الإصابة ببعض الأمراض. فقال عليه السلام:

«واحدري يا أمير المؤمنين أن تجمع بين البيض والسمك في المعدة، في وقت واحد، فإنهما متى اجتمعاً في جوف الإنسان ولدا عليه النقرس، والقولنج والبواسير، ووجع الأضراس، واللبن والنبيد الذي يشربه أهله، ولدا النقرس، والبرص، ومداومة أكل البيض يعرض منه الكلف^(١) في الوجه، وأكل الملوحة، واللحمان المملوحة وأكل السمك المملوح بعد الفصد والحجامة، يعرض منه البهق والجرب، وأكل كلية الغنم وأجواف الغنم يعكر المثانة.

ودخول الحمام على البطننة يولد القولنج، والاغتسال بالماء البارد بعد أكل السمك يورث الفالج، وأكل الأترج في الليل، يقلب العين، ويوجب الحول، وإتيان المرأة الحائض يورث الجذام في الولد.

والجماع من غير إهراق الماء على أثره^(٢) يوجب الحصاة، والجماع بعد الجماع من غير فصل بينهما بغسل، يورث الولد الجنون، وكثرة أكل البصل وادمانه يولد الصحال، ورياحاً في رأس المعدة، والامتلاء من البيض المسلوق يورث الربو، والانبهار^(٣) وأكل اللحم النيء يولد الدود في البطن، وأكل التين يقمل منه الجسد إذا أدمن عليه.

(١) الكلف: مرض يملئ الوجه.

(٢) اهراق الماء: عدم البول بعد العملية الجنسية يورث الحصاة.

(٣) الانبهار: ضيق النفس.

وشرب الماء البارد عقيب الشيء الحار والحلاوة، يذهب بالأسنان، والاكتثار من أكل لحوم الوحش والبقر، يورث تغيير العقل، وتحير الفهم، وتبلد الذهن، وكثرة النسيان..».

في هذا المقطع حذر الإمام من الجمع بين بعض المأكّل، وذلك لما تورثه من الأمراض، وكان من بين ما حذر منه الجمع بين أكل السمك والبيض فإنه يورث: داء النقرس وداء القولنج. والبواسير. ووجع الأضراس. كما حذر عليه السلام من تناول الطعام المالح، لأنه يؤدي إلى تصلب الشرايين، وارتفاع ضغط الدم.

وكذلك: شرب الماء البارد عقيب الشيء الحار، أو عقيب الحلويات فإنه يؤثر على الأسنان، وقد أكد ذلك أطباء الأسنان وحذروا منه هذه الفوائد الصحية العديدة لو أخذ بها الناس لسلموا من كثير من الأمراض.

وقد حوت هذه الرسالة الذهبية:

نصائح صحية عديدة:

من هذه النصائح نذكر.

- ١ - من أراد أن لا يشتكي مثانته، فلا يحبس البول، ولو على ظهر دابته.
- ٢ - ومن أراد أن لا تؤذيه معدته، فلا يشرب بين طعامه ماء حتى يفرغ ومن فعل ذلك رطب بدنه، وضعفت معدته، ولم تأخذ العروق قوة الطعام، فإنه يصير في المعدة فجاً إذا صب الماء على الطعام.
- ٣ - ومن أراد أن لا يجد الحصى، وحصر البول، فلا يحبس المني عند نزول الشهوة، ولا يطيل المكث مع النساء..».

نصائح صحية للمسافر:

وضع الإمام عليه السلام برنامجاً خاصاً للمسافر، حذره فيه من استعمال بعض الأمور التي تضر بصحته.

قال عليه السلام: «واعلم يا أمير المؤمنين إن المسافر ينبغي أن يتحرز من الحر إذا سافر وهو ممتلىء من الطعام، ولا خالي الجوف، وليكن على حد الاعتدال، وليتناول من الأغذية الباردة مثل العريض، والهلام والخل، والزيت، وماء

الحصرم، ونحو ذلك من الأطعمة الباردة. واعلم يا أمير المؤمنين إن السير الشديد في الحر الشديد، ضار بالأبدان المنهوكة، إذا كانت خالية من الطعام. والسير نافع بالأبدان الخصبية.

وأما صلاح المياه للمسافر ودفع الأذى عنه، فهو أن لا يشرب من ماء كل منزل يرده، إلا بعد أن يمزجه بماء المنزل الذي قبله، أو بشراب واحد غير مختلف، يشربه بالمياه على اختلافها، والواجب أن يتزود المسافر من تربة وطنه التي ربي عليها، وكلما ورد إلى منزل، طرح في إنائه الذي يشرب منه، شيئاً من الطين الذي تزوده من بلده، ويشرب الماء بالطين في الآنية بالتحريك، ويؤخر قبل شربه حتى يصفو صفاء تاماً.

وخير الماء شرباً لمن هو مقيم أو مسافر، ما كان ينبوعه من الجهة الشرقية من الخفيف الأبيض، وأفضل المياه ما كان مخرجها من مشرق الشمس العيني، وأصحها وأفضلها ما كان بهذا الوصف الذي نبع منه، وكان مجراه في جبال الطين، وذلك لأنها تكون في الشتاء باردة، وفي الصيف ملينة للبطن نافعة لأصحاب الحرارة.

وأما الماء المالح، والمياه الثقيلة:

فإنها تبيس البطن، ومياه الثلوج والجليد رديئة لسائر الأجساد، وهي كثيرة الضرر جداً.

وأما مياه السحب: فإنها خفيفة عذبة، صافية، نافعة للأجسام إذا لم يطل خزنها، وحبسها في الأرض.

وأما مياه الجب: فإنها عذبة نافعة، إن دام جريها، ولم يدم حبسها في الأرض، وأما البطايح والسباخ: فإنها حادة غليظة في الصيف لركودها، ودوام طلوع الشمس عليها...».

لقد وضع الإمام عليه السلام البرامج الحية السليمة لسلامة المسافر، ووقايته من الأمراض. فأوصاه بعدم امتلاء بطنه، لأن ذلك لا يساعده على أتعب السفر وعنائه. كما ينبغي عليه أن لا يكون خالي الجوف.

ونهى عليه السلام عن السفر في الحر الشديد، لأن ذلك يعرض المسافر للخطر. كما تعرض الإمام في هذا المقطع من الرسالة الذهبية إلى المياه، فذكر أنواعها، وما ينبغي أن يشرب منها، وما لا يشرب، وكان وصفه لها دقيقاً وشاملاً لكل عناصرها.

فائدة الحمام:

استعرض الإمام عليه السلام في رسالته الذهبية، الكثيرة المنافع، الفائدة من دخول الحمام. فقال عليه السلام :

«... ومنفعة الحمام عظيمة، يؤدي إلى الاعتدال، وينفي الدرن، ويلين العصب والعروق، ويقوي الأعضاء للكبار، ويذيب الفضول ويذهب العفن...».

نذب الإمام عليه السلام إلى دخول الحمام لما له من فوائد صحية كثيرة، أولها:

١ - يزيل ما ران على الجسد من الأوساخ والافرازات السطحية التي تنبعث من الجسم.

٢ - يؤدي إلى تنقية الدرن ويلين العروق، ويقوي الأعضاء، ويذهب العفن.

٣ - هو مصدر من مصادر الطهارة والنظافة عملاً بالمقولة السليمة التي يعتمدها كل مسلم: «النظافة من الإيمان» فالمؤمن نظيف الجسد واللباس، ونظيف القلب: «ملك الجسم وسلطان».

هذه الرسالة العظيمة والتي سماها المأمون: الرسالة الذهبية لما لها من فوائد صحية كثيرة، ولما فيها من منافع وقائية وعلاجية لجسم الإنسان؛ تعرض في فصل من فصولها لأدوار عمر الإنسان، وما يلاقه في بعضها الآخر من ضعف وذبول.

وقد قسم عليه السلام عمر الإنسان إلى أربعة أحوال.

قال عليه السلام مخاطباً المأمون: «واعلم يا أمير المؤمنين إن أحوال الإنسان التي بناه الله تعالى عليها، وجعله متصرفاً بها، أربعة أحوال:

١ - الحالة الأولى:

خمسة عشر سنة وفيها شبابه، وحسنه، وبهاؤه، وسلطان الدم في جسمه.

٢ - الحالة الثانية:

من خمسة عشر سنة إلى خمسة وثلاثين سنة، وفيها سلطان المرّة الصفراء، وقوة غلبتها على الشخص وهي أقوى ما يكون، ولا يزال كذلك حتى يستوفي المدة المذكورة وهي خمسة وثلاثون سنة .

٣ - الحالة الثالثة:

إلى أن تتكامل مدة العمر ستون سنة، فيكون في سلطان المرة السوداء وهي سن الحكمة والمعرفة، والدراية وانتظام الأمور، وصحة في العواقب وصدق الرأي، وثبات الجأش في التصرفات .

٤ - الحالة الرابعة:

وهي سلطان البلغم، وهي الحالة التي تحول عنها ما بقي إلى الهرم، ونكد العيش، وذبول، ونقص، وفساد في تكوينه، واستنكر كل شيء كان يعرف من نفسه، حتى صار ينام عند القوم، ويسهر عند النوم، ويتذكر ما تقدم، وينسى ما يحدث في الأوقات، ويذبل عوده، ويتغير معهوده ويخف ماء رونقه وبهائه، ويقل نبت شعره، وأظفاره، ولا يزال جسمه في انعكاس، وإدبار ما عاش . . .

ورد في هذا المقطع من الرسالة الذهبية أربعة أدوار أو حالات من عمر الإنسان. أما الدور الخامس وهو الدور الأخير الذي يفارق فيه الحياة. أما عن هذه الأدوار فنوجز القول:

الدور الأول:

يبدأ من الولادة وينتهي ببلوغ الإنسان الخامسة عشر وهو دور تكليفه، إن كان ذكراً، بالأحكام الشرعية، وفي هذا الدور بداية الشباب، وهو من أروع أدوار العمر، ومن أكثرها حيوية ونشاطاً، ومن أقلها تجربة ومعرفة بعواقب الأحداث، والأمر .

الدور الثاني:

ويبدأ من الخامسة عشر وينتهي بالخامسة والثلاثين وهو من أروع فترات العمر، ففيه تتكامل قوة الإنسان ونشاطه، وتزداد تجاربه، ومعرفته بالأمر .

الدور الثالث:

ويبدأ من الخامسة والثلاثين، وينتهي بالستين، وفي هذا الدور تتكامل معرفة الإنسان، وتنظم فيه أموره، وذلك من خلال تجاربه لها، ومعرفته بالأحداث إلا أن قواه الجسمية تبدأ بالضعف والانهيار.

الدور الرابع:

ويبدأ من سن الستين حتى يوافيه الأجل المحتوم، ففي هذه السن تضعف جميع أجهزته وخلاياه، وتنحل قواه، ويصبح عالة على غيره، وخصوصاً إذا أخذ بعنق الثمانين، فإنه يكثر شكواه، ويزداد أُنينه من جراء الضعف العام الذي يحل فيه.

قال أحد الشعراء:

قالوا أنينك طول الليل يزعجنا فما الذي تشتكي؟ قلت الثمانينا

فمرحلة الثمانين يبدأ فيها الضعف والانزعاج في عامة أجهزة الجسم.

أتذكر هنا أنني منذ سنين زرت أحد الأدباء المعروفين في لبنان^(١) بصحبة ابني فأراد الأديب أن يسأل ابني الذي كان في الدور الثاني من عمره. فأخذ ابني يرد على أجوبته بصوت عادي. والأديب يصغي إليه بكل جوارحه لكنه لم يستوعب كل الكلام. فقال لابني: ارفع صوتك أكثر يا ولدي، ثم ردد له هذا البيت من الشعر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثم أردف قائلاً والحقيقة يا ولدي: «قد أحوجت كلي إلى ترجمان» سمعي

وبصري وكل كياني. وقد جاء في المثل:

«الشيخوخة سحابة تمطر بالأمراض» والجسم في هذه السن كما يقول أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «يذبل عوده، ويجف ماء رونقه، وهو دور الفناء».

(١) هو الدكتور المرحوم فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية سابقاً.

وأخيراً يخاطب المأمون ليعمل بما وصف له فيقول عليه السلام: «... ومن عمل فيما وصفت في كتابي هذا ودبر به جسده أمن باذن الله تعالى من كل داء، وصح جسمه بحول الله وقوته، فإن الله تعالى يعطي العافية لمن يشاء، ويمنحها إياه، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً»^(١).

وبعد هذا العرض ألا يليق بها اسمها: الرسالة الذهبية؟ والحق يقال أنها رسالة ذهبية خالدة فائدتها عامة وشاملة إن من حيث الوقاية أم من حيث العلاج. ولا غرو فمؤلفها إمام معصوم، وسليل النبوة الطاهرة ورث العلم عن أبيه وأجداده، العلم الخالد على صدر الزمان.

علم التفسير عند الإمام الرضا عليه السلام:

ما هو التفسير؟ التفسير في اللغة يعني الإبانة وإمطة اللثام، وفسر الشيء: وضحه وشرحه.

وتفسير آيات القرآن الكريم: شرح ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام.

ولكن هل يحتاج القرآن إلى إبانة... وهو «النور» و «الكلام المبين»؟! ليس على وجه القرآن من لثام أو نقاب.. بل إننا بالتفسير ينبغي أن نزيل اللثام عن بصيرتنا وعن روحنا، كي ندرك مفاهيم القرآن ونعيش أجواءه. هذا من جهة. ومن جهة أخرى ليس للقرآن بعد واحد، بل له بعد عام ميسر للجميع، يهدي البشرية إلى سواء السبيل.

وهناك أبعاد أخرى للعلماء والمفكرين الطامحين إلى ما يروي ظمأهم إلى الحقيقة فيغرفون من بحر القرآن الكريم قدر طاقتهم وقدر جهدهم وسعيهم واتساع دائرة معرفتهم.

هذه الأبعاد الكريمة يطلق عليها «البطون» بطون القرآن... وهي بلا ريب لا تتجلى للجميع من المفسرين ولا تقوى كل العيون على رؤيتها.

(١) البحار: ج ٥٩ ص ٣٠٩. ٣٢٨.

والتفسير يمنح العيون قوة، ويمنح الفكر تألقاً يزيل الحجب والأستار ويمكن الطامح رؤية تلك الأبعاد.

لكن بعض هذه الأبعاد القرآنية تنجلي بمرور الزمان من خلال التجارب البشرية، ومن خلال الكفاءات الفكرية، وهذا ما أشار إليه الصحابي الجليل «ابن عباس» عندما قال: «القرآن يفسره الزمان».

والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا لا يتنافى مع كونه نوراً وكلاماً مبيناً لأنه كل لا يتجزأ، يشكل بمجموعه النور والكلام المبين.

متى بدأ التفسير:

لقد بدأ التفسير الحقيقي للقرآن الكريم في عصر الرسول ﷺ، بل من بدء نزول الوحي أما التفسير كعلم مدون بدأ في عهد سيد البلغاء والفقهاء، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما تجمع عليه الروايات. ولا عجب في ذلك فالرسول الأكرم مدينة العلم وعلي بابها.

والقرآن مآدبة الله والداعي إليها محمد ﷺ، والقرآن روضة مثمرة مزدانة مزدهرة، ولجه من ولج، وكلهم شغفوا بمناظره الخلافة، فكل رائد من رواد التفسير القرآني عكس كل ما يملكه من خلال مرآة خاصة مظهراً بعداً من أبعاد القرآن الكريم وليس كل الأبعاد. ذلك أنه كلام الله، وفيض من علمه اللامتناهي، وكلامه مظهر لعلمه، وعلمه مظهر لذاته وكلها لامتناهية.

من هنا ينبغي أن لا نتوقع استطاعة البشر أن يروا كل أبعاد القرآن لأنه بحر واسع يزخر بالعلوم والمعارف المتنوعة، ومما لا شك فيه أننا نستطيع أن نعرف من هذا البحر الكبير جداً بقدر سعة آنية فكرنا.

لذلك كان على العلماء فرض أن لا يتوانوا في كل عصر عن كشف مزيد من القرآن الكريم ويميطوا اللثام عن بعد من أبعاده بجهود مخصصة ما استطاعوا كما عليهم أن يستفيدوا مما خلفه الأسلاف رضوان الله عليهم في هذا المجال. ولكن لا يجوز لهم أن يكتفوا به، فرسول الله ﷺ قال عن كتاب الله العزيز: «لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه».

ملاحظة لا بد منها :

إن أخطر طريقة في تفسير القرآن هي التفسير بالرأي حيث يأتي المفسر ليفرض أفكاره على القرآن، ويعرض أحكامه الناتجة عن تخصصه العلمي، أو عن اتجاه اتجاهه المذهبي الخاص وذوقه الشخصي باسم القرآن.

إن مثل هذا المفسر لا يتخذ القرآن هادياً وإماماً، بل يتخذه وسيلة لطرح مبادئه وتبرير ذوقه وأفكاره.

هذا اللون من التفسير راج بين جماعة انحرفت عن طريق الله، وانزلت في متاهات الضلال وراء أفكارها الشخصية.

والحقيقة أن هذا التفسير - تفسير الأفكار الشخصية - لا يعد بتفسير وإنما هو فرض وتحميل . . . وليس بهداية وإنما هو الضلال . . . إنه مسخ وتفسير بالرأي، وهذا بلا ريب مناقض للتفسير عند أهل البيت عليهم السلام وما ينبغي التنبيه له أن بعض الوضاعين قاموا بدس بعض الروايات والأحاديث التي تنسب التحريف إلى القرآن وهو المحفوظ من الزيادة والنقصان.

وقد استنكر علماء الشيعة الإمامة هذا الادعاء، وحكموا بكمال القرآن وحفظه من التحريف، لذلك دونوا هذه الحقيقة الكبرى في مؤلفاتهم ومناظراتهم للدفاع عن الإسلام وسلامة نص القرآن. نذكر من هؤلاء العلماء والأكابر.

الشيخ الطوسي : من علماء القرن الرابع الهجري قال : «أما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى، وهو الظاهر في الروايات».

وقال العالم المفسر الكبير الطبرسي :

«إن المشهور بين علماء الإمامية ومحققيهم، بل المتسلم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف».

وقال الشيخ الصدوق وهو من علماء القرنين الثالث والرابع الهجري :

«اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه هو ما بين الدفتين، وليس بأكثر من ذلك، ومن نسب إلينا أنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب».

والجدير ذكره أن العلماء المحققين قد أجمعوا أن الروايات التي وردت في كتب السنة والشيعه التي تقول بتحريف القرآن ما هي إلا روايات ضعيفة السند، ساقطة الاعتبار ولا يعتد بها.

وأصحاب هذه الروايات الملفقة أهل الأهواء والضلال والانحراف يصدق عليهم قول الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١).

منهج أهل البيت في التفسير

ولأهل البيت عليهم السلام منهج متميز في التفسير، وفهم القرآن الكريم يفهمه من مارس أحاديثهم وكلماتهم وحواراتهم في تفسير القرآن. والحديث عن هذا المنهج والتفصيل عنه يطول، وإنما نريد أن نشير فقط إلى جملة من العناوين الرئيسية في طريقة أهل البيت عليهم السلام ومنهجهم في تفسير القرآن، ومنها ما يلي:

١ - تنزيه الله تعالى عن التجسيم:

فقد دعا أهل البيت عليهم السلام إلى نفي التشبيه والتجسيم والتعطيل. جميعاً وتفسير آيات القرآن المباركة المتعلقة بهذا الموضوع على هذا المنهج.

٢ - تنزيه الأنبياء عن المعاصي:

إن الرأي في مدرسة أهل البيت عليهم السلام هو عصمة الأنبياء عليهم السلام جميعاً عن المعاصي الكبيرة والصغيرة قبل النبوة وبعدها ومن السهو والخطأ في التبليغ. وعلى أساس الرأي في عصمة الأنبياء عليهم السلام فسر أهل البيت عليهم السلام كل

(١) سورة آل عمران: الآية، ٧.

آيات القرآن المتعلقة بحياة الأنبياء عليهم السلام وهو اتجاه معروف لأهل البيت في تفسير القرآن.

٣ - استحالة رؤية الله تعالى:

أكد أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على استحالة رؤية الله تعالى، وفسروا الروايات والآيات التي استظهر منها أهل الحديث والأشاعرة إمكانية الرؤية، بمعان مناسبة لجو الآيات والروايات.

٤ - رأي أهل البيت عليهم السلام في الهداية والضلالة:

يقول أهل البيت عليهم السلام إن الله تعالى هو مصدر الهداية في حياة الإنسان، وأما الضلالة فمن الإنسان نفسه، وعلى كل حال فإن الهداية والضلالة تجري في حياة الإنسان باختياره وإرادته. ونفوا بشكل قاطع حتمية الهداية والضلالة في حياة الإنسان بإرادة الله سبحانه وتعالى.

٥ - رأي أهل البيت في الجبر والتفويض:

ذهب أهل البيت عليهم السلام مذهباً وسطاً بين الجبر والتفويض، لا يتصل بالخير ولا بالتفويض، وسموا ذلك الأمر بين أمرين.

٦ - تفسير القرآن بالقرآن:

من يتبع طريقة أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن يلتمس عندهم طريقة متميزة ومبتكرة في تفسير القرآن بالقرآن، وهذه الطريقة من أفضل الطرق لفهم القرآن، لأن القرآن خير دليل على القرآن وقد جرى على هذه الطريقة العلامة المرحوم الطباطبائي وأخرج تفسيره القيم (الميزان) على هذا الأساس المتين.

كما فسر القرآن بالقرآن والسنة الدكتور الشيخ محمد الصادق سنة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م، فقال في المدخل من الجزء الثلاثين القسم الأول^(١):

إن كلمة الله هي إله الكلمات، فلا تفسر إلا بكلمات الله «والقرآن يفسر

(١) القرآن في تفسير القرآن بالقرآن والسنة ج ٣ ص ٦٠٥.

بعضه بعضاً^(١) والتمسك بالكتاب في الأمور المشتبهة إصلاح لها ووصول للرشد فيها، والقرآن أحق وأولى أن يمسك في تفسيره بنفسه قال تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾^(٢).

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ﴾^(٣).

وقال الدكتور الصادقي: «وقد يفسر بالسنة القطعية الصادرة عن النبي الأقدس عليه السلام إطلاقاً، أو عن خلفائه المعصومين الاثني عشر دون تقيّة، والميزة الصالحة لتمييز الغث عن السمين هو كتاب الله يرد إليه ويقاس عليه كل حديث، فيصدق ما وافقه ويرد ما خالفه ولم يوافق، كما نجد في أحاديث العرض المتواترة^(٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٥).

والرد إلى الله يعني الأخذ بحكم كتابه، والرد إلى الرسول يعني الأخذ بسنته الجامعة غير المفارقة^(٦).

وليس لأحد أن يضرب القرآن بعضه ببعض، وينشر آياته دون رعاية لرباطها، وقد رأى رسول الله عليه السلام قوماً يتدارؤون، فقال عليه السلام: «هلك من كان قبلكم، بهذا اضرَبوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»^(٧).

ثم «خرج عليه السلام على قوم يتراجعون القرآن وهو مغضب فقال: «بهذا

(١) نهج البلاغة.

(٢) سورة الشورى: الآية، ١٠.

(٣) سورة الأعراف: الآية، ١٧٠.

(٤) راجع جامع أحاديث الشيعة للعلامة الإمام البروجردي قدس الله روحه.

(٥) سورة النساء: الآية، ٥٩.

(٦) نهج البلاغة.

(٧) الدر المنثور أخرج أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عنه عليه السلام.

ضلت الأمم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض»^(١).

فعلى المفسر التدبر التام في آي الذكر الحكيم، أو يستنطق كل آية بنظائرها في المغزى، ويستفسر عنها من أشباهها، وحينئذ لا يجد أي اختلاف في القرآن: قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢).

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، واختلاف؛ المفسرين في أفهامهم ترد هذه الاختلافات ترد على القرآن نفسه، فلا يصدق عليه إلا ما يصدقه، فإذا احتملت اللفظة والآية وجوهاً عدة متلائمة فلتصدق كلها وإذا كانت متنافرة فأوجهها دلاليًا ومعنويًا.

وبعد هذا نستطيع القول: لو أن الباحثين تتبعوا روايات أهل البيت عليهم السلام في التفسير واتخذوا منهجهم لاكتشفوا حقولاً واسعة من العلم، وفتح الله عليهم أبواباً من المعرفة بطريقة الأئمة المعصومين في تفسير القرآن الكريم. ولا غرو في ذلك فقد كان الصحابة والتابعون من النابهين من أرباب الفكر، ومن جاء بعدهم من العلماء والفقهاء، والفلاسفة والشعراء في العصرين الأموي والعباسي يضعون أهل البيت في المكانة الشامخة التي أنزلهم فيها الله ورسوله فأهل البيت عليهم السلام لا يقاس بهم أحد وهذه بعض الشواهد:

قال أحمد بن حنبل قال أحمد بن محمد الكرزي البغدادي قال: «سمعت عبد الله ابن أحمد بن حنبل، قال: سألت أبي عن التفضيل: أبو بكر، وعمر، وعثمان، ثم سكت فقلت: يا أبت!! أين علي بن أبي طالب؟ قال: «هو من أهل البيت لا يقاس به هؤلاء»^(٣).

وقال العارف بالله الشيخ محي الدين بن عربي:

سئل هذا العالم الجليل: هل يماثل أهل البيت أحد؟؟.

(١) المصدر نفسه.

(٢) سورة النساء: الآية، ٨٢.

(٣) ينابيع المودة: ج ٢ ص ٧٨ للشيخ سليمان القندوزي.

وما شأن من يبغضهم؟ وكيف يكون حال من يحبهم؟؟ فيجيب قائلاً:
 فلا تعدل بأهل البيت خلقاً فأهل البيت هم أهل السيادة
 فبغضهم من الإنسان خسر حقيقي، وحبهم عبادة^(١)

والإمام الشافعي:

له معتقد في أهل البيت استقاه من قول الله ورسوله فيهم، فهو يعتقد أن
 حبهم، وسلوك نهجهم العدل، هما حبل الله المتين الذي ينير الطريق للمتمسك
 بهما إلى رضوان الله عز وجل وهو يرجو أن يظفره حبهم بجنت تجري من تحتها
 الأنهار فقال:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي
 أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي^(٢)

وهكذا نرى جهابذة الفكر العلمي والأدبي في العالم الإسلامي يحضون
 أهل بيت نبيهم حباً صافياً واجلالاً صادقاً ينبعان من إيمانهم بالله ورسوله، ولم
 يصرفهم عن حبهم المبارك سلطان السياسة ولا أهواؤها العاصفة.

والإمام الثامن أهل البيت عليه السلام هو الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى
 الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين
 العابدين ابن الإمام الحسين بن علي ابن الإمام علي بن أبي طالب عليهم أفضل
 الصلاة وأزكى السلام.

الإمام الرضا في حقل التفسير:

- قال ابن الجوزي في تذكرته والحاكم في تاريخ نيسابور:

«لقد أخذ القلم والحديث عن أبيه، وكان يجلس في مسجد
 رسول الله ﷺ فيفتي الناس وهو ابن نيف وعشرين سنة»^(٣).

(١) المصدر نفسه: ج ٣ ص ٣٨.

(٢) مدرسة أهل البيت منهج وعلوم ص ٣٢.

(٣) سيرة الأئمة الاثني عشر ج ٢ ص ٣٥٨.

- وجاء عن أبي الصلت الهروي أنه قال: «ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له عدداً من علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن آخرهم حتى ما بقي أحد منهم إلا أقر له بالفضل وأقر على نفسه بالقصور على حد تعبير الراوي»^(١).

- وجاء عنه أيضاً أنه قال:

لقد سمعت علي بن موسى الرضا يقول: كنت أجلس بالروضة والعلماء في المدينة متوافرون فإذا أعيت الواحد منهم مسألة بعثوا إلي فأجيب عنها^(٢).

- وقال محمد بن عيسى اليقطيني: «لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا جمعت من مسائله مما سئل عنه وأجاب عليه ثمانية عشر ألف مسألة. وأضاف قائلاً: وقد روى عند جماعة من المصنفين منهم أبو بكر الخطيب في تاريخه، والثعلبي في تفسيره، والسمعاني في رسالته، وابن المعتز في كتابه وغيرهم عشرات الأحاديث في شتى المواضيع»^(٣).

- قال علي بن الجهم: «قام المأمون إلى الصلاة وأخذ بيد محمد بن جعفر فقال له: كيف رأيت ابن أخيك؟ فقال: عالم، ولم نره يختلف إلى أحد من أهل العلم. فقال المأمون: إن ابن أخيك هذا من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله الذين قال فيهم: إلا أن أبرار عترتي وأطايب أرومتي أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كباراً، لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم ولا يخرجونكم من باب هدى، ولا يدخلوكم من باب ضلالة»^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب المجلد الرابع.

(٤) عيون أخبار الرضا. وما يلفت النظر أن المأمون يعلم أن الرضا من أبرار عترة الرسول صلى الله عليه وآله فكيف دس له السم!!! إنها السياسة وحب الجاه والسلطان.

سئل الإمام الرضا عن قول الله عز وجل: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٤).
فقال عليه السلام: «إنا لله لا يوصف بالمجيء والذهاب والانتقال، إنما يعني بذلك: وجاء أمر ربك».

وسئل عن قوله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ (٣).
فقال عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان يحل فيه فيحجب عن عباده ولكنه يعني عن ثواب ربهم محجوبون».

وسئل عن قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْكُمْ﴾ (٢).
فقال عليه السلام: «يعني مشرقة تنتظر ثوابه ربها».

وسئل عن قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٥).
قال عليه السلام: «معناه، هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بالملائكة في ظلل من الغمام».

وسئل عن قوله عز وجل: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ (٦).
وعن قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧).

(١) سورة القيامة: الآيات ٢٢-٢٣.

(٢) سورة القلم: الآية، ٤٢.

(٣) سورة الهمذاني: الآية، ١٥.

(٤) سورة الفجر: الآية، ٢٢.

(٥) سورة البقرة: الآية، ٢١٠.

(٦) سورة التوبة: الآية، ٧٩.

(٧) سورة البقرة: الآية، ١٥.

وعن قوله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(١).

وعن قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(٢).

فقال عليه السلام: «إن الله لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع، ولكنه عز وجل يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر وجزاء الخديعة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً».

وسئل عن قوله عز وجل: ﴿سُؤُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٣).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٤).

وقوله: ﴿سُؤُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾^(٥).

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا سُؤُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾^(٦).

فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لا يسهى ولا ينسى، إنما يسهو وينسى المخلوق المحدث ألا تسمعه يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ إنما يجازي من نسيه ونسى لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم كما قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سُؤُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا سُؤُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا أي فنجازيهم على ذلك.

وسئل عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(٧).

قال عليه السلام: «ومن يريد الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا إلى جنته ودار كرامته

(١) سورة آل عمران: الآية، ٥٤.

(٢) سورة النساء: الآية، ١٤٢.

(٣) سورة التوبة: الآية، ٦٧.

(٤) سورة مريم: الآية، ٦٤.

(٥) سورة الحشر: الآية، ١٩.

(٦) سورة الأعراف: الآية، ٥١.

(٧) سورة الأنعام: الآية، ١٢٥.

في الآخرة؛ يشرح صدره للتسليم لله والثقة به والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتى يطمئن إليه، ومن يرد أن يضلّه عن جنّته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه له في الدنيا يجعل صدره ضيقاً حرجاً، حتى يشك في كفره ويضطرب في اعتقاد قلبه، حتى يصير كأنما يصعد في السماء وكذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون».

قال أبو الصلت الهروي: «سأل المأمون الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).

فقال عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى خلق العرش والماء ليظهر بذلك قدرته للملائكة فنعلم أنه على كل شيء قدير، ثم رفع العرش بقدرته.

ونقله، فجعله فوق السماوات السبع، ثم خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهو مستولٍ على عرشه، وكان قادراً على أن يخلقها في طرفه عين، ولكنه عز وجل، خلقها في ستة أيام ليظهر للملائكة ما يخلقها منها شيئاً بعد شيء فتستدل بحدوث ما يحدث على الله تعالى مرة بعد مرة، ولم يخلق العرش لحاجة به إليه، لأنه غني عن العرش وعن جميع ما خلق، لا يوصف بالكون على العرش لأنه ليس بجسم تعالى الله عن صفة خلقه علواً كبيراً.

وأما قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢).

فالله عز وجل خلق خلقه ليبلوهم بتكليف طاعته وعبادته، لا على سبيل الامتحان والتجربة، لأنه لم يزل عليماً بكل شيء.

فقال المأمون: فرجت عني يا أبا الحسن، فرج الله عنك.

ثم قال له: يا ابن رسول الله، فما معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْفِرُ الْنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) سورة هود: الآية، ٧.

(٢) سورة هود: الآية، ٧.

(٣) سورة يونس: الآية، الآيات، ٩٩ - ١٠٠.

فقال الإمام الرضا عليه السلام: «حدثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر ابن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إن المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام لكثير عددنا وقورنا على عدونا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما كنت لألقى الله عز وجل ببدعة لم يحدث إلي فيها شيئاً وما أنا من المتكلفين، فأنزل الله تعالى عليه يا محمد: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١) على سبيل الاضطرار في الدنيا كما يؤمن عند المعاناة ورؤية البأس في الآخرة، ولو فعلت ذلك بهم لم يستحقوا مني ثواباً ولا مدحاً، ولكني أريد منهم أن يؤمنوا مختارين غير مضطرين ليستحقوا مني الزلفى والكرامة ودوام الخلود في جنة الخلد.

فليس ذلك على سبيل تحريم الإيمان عليها، ولكن على معنى أنها ما كانت لتؤمن إلا بإذن الله وإذنه أمره لها بالإيمان بما كانت مكلفة متعددة بها، والجأوه إياها إلى الإيمان عند زوال التكليف والتعبد عنها. فقال المأمون:

فرجت عني فرج الله عنك فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾^(٢).

فقال عليه السلام: «إن غطاء العين لا يمنع من الذكر، والذكر لا يرى بالعين ولكن الله عز وجل شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام بالعميان لأنهم كانوا يستثقلون قول النبي صلى الله عليه وآله فيه ولا يستطيعون له سمعاً فقال المأمون: فرجت عني فرج الله عنك».

وما نراه أن المأمون كاذب بلا شك لأنه هو الآخر منهم ومعهم لا يستطيع له سمعاً، ولكن السياسة الخادعة!! والأعجب أن المأمون يخاطب الإمام الرضا

(١) سورة يونس: الآية، ٩٩.

(٢) سورة الكهف: الآية، ١٠١.

بقوله: (يا ابن رسول الله) وكيف دس السم لابن رسول الله؟! إنه خداع ونفاق وكذب؟؟؟ .

وسأل عبد العظيم الحسيني الإمام عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلْمَتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾^(١). فقال عليه السلام:

«إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه ولكنه متى علم أنهم لا يرجعون عن الكفر والضلال منعهم المعاونة واللطف، وخلق بينهم وبين اختيارهم» .

قال أيضاً: وسألته عن قول الله عز وجل: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

قال عليه السلام: «الختم، هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم. كما قال عز وجل: ﴿بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣).

قال وسألته هل يجبر عباده على المعاصي؟ قال عليه السلام: لا، بل يخبرهم ويمهلهم حتى يتوبوا، قلت: فهل يكلف عباده ما لا يطيقون؟ .

فقال عليه السلام: «كيف يفعل ذلك وهو يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٤).

ثم قال: حدثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام.

إنه قال: «من زعم أن الله يجبر عباده على المعاصي ويكلفهم ما لا يطيقون فلا تأكلوا ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته ولا تصلوا وراءه ولا تعطوه من الزكاة شيئاً»^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية، ١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٧.

(٣) سورة النساء: الآية، ١٥.

(٤) سورة فصلت: الآية، ٤٦.

(٥) الاحتجاج: ج ٢ ص ٤٠٩. ٤١٣.

روى القندوزي بإسناده عن ريان بن الصلت، قال: «حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو، وقد اجتمع في مجلسه جماعة من العلماء من العراق ومن خراسان فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١).

فقال العلماء: أراد الله عز وجل بذلك الأمة كلها، فقال الرضا عليه السلام: المراد بذلك العترة الطاهرة لأنه لو كان المراد الأمة لكانت بأجمعها في الجنة لقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٢).

ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُمَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾^(٣).

فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم، وهم الذين نزل بشأنهم: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٤).

وهم الذين قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إلا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما أيها الناس إنكم لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»^(٥).

وقال الإمام الرضا في شأن أهل البيت: إن الصدقات تحرم عليهم دون غيرهم أما علمتهم أنه وقعت الوراثة والطهارة على المصطفين المهتدين دون سائرهم لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَحَمَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ

(١) سورة فاطر: الآية، ٣٢.

(٢) سورة فاطر: الآية، ٣٢.

(٣) سورة فاطر: الآية، ٣٣.

(٤) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

(٥) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢٢ ومسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٤ و ١٧.

وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١﴾ .

فصارت وراثه النبوة والكتاب للمهتدين دون الفاسقين، وفضل العترة على غيرهم لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالًا عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢) .

ثم خاطب سائر المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣) .

يعني بذلك الذين قرنهم بالكتاب والحكمة، وحسد الناس عليهم .

وقد فسر الله عز وجل اصطفاء العترة في الكتاب في اثني عشر موضعاً:

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٤) .

وهذه ثابتة في مصحف عبد الله بن مسعود ولا ريب إنها منزلة رفيعة جداً .

٢ - وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٥) .

٣ - ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ﴾ (٦) .

لقد أبرز النبي ﷺ علياً، والحسن والحسين وفاطمة صلوات الله وسلامه عليهم وعنق بقوله ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ نفس علي، ومما يدل على ذلك قول

(١) سورة الحديد: الآية، ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٣٤ .

(٣) سورة النساء: الآية، ٥٩ .

(٤) سورة الشعراء: الآية، ٢١٤ .

(٥) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣ .

(٦) سورة آل عمران: الآية، ٦١ .

النبي ﷺ: لينهين بنو وليعة، أو لأبعثن إليهم رجلاً كنفسي يعني علياً بن أبي طالب عليه السلام ولا ريب هذه خصوصية لا يلحقهم بها بشر سواهم.

٤ - إخراجهم ﷺ الناس من مسجده ما خلا العترة الطاهرة حتى تكلم الناس، قال العباس في ذلك: يا رسول الله تركت علياً وأخرجتنا؟ فقال ﷺ: «ما أنا تركته وأخرجتكم، ولكن الله عز وجل تركه وأخرجكم». وفي هذا بيان قوله لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى».

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

ففي هذه الآية منزلة هارون من موسى، وفيها منزلة علي من رسول الله ﷺ.

ومع هذا قال النبي ﷺ إلا أن هذا المسجد لا يحل إلا لمحمد وآله قالت العلماء: هذا البيان لا يوجد إلا عندكم أهل البيت ومن ينكر ذلك.

٥ - قول الله عز وجل: ﴿وَمَا تَدَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا﴾^(٢).

هذه الآية خصوصية لهم فلما نزلت قال ﷺ: لفاطمة عليها السلام هذه فذلك وهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب وهي لي خاصة دون المسلمين، وقد جعلتها لك لما أمرني ربي فخذها لك ولولدك.

٦ - قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٣).

وهذه خصوصية للآل دون غيرهم، فهذه المودة فريضة من الله تعالى على كافة المؤمنين لا يأتي بها أحد مؤمناً مخلصاً إلا استوجب الجنة لقول الله تعالى في هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٤).

قال أبو الحسن: حدثني أبي عن جدي عن آباءه، عن أمير المؤمنين علي بن

(١) سورة يونس: الآية، ٨٧.

(٢) سورة الشورى: الآية، ٢٦.

(٣) سورة الشورى: الآية، ٢٣.

(٤) سورة الشورى: الآية، ٢٣.

أبي طالب عليه السلام أنه اجتمع المهاجرون والأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن لك يا رسول الله مؤنة في نفقتك وفيمن يأتيك من الوفود وهذه أموالنا مع دماننا فاحكم فيها بارأ ما جوراً اعط ما شئت، وامسك ما شئت من غير حرج، فأنزل عليه تعالى الروح الأمين، فقال: يا محمد: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (١).

فخرجوا فقال المنافقون: ما حمل رسول الله ﷺ على ترك ما عرضنا عليه إلا ليحثنا على مودة قرابته من بعده إن هو إلا شيء افتراه في مجلسه فهذا بهتان عظيم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِأَ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَبَدَّحَ اللَّهُ الْبَطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢).

فبعث إليهم النبي ﷺ فقال: هل من حديث؟

قالوا: لقد قال بعضنا كلاماً غليظاً كرهناه، فتلا عليهم هذه الآية فبكوا واشتد بكاءهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣).

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٤).

قالوا: يا رسول الله قد عرفنا التسليم عليك، فكيف الصلاة عليك فقال عليه السلام: قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم، وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وقال الله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ (٥).

يعني آل محمد ﷺ ولم يسلم على آل أحد من الأنبياء عليهم السلام سواه.

(١) سورة الشورى: الآية، ٢٣.

(٢) سورة الشورى: الآية، ٢٤.

(٣) سورة الشورى: الآية، ٢٥.

(٤) سورة الأحزاب: الآية، ٥٦.

(٥) سورة الصافات: الآية، ١٣٠.

٨ - وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (١).

فقد قرن سهم ذي القربى بسهمه وبسهم رسوله، وهذا فضل أيضاً للال دون الأمة. وأما قوله: ﴿وَأَيْتَىٰ وَالسَّكِينِ﴾ (٢) فإن اليتيم إذا انقطع يتمه، والمسكين إذا انقطعت مسكنته لم يكن له نصيب من المغنم، وسهم ذي القربى إلى يوم القيامة قائم فيهم، الغني والفقير منهم سواء فقرن سهمهم بسهمه، وكذلك في الطاعة. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ﴾ (٤).

فجعل طاعتهم مع طاعة الرسول مقرونة بطاعته، وكذلك ولايتهم مع ولاية الرسول مقرونة بولايته، كما جعل سهمهم مع سهم الرسول مقروناً بسهمه في الغنيمة والفيء، فلما جاءت قصة الصدقة نزه نفسه ورسوله، ونزه أهل بيت رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالسَّكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥) فالصدقة محرمة على آل محمد وعلى محمد، وهي أوساخ أيدي الناس لا تحل لهم، لأنهم مطهرون من كل دنس ووسخ: فلما طهرهم الله واصطفاهم رضي لهم ما رضي لنفسه، وكره لهم ما كره لنفسه عز وجل، وتعالى وتقدس وتبارك وعظم شأنه ودام إحسانه.

٩ - وقوله تعالى: ﴿فَنَشَأُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦).

قال عليه السلام: فنحن أهل الذكر لأن الذكر رسول الله ﷺ ونحن أهله

(١) سورة الأنفال: الآية، ٤١.

(٢) سورة الأنفال: الآية، ٤١.

(٣) سورة النساء: الآية، ٥٩.

(٤) سورة المائدة: الآية، ٥٥.

(٥) سورة التوبة: الآية، ٦٠.

(٦) سورة الأنبياء: الآية، ٧.

حيث قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا﴾^(١) ﴿رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْكُمْ عَائِدَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾.

١٠ - وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾^(٢).

ففي هذا بيان واضح أنا من آله ولستم من آله، ولو كنتم من آله لحرم عليه بناتكم أن يتزوجها لو كان حياً، كما حرم عليه بناتي لأنها ذريته.

١١ - وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِن﴾^(٣).

فكان ابن خال فرعون فنسبه إلى فرعون بنسبه، ولم يصفه إليه بدينه، وكذلك نحن خصصنا إذ كنا من آل بولادتنا منه وتمم الناس بالدين فهذا فرق بين الآل والأمة.

١٢ - وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(٤).

فكان رسول الله ﷺ يجيء إلى باب علي وفاطمة رضي الله عنهما بعد نزول هذه الآية تسعة أشهر، كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات.

فيقول: الصلاة يرحمكم الله، فقال أبو الحسن: الحمد لله الذي خصنا بهذه الكرامة العظمى، فقال المأمون والعلماء: جزاكم الله أنتم أهل البيت عن هذه الأمة خيراً، فما نجد الشرح والبيان فيما اشتبه علينا إلا عندكم^(٥).



(١) سورة الطلاق: الآية، ١٠.

(٢) سورة النساء: الآية، ٢٣.

(٣) سورة غافر: الآية، ٢٨.

(٤) سورة طه: الآية، ١٣٢.

(٥) ينابيع المودة: الباب الخامس ص ٤٣.



الإمام الرضا عليه السلام بضعة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١).

﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(٢).

وجاء في الحديث الشريف المعروف باسم «حديث الثقلين».

«أيها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً، فينطلق بي وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز وجل وعترتي أهل بيتي».

ثم أخذ بيد علي فقال عليه السلام: هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض، فاسألهما عما خلفت فيهما»^(٣).

والإمام الرضا عليه السلام هو سليل هذه العترة الطاهرة وهو ملتقى أصيل للقيم الكريمة والمثل العليا التي يعتز بها كل كائن من بني الإنسان.

لقد كانت قيم الإمام العظيم مضرب المثل، في عصره فاستوعبت جميع لغاته وشاعت مواهبه وعبقرياته فاجتمع حوله العلماء والرواة ينهلون من نيمر علومه، ويسجلون ما يفتي به، وما يدلي من روائع الحكم والآداب.

وقد تحدثت الأنديّة والمجالس عن روعة دفاعه عن الفكر الإسلامي؛ التي

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

(٢) سورة طه: الآية، ١٣٢.

(٣) ورد هذا الحديث المشهور في صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢٢ وسنن الترمذي ج ٢ ص ٣٠٧ وسنن الدارمي ج ٢ ص ٤٢٢ ومسند أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٤ و ١٧ و ٢٦ و ٥٩ كما ورد في تاريخ ابن الأثير ج ٥ ضمن حديث الغدير ولسان العرب ج ٢ في لغة العترة.

تجلت في مناظراته واحتجاجاته على العلماء والفلاسفة من مختلف المذاهب والأديان. فلا غرو إن كان من بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله.

روى الحموي بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي قال: «سمعت وارث علم الأنبياء أبا جعفر محمد بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: حدثني سيد العابدين علي بن الحسين، عن سيد الشهداء الحسين بن علي، عن سيد الأوصياء علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ستدفن بضعة مني بأرض خراسان، ما زارها مكروب، إلا نفس الله كربته ولا مذنب إلا غفر الله ذنوبه»^(١).

وروى بإسناده عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «ستدفن بضعة مني بخراسان، ولا يزورها مؤمن إلا أوجب الله له الجنة وحرم جسده على النار»^(٢).

وروى بإسناده عن علي بن الحسين بن علي بن فضال قال: «حدثنا أبي، قال: «سمعت علي بن موسى الرضا وجاءه رجل فقال له: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله رأيت رسول الله في المنام كأنه يقول لي: كيف أنتم إذا دفن في أرضكم بعضي، واستحفظتم وديعتي وغيب في ثراكم نجمي؟ فقال الرضا عليه السلام: أنا المدفون في أرضكم وأنا بضعة من نبيكم، وأنا الوديعة والنجم، ومن زارني وهو يعرف ما أوجب الله من حقي وطاعتي فأنا وآبائي شفعاؤه يوم القيامة، ومن كنا شفعاؤه نجا ولو كان عليه مثل وزر الثقلين الجن والأنس، ولقد حدثني أبي عن أبيه، عن آبائه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأني في منامه فقد رأني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، ولا في صورة واحد من أوصيائي، وإن الرؤية الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوة».

(١) فرائد السمطين: ج ٢ ص ١٩٠ ونبايح المودة ص ٢٦٥.

(٢) فرائد السمطين: ج ٢ ص ١٨٨.

الإمام الرضا دائرة معارف

قال الأربيلي: «وأما ما روي عنه عليه السلام من فنون العلم وأنواع الحكم ومجمل الأخبار المجموعة، والمنثورة والمناظرات مع أهل الملل والنحل والتفسير والطب... فأكثر من أن تحصى»^(١).

وورد في الفصول المهمة عن لسان ابن الصباغ المالكي: «قال إبراهيم بن العباس سمعت العباس يقول ما سئل الرضا عن شيء إلا علمه، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقت عصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيبه الجواب الشافي»^(٢).

وفي السياق نفسه قال ابن شهر آشوب: «كان المأمون يمتحنه عن كل شيء بالسؤال فيجيب فيه، وكان كلامه كله وجوابه وتمثيله بآيات من القرآن الكريم. وقال إبراهيم بن العباس ما رأته سئل عن شيء قط إلا علمه...»

وقال محمد بن عيسى اليقطيني: لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا عليه السلام جمعت من مسائله مما سئل عنه وأجاب فيه ثمانية عشر ألف مسألة، وقد روى عنه جماعة من المصنفين منهم: أبو بكر الخطيب في تاريخه والشعبي في تفسيره، والسمعاني في رسالته، وابن المعتز في كتابه، وغيرهم»^(٣).

ومن العلماء الأجلاء الذين قدروا علم الرضا: أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي: «ما رأيت أعلم من علي بن موسى الرضا عليه السلام ولا رآه عالم إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له عدد من علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي منهم أحد إلا أقر له

(١) كشف الغمة: ج ٢ ص ٣٣٠.

(٢) الفصول المهمة: ص ٢٥١.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ ص ٣٥٠.

بالفضل وأقر على نفسه بالقصور، ولقد سمعته عليه السلام يقول: كنت أجلس في الروضة، والعلماء بالمدينة متوافرون فإذا عي الواحد منهم عن مسألة أشاروا إليّ بجمعهم، وبعثوا إليّ المسائل فأجيب عنها»^(١).

وروى القندوزي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام معه فقال عليه السلام: يا موسى ابنك ينظر بنور الله عز وجل، وينطق بالحكمة ويصيب ولا يخطيء، يعلم ولا يجهل قد ملئ علماء وحكمة»^(٢).

١ - من علومه عليه السلام معرفته باللغات:

إن التعرف على لغة قوم من الأقوام يعني التعرف على عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وتراثهم وحضارتهم، واللغة ليست إلا شعبة من شعب العلوم الاجتماعية التي يسير عليها أفراد أمة من الأمم في ثقافتهم والتعبير عما يجول بخواطرهم، ولا تختلف في هذه الناحية عن النظم الاقتصادية التي يسرون عليها في مبادلاتهم التجارية، والنظم الدينية في عباداتهم وعقائدهم، والنظم الأخلاقية في تمييزهم بين الخير والشر، والنظم العائلية من زواج وطلاق وإرث، والنظم السياسية فيما يتعلق بشكل الحكم وتوزيع السلطات والنظم القضائية التي يطبقونها في الجرائم والعقوبات.

فكما أن كلاً من هذه النظم الاقتصادية والخلقية والعائلية والسياسية والقضائية تنظم ناحية من العلاقات الاجتماعية، كذلك النظم اللغوية فإنها تنظم ناحية هامة من هذه العلاقات، وهي الناحية المتصلة بالتفاهم بين الأفراد والتعبير عما يجول بالخواطر، بالإضافة إلى أنها صلة الوصل بين الأدب والعلوم الاجتماعية، وجميع العلوم الأخرى في شتى النواحي الحياتية.

والإمام الرضا عليه السلام كآبائه عليهم السلام وكجده رسول الله صلى الله عليه وآله يكلم الناس بلغاتهم. روى أبو الصلت الهروي قال:

(١) كشف الغمة: ج ٢ ص ٣١٦.

(٢) المناقب: ج ٤ ص ٣٣٣ وكشف الغمة ج ٢ ص ٣٢٩.

«كان الرضا عليه السلام يكلم الناس بلغاتهم، فقلت له في ذلك فقال: «يا أبا الصلت أنا حجة الله على خلقه وما كان الله ليتخذ حجة على قوم وهو لا يعرف لغاتهم، أو ما بلغك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أوتينا فصل الخطاب» وهل هو إلا معرفته للغات».

وقال ياسر الخادم: «كان غلمان لأبي الحسن عليه السلام في البيت صقالبة^(١) ورومية.

وكان أبو الحسن عليه السلام قريباً منهم، فسمعهم بالليل يتراطنون بالصقالبية والرومية، ويقولون: إنا كنا نفتصد في كل سنة في بلادنا، ثم ليس نفتصد هاهنا. فلما كان من الغد وجه أبو الحسن إلى بعض الأطباء، فقال له: افصد فلاناً عرق كذا، وافصد فلاناً عرق كذا، وافصد فلاناً عرق كذا، ثم قال: يا ياسر لا نفتصد أنت. قال: فافتصدت، فورمت يدي واحمرت فقال لي: يا ياسر ما لك؟ فأخبرته، فقال: ألم أنك عن ذلك؟ هلّم يدك، فمسح يده عليها وتفل فيها، ثم أوصاني أن لا أتعشى، فمكثت بعد ذلك ما شاء الله لا أتعشى ثم أغافل فأتعشى فيضرب علي^(٢).

ومما روى عنه عليه السلام في معرفته اللغات ما قاله علي بن مهران:

«قال: إن أبا الحسن عليه السلام أمره أن يعمل له مقدار الساعات، قال: فحملناه إليه، فلما وصلنا إليه نالنا من العطش أمر عظيم فما قعدنا حتى خرج إلينا بعض الخدم ومعه قلال^(٣) من ماء أبرد ما يكون، فشربنا فجلس عليه السلام على كرسي فسقطت حصة، فقال: مسرور «هشت»^(٤).

ثم قال لمسرور: «دريند»^(٥) أي اغلق الباب.

(١) الصقالبية: جبل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم. معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٦.

(٢) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٢٧، ورواه الصفار في بصائر الدرجات ص ٣٨٣ وابن شهرآشوب في المناقب ج ٤ ص ٣٣٤.

(٣) القلة: الجرة أو الابريق.

(٤) هشت: أي ثمانية.

(٥) أي اغلق الباب المناقب: ج ٤ ص ٣٣٣.

ونظم هذه الظاهرة الشيخ محمد بن الحسن الحرقي أرجوزته:
وعلمه بجملة اللغات من أوضح الاعجاز والآيات

فراسته بالمغيبات:

قال حسن بن علي الوشاء:

١ - «كنت قد كتبت معي مسائل كثيرة قبل أن أقطع على أبي الحسن عليه السلام»^(١). وجمعتها في كتاب مما روي عن آبائه عليهم السلام وغير ذلك، وأحببت أن أثبت في أمره واختبره، فحملت الكتاب في كمي وصرت إلى منزله، وأردت أن آخذ منه خلوة فأناوله الكتاب فجلست ناحية وأنا أفكر في طلب الاذن عليه وبالباب جماعة جلوس يتحدثون، فبينما أنا كذلك في الفكرة في الاحتيال للدخول عليه؛ إذ أنا بغلام قد خرج من الدار في يده كتاب فنادى:

أيكم الحسن بن علي الوشاء ابن بنت الياس البغدادي؟ فقلت إليه، فقلت: أنا الحسن بن علي فما حاجتك؟ فقال: هذا الكتاب أمرت بدفعه إليك فهاك خذه، فأخذته، وتنحيت ناحية فقرأته فإذا والله فيه جواب مسألة مسألة فعند ذلك قطعت عليه وتركت الوقف»^(٢).

٢ - ومما جاء أيضاً في المناقب ما قاله سليمان الجعفري قال: «كنت عند أبي الحسن الرضا عليه السلام والبيت مملوء من الناس يسألونه وهو يجيبهم فقلت في نفسي: ينبغي أن يكونوا أنبياء فترك الناس، ثم التفت إلي فقال: يا سليمان إن الأئمة حلماء وعلماء يحسبهم الجاهل أنبياء وليسوا أنبياء»^(٣).

٣ - وقال محمد بن عبيد الله الأشعري: «كنت عند الرضا عليه السلام فأصابني عطش شديد فكرهت أن أستسقي في مجلسه فدعا بماء فذاقه، ثم قال: يا محمد اشرب فإنه بارد»^(٤).

(١) أي على إمامته، لأنه كان من الواقفية.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ص ٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٣٤.

(٤) المناقب: ج ٤ ص ٣٣٣.

٤ - وقال الحسن بن بشار: «قال لي الرضا عليه السلام: إن عبد الله يقتل محمداً فقلت عبد الله بن هارون يقتل محمد بن هارون؟ فقال لي: نعم عبد الله الذي بخراسان يقتل محمد بن زبيدة الذي هو ببغداد، فقتله»^(١).

٥ - وقال محمد بن أبي نصر: «بعثني الرضا عليه السلام في حاجة فأركبني دابته وبيتني في منزله، فلما دخلت في فراشي رددت الباب وقلت: من أعظم منزلة مني بعثني في حاجة وأركبني دابته وبيتني في منزله، قال: فلم أشعر إلا بخفق نعليه حتى دخل الباب ودخل عليّ وقال: يا أحمد إن أمير المؤمنين عليه السلام عاد صعصعة بن صوحان وقال: لا تتخذن عبادتي فخراً على قومك»^(٢).

٦ - يعطي عليه السلام بلا منه أي شيء يطلب إليه.

قال معمر بن خلاد: «قال لي الريان بن الصلت: أحب أن تستأذن لي على أبي الحسن فأسلم عليه، وأحب أن يكسوني من ثيابه وأن يهب لي من الدراهم التي ضربت باسمه، فدخلت على الرضا فقال لي مبتدئاً: إن الريان بن الصلت يريد الدخول علينا والكسوة من ثيابنا والعطية من دراهمنا، فأذنت له فدخل وسلّم فأعطاه ثوبين وثلاثين درهماً من الدراهم المضروبة باسمه»^(٣).

٧ - ومن أنبائه بالمغيبات:

قال حسين بن موسى بن جعفر «كنا حول أبي الحسن الرضا ونحن شبان من بني هاشم إذ مر علينا جعفر بن عمر العلوي وهو رث الهيئة، فنظر بعضنا إلى بعض وضحكنا من هيئته، فقال الرضا: سترونه من قريب كثير المال كثير التبع، فما مضى إلا شهراً ونحوه حتى ولي المدينة وحسنت حاله، فكان يمر بنا ومعه الخصيان والحشم»^(٤).

٨ - ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن الوشاء:

(١) إعلام الوری: ص ٣٢٣.

(٢) المناقب: ج ٤ ص ٣٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٤٠.

(٤) إعلام الوری: ص ٣٢٣.

قال: «خرجت من الكوفة إلى خراسان فقالت لي ابنتي يا أبة: خذ هذه الحلة فبعها وخذ لي بئسها فيروزجاً، فلما نزلت مرو فإذا غلمان الرضا عليه السلام قد جاؤا وقالوا: نريد حلة نكفن بها بعض غلماننا فقلت: ما عندي فمضوا ثم عادوا وقالوا: مولانا يقرأ عليك السلام ويقول لك معك حلة في السفط الفلاني دفعتها إليك ابنتك وقالت: اشتر لي بئسها فيروزجاً وهذا ثمنها»^(١).

٩ - كان عالماً بأحوال الجو:

قال حسين بن موسى بن جعفر: «خرجنا معه عليه السلام إلى بعض أملاكه في يوم لا سحاب فيه فلما برزنا قال عليه السلام: هل حملتم معكم المماطر؟ قلنا: لا، وما حاجتنا إلى المماطر وليس سحاب ولا نتخوف المطر، قال عليه السلام: قد حملته وستمطرون، قال: فلما مضينا إلا يسيراً حتى ارتفعت سحابة ومطرنا فما بقي منا أحد إلا ابتل»^(٢).

١٠ - الإمام الرضا بمنى:

قال مسافر: «كنت مع الرضا بمنى فمر به يحيى بن خالد مع قوم من آل برمك فغطى وجهه من الغبار، فقال الرضا عليه السلام: مساكين لا يدرون ما يحل في هذه السنة، ثم قال: وأعجب من هذا هارون وأنا كهاتين وضم بين إصبعيه السبابة والوسطى»^(٣).

والإمام عليه السلام يعلم ماذا يحل به مع هارون الخبيث المحتال.

١١ - قال حمزة بن جعفر الأرجاني: «خرج هارون من المسجد الحرام مرتين وخرج الرضا عليه السلام مرتين ويقول: ما أبعد الدار وأقرب اللقاء يا طوس يا طوس يا طوس ستجمعني وإياه»^(٤).

١٢ - ومن بين الأحداث التي أخبر عنها:

(١) المناقب: ج ٤ ص ٣٤١.

(٢) إعلام الوري: ص ٣٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢٦ والاتحاف بحب الأشراف ص ٥٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٢٣. ٣٢٦.

أنه لما خرج محمد بن الإمام الصادق عليه السلام بمكة، ودعا الناس إلى نفسه وخلع بيعة المأمون، قصده الإمام الرضا عليه السلام وقال له:

يا عم لا تكذب أباك، ولا أخاك - يعني الإمام الكاظم عليه السلام فإن هذا الأمر لا يتم، لكنه خرج، ولم يلبث إلا قليلاً حتى لاحقته جيوش المأمون بقيادة الجلودي، فانهزم محمد ومن معه، وطلب الأمان، فأمنه الجلودي وصعد المنبر وخلع نفسه، وقال: إن هذا الأمر للمأمون وليس لي فيه حق^(١).

١٣ - روى محول السجستاني قال:

لما جاء البريد بأشخاص الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان كنت أنا بالمدينة، فدخل المسجد ليودع رسول الله صلى الله عليه وآله فودعه مراراً كل ذلك يرجع إلى القبر.

ويعلو صوته بالبكاء والنحيب، فتقدمت إليه، وسلمت عليه، وهنأته فقال: ذرني فإنني أخرج من جوار جدي، فأموت في غربة، وأدفن في جنب هارون، قال: فرحت متبعاً طريقه، حتى وافى خراسان فأقام فيها وقتاً ثم دفن بجنب هارون^(٢).

فتحقق ما أخبر به، ومضى إلى خراسان، ولم يعد منها، واغتاله المأمون ابن هارون ودفن إلى جانب أبيه.

وأكد الإمام دفنه بالقرب من هاون في كثير من الأحاديث، فقد روى موسى ابن هارون قال: رأيت علي الرضا في المدينة في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وهاون الرشيد يخطب، قال عليه السلام: تروني وإياه ندفن في بيت واحد^(٣).

٤ - روى محمد بن عيسى عن أبي حبيب النباجي قال:

رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، قد وافى النباج^(٤) ونزل في المسجد الذي ينزله الحجاج في كل سنة وكأني مضيت إليه، سلمت عليه، وكان بين يديه

(١) البحار: ج ١٢ ص ١٣.

(٢) الاتحاف بحب الأشراف: ص ٥٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٩.

(٤) النباج: منزل الحجاج البصرة.

طبق من خوص فيه تمر صيحاني، وكأنه قبض قبضة من ذلك التمر فناولني بعددته فكان ثماني عشرة تمرة، فتأولت الرؤيا بأني أعيش بعدد كل ثمرة سنة فلما كان عشرين يوماً كنت في أرض تعمر لي بالزراعة إذ جاءني من أخبرني بقدوم الرضا من المدينة ونزوله في ذلك المسجد ورأيت الناس يسعون إليه، فمضيت نحوه فإذا هو جالس في الموضع الذي كنت رأيت رسول الله ﷺ فيه في المنام، وبين يديه طبق من خوص فيه تمر صيحاني فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، واستدنانني فناولني قبضة من ذلك التمر فعددته فإذا هو بعدد ما ناولني رسول الله ﷺ، فقلت: زدني يا ابن رسول الله، فقال: لو زادك رسول الله ﷺ لزدناك^(١).

وذكر الرواة بوادر كثيرة من الأحداث والملاحم التي أخبر عنها قبل وقوعها وهي تدل على ما منحه الله تعالى من أسرار العلم بمجريات الأحداث الذي خص به أوليائه الأبرار وعباده الصالحين.

درس من حكمه الخالدة:

لا يصدر الكلام الخالد على صدر الزمان إلا من إنسان حكيم يزن الأمور بموازينها من خلال عقل راجح وفكر ناضج علمته تضاريس الحياة وعثراتها تجارب غنية غدت فكره وأوسعت دائرة معارفه، ونمت بصيرته. من هنا كان تكريم الناس له في عصره واحترام الأجيال السالفة وتقديرها لحكمه الخالدة.

أضف إلى ذلك البيئة التي نشأ فيها والأسرة التي ترعرع في أحضانها ونهل من علومها وأخلاقها وعاداتها العريقة والأصيلة، فالعائلة المستقيمة الصالحة تنتج أشخاصاً مستقيمين صالحين، والعائلة المنحرفة عن الخط الإسلامي تنتج أشخاصاً منحرفين.

فكيف بالعائلة التي طهرها الله عز وجل من الرجس تطهيراً، فهي التي نشأ فيها الإمام الرضا عليه السلام وشرب من معينها وتخلق بأخلاقها، هذه الذرية الطاهرة هي ذرية الأنبياء التي وصفها الرسول الأعظم ﷺ فقال:

(١) كشف الغمة: ج ٣ ص ١٠٣.

إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صلبه خاصة وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب عليه السلام. وأجلس النبي عليه السلام الحسن على فخذه الأيمن والحسين على فخذه الأيسر وأجلس علياً وفاطمة الزهراء عليهما السلام بين يديه ثم لف عليهما الكساء ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ثم قال عليه السلام: هؤلاء أهل بيتي حقاً. ثم قال في الحسن والحسين عليهما السلام: هما ريحانتي في الدنيا، وهما سيدا شباب أهل الجنة، وقال فيهما عليهما السلام: هذان إمامان قاما أو قعدا، وهذان ابناي فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني.

والله عز وجل يختار من الناس رسلاً ليؤدوا رسالة السماء إلى الأرض فلا يحيدون عن الخط الإلهي المرسوم في القرآن الكريم فتحقق الغاية من الخلق وهي تكوين الإنسان الفاضل، وبناء المجتمع الأمثل على الأرض. وكما يختار سبحانه شخصاً لمثل هذه المهمة، فقد يختار لذلك جماعة، وقد يكونون أهل بيت النبي الذي اختاره الله، ذرية بعضها من بعض في سلسلة تستمر أجيالاً، فتكون وسيلة في يد الله يستودعها أمانته التي تنتقل في الأصلاب والأرحام، واحداً عن واحد حتى تصل إلى متنهاها.

أما لماذا أهل بيت النبي، فذلك واضح، لأن أولى الناس بحمل أمانة الإنسان هم أهل بيته، الذين يكونون الأقرب إليه، والذين يعيشون معه فيفهمونه أكثر من غيرهم، ويكون بذلك أقرب إلى مصدر الخير فيأخذون عنه العلم والفضل والخلق الكريم، فيكون بالتالي أولى بحمل الرسالة من سواهم، كما يكونون من صلبه أحياناً كثيرة ويرتبطون معه برابط الدم، ولهذا الرابط شأن في القرب الجسدي والقرب النفسي من النبي عليه السلام، ولم يكن عبثاً أن جعلت الرسالات السماوية هذا الرابط الدموي سبب إرث الإنسان لأبيه في اسمه وماله.

فإذا اجتمع رابط الدم مع الاختيار الإلهي لذرية نبي من الأنبياء أو بعضهم ليحملوا رسالة السماء، كان ذلك عاملاً مساعداً في فهم معنى آل النبي.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الرابط الدموي وحده لا يكفي، فها هو ابن النبي نوح

هلك بسبب عصيانه^(١).

فالظلم والطغيان يبعد الإنسان عن الولاية والإمامة حيث القرابة والرابط الدموي لا ينفع شيئاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْنَلْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤُوسَهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٧﴾.

فالعهد الإلهي من نبوة وولاية وإمامة لا تنال فقط بالرابط الدموي، بل لا بد من شروط أخرى ترافقها من عصمة وعدالة وتقوى. والإمام الرضا عليه السلام هو من هذه الأسرة الطاهرة المطهرة نهل من علوم آبائه وأجداده، وبصورة خاصة من جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وحفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

قال الإمام علي عليه السلام: لو ثبت لي الوسادة لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل بإنجيلهم، وأهل القرآن بقرآنهم. هذا إلى عقل يتسع لكل شيء وفراسة لا يكاد يخفى عليها شيء، وحكمة خالدة يتداولها الناس عبر العصور، وبلاغة ليس فوقها إلا بلاغة القرآن.

إن هذا العلم والعقل، وهذه الحكمة الحكيمة، وهذه البلاغة البليغة قد جعلت من الإمام عليه السلام مرجعاً في جميع العلوم الإسلامية، ومصدراً للتشريع وقدوة صالحة لكل مذهب من مذاهب المسلمين. ولقد استعان بنور علمه وسمو حكمته كل عالم وأديب، واحتج بقوله وبلاغته كل كاتب ومؤلف. كما كان عالماً بالأصول والأنظمة التي قررها القرآن الكريم والرسول الأعظم عليه السلام، والتي تحقق للناس جميعاً الرخاء والأمان والسعادة، فحرص عليها وأمر الناس على اتباعها.

والأحرى بأوصيائه وأبنائه أن ينهلوا من هذا المعين الخصب؛ والإمام الرضا عليه السلام سار على منهج جده وتخلق بأخلاقه، وعمل بالأصول والمبادئ التي رسمها، من تلك الأصول:

تعاليم في الإدارة والسياسة والاقتصاد والفقهاء والاجتماع، والآن سوف

(١) راجع سورة هود: الآية، ٤٥. ٤٦.

(٢) سورة البقرة: الآية، ١٢٤.

نسرد بعض الحكم التي أشرت عن الإمام عليه السلام على سبيل الذكر لا الحصر، والتي حفلت بروائع الفكر والآداب والأخلاق.

١ - قال عليه السلام :

«إن للقلوب إقبالاً وادباراً، ونشاطاً وفتوراً، فإذا أقبلت بصرت، وفهمت، وإذا أدبرت كلت وملت، فخذوها عند إقبالها ونشاطها؛ واتركوها عند ادبارها وفتورها»^(١).

القلب، وما أدراك ما القلب! حملوه عدة صفات فوق وظيفة العضوية، مثل الشجاعة والطيبة والحنان والحب والحزن والقوة والاقبال والادبار. لكنه يقبل وينشط، ويبصر ويفهم، ثم يدبر ويفتر ويكل ويمل بأشراف العقل، القوة المهيمنة والمحركة لكل أجهزة الجسم، على أي حال علينا أن نتحين الفرص المناسبة التي نمر بها فنستغل القلوب عند الاقبال والنشاط لنعطي بجد ومهارة واتقان، ونتركها عند الادبار والفتور لأنها تكل وتمل فلا تعطي عطاءً جيداً وهذا ما يحدث معنا في كل وقت في حياتنا الخاصة والعامة.

٢ - في حقل السياسة الرضوية :

قال عليه السلام : «اصحب السلطان بالحذر، والصديق بالتواضع، والعدو بالتحرز، والعامة بالبشر»^(٢).

إن مصاحبة السلطان، في أي عصر، وخاصة في العصر العباسي خطر منتظر على التابع في كل يوم، فهنا واجب الحذر الذي لا بد منه، والصديق رفيق الطريق لا تحلو الحياة بدونه، ولربما كان أفضل من الأخ وأفضل صفة في الصديق الصدوق التواضع.

كما حذر الإمام عليه السلام من العدو الذي يجب التيقظ من مكائده وشروبه، أما العامة من الناس فعلى كل فرد البشاشة لهم والترحيب بهم وإجابتهم بالكلمة الطيبة والوجه البشوش.

(١) أعيان الشيعة.

(٢) المصدر نفسه.

كل هذه الصفات تجعل من حاملها مواطناً محبوباً ناجحاً في حياته العائلية والاجتماعية، وسياسياً محترفاً له جماهيره وأنصاره.

٣ - وقال عليه السلام :

«من تعرض لسultan جائر فأصابته منه بلية لم يؤجر عليها، ولم يرزق الصبر فيها»^(١).

وأظن أن هذه النصيحة من خلال تجربته عليه السلام مع المأمون، فقال بالبعد عن السلطان الظالم لأن القرب منه بلاء على أي حال، فإن أصابت بلية لم يؤجر عليها ولا يستطيع الصبر عليها فالبعد أنفع وأنجح.

٤ - وقال عليه السلام :

«يأتي على الناس زمان تكون العافية فيه عشرة أجزاء، تسعة منها في اعتزال الناس، وواحد في الصمت»^(٢).

وهذه تجربة أخرى عاناها الإمام عليه السلام في عصره الذي يطفح بالظلم ويضج بالمؤامرات والخيانات والرياء. ففضل إما الاعتزال عن الناس عامة؛ لأن أكثرهم نامون خداعون، وإما الصمت، يرى ويسمع ولا يتكلم، تقية له.

٥ - وقال عليه السلام :

«من لم يتابع رأيك في صلاحه، فلا تصغ إلى رأيه»^(٣).

وهذا أمر طبيعي وواقعي، لأن إصغاءك إلى رأيه إضاعة للوقت وعدم فائدة له في صلاحه. وقد يكون عدم متابعتك لرأيك إما خوفاً من السلطان وإما رغبة في نواله. فالأصلح تركه.

٦ - وقال عليه السلام :

قال للحسن بن سهل في تعزية: «التعزية بآجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة».

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ١٨١.

(٢) تحف العقول: ص ٤٤٦.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٥٦٣.

وهذه الحكمة من الإمام هي من خلال تجاربه الشخصية في حياته، فإذا كنت تحب شخصاً فهنته بأجل ثوابه قبل إن تعزیه بعاجل مصيبته. كما قد يكون الصبر على المصائب الحاضرة سبباً وجيهاً لكسب الكثير من الثواب في الحياة الآجلة.

٧ - وقال عليه السلام :

«إن البراءة من أبي موسى الأشعري من محض الإسلام، وأنه من كلاب أهل النار».

هذا الحديث جاء بعد مهزلة التحكيم التي كان بطلاها عمرو بن العاص من قبل معاوية المعروف بدهائه وخبثه وأبي موسى الأشعري من قبل أصحاب علي وكما هو معروف أن عمرو احتال على أبي موسى وعزل علي عن الخلافة وتسلم معاوية.

وبعد هذا الخداع ألا يحق للإمام الرضا عليه السلام ولكل المسلمين المؤمنين أن يعلنوا البراءة من أبي موسى ويكون من كلاب النار؟! وإن من شارك الظالم على ظلمه كان ظالماً. وكل الناس العامة والخاصة يعلمون إن الحق مع علي وعلي مع الحق على حد قول الرسول الأكرم. والجهل بمعرفة القانون لا يعفي صاحبه من العقاب.

٨ - وقال عليه السلام :

«الغوغاء قتلة الأنبياء».

غوى: وغياً وغواية: أمعن في الضلال وفي التنزيل: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾^(١) أي ضلالة وخبية، أو غياً عن طريق الحق والجنة وقيل الغي: واد في جهنم وجاء في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(٢) أي أهل الهوى والضلالة. وفي حديث موسى لآدم: «أغويت الناس وأضللتهم» أي الذين خابوا وضلوا.

(١) سورة مريم: الآية، ٥٩.

(٢) سورة الشعراء: الآية، ٢٢٤.

وفي الدعاء: «وأعوذ بك من كل لص غاو» والمقصود هنا الشيطان، أي المضل وغير مرشد.

ومنه حديث السفر: فيه غاو وتفسيره الشيطان، وأغواه الشيطان: أضله. والغوي الذي يحمل الناس على الغواية والجهل^(١).

وطبيعي أن مثل هؤلاء الأشرار يتدرجون بالشر حتى إذا قرنوا على ذلك وتمهدت لهم الأمور تكون همتهم القضاء على الرسل، لأنهم يعتقدون أنهم يشلونهم عن أعمالهم ويؤلبون الناس عليهم. والمقصود بهؤلاء اليهود جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾^(٢).

تفيد هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤا بغض من الله لعاملين:

الأول: لكفرهم بآيات الله، وانحرافهم عن خط التوحيد.
الثاني: لقتلهم الأنبياء بغير حق.

وإن ظاهرة الانحراف عن خط التوحيد وظاهرة القسوة والفظاظة والاجرام صفات متأصلة في نفوسهم حتى اليوم، عند جميع هؤلاء القوم، والمثل الواضح ما ارتكبه هؤلاء القوم في لبنان وفي فلسطين المحتلة، من أعمال وحشية ذهب ضحيتها الآلاف من المدنيين الأبرياء العزل، خلال مجازر وحشية قل أن شهد لها التاريخ نظيراً. لكن بعون الله سيدفع هؤلاء المجرمون الثمن غالباً لفعلتهم الشنعاء هذه: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

والأمثلة كثيرة على انحراف اليهود وكفرهم، قتلة الأنبياء جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفِينَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا

(١) من لا يحضره الفقيه ج ٢ ص ١٨٢.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٦١.

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

فاليهود لم يؤمنوا بالإنجيل ولا القرآن، بل إنهم يدورون حول محور (العنصرية والمصالح الذاتية) فتجروا على رفض الدعوة التي جاءت تصديقاً لما معهم في التوراة.

ثم يكشف القرآن الكريم زيف ادعائهم وكذبهم مرة أخرى حين يقول لهم:

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

فهم يدعون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الأنبياء؟! وهذا الذي يقوله بنو إسرائيل: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ .

فهم يطلقون من روح فردية ذاتية وهي تخالف روح التوحيد الذي يستهدف القضاء على كل المحاور الذاتية في حركة الإنسان ومواقفه، وتكريس نشاطات الفرد حول محور العبودية لله لا غير. وبعبارة أخرى فعبارة:

«ما أنزل الله» تحمل مفهوم نفي كل ذاتية بشرية في الرسالة، بما في ذلك ذات النبي المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم موسى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام. بل التأكيد على الإيمان بما أنزل الله تعالى. ولا غرو في ذلك فانحرافهم وزيفهم وضلالهم متكررا أكثر من مرة، فقد كانوا وما زالوا هم أنفسهم والقرآن الكريم يعرض وثيقة أخرى لإدانة اليهود ولكشف زيف ادعائهم فيقول: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ .

فتأمل هذا الانحراف المنكر نحو عبادة العجل بعد أن جاءكم البينات إن كنتم في إيمانكم صادقين؟! .

فلو كنتم آمنتم به حقاً، فلم تبدل إيمانكم إلى كفر عند غياب النبي موسى عليه السلام وذهابه إلى جبل الطور؟ وبذلك ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم والأجيال المتعاقبة بعدكم؟! .

(١) سورة البقرة: الآية، ٩١.

واليوم الذي شهدناه في مجازر لبنان ونشهده حالياً في فلسطين المحتلة، هو دليل قاطع على فظاعة اجرامهم وكفرهم وانغماسهم في حب الدنيا. ومن هنا كان الجهاد ضدهم أمر مقدس، وهذا ما دفع السيد موسى الصدر إمام المحرومين إلى القول: قاتلوا اليهود ولو بأظفاركم.

ومن هنا كان قول الإمام الخميني: إسرائيل غدة سرطانية يجب اجتذاذها.

في رحاب الحكم الرضوية الاجتماعية:

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

١ - «إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن متعظ، فأما صاحب سوط وسيف فلا»^(١).

فمن هم المؤمنون في تعريف الإسلام؟ لقد وصفهم الله عز وجل في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢).

لا إكراه في الدين، هكذا يدعو الإسلام سائر الناس للدخول في الدين الحنيف طوعاً بإرادتهم لا كرهاً منهم، لأنه يحترم الشخصية الإنسانية والحرية الفردية. وإذا ما قلبنا صفحات التاريخ نرى أن الخلفاء والأمراء والولاة والملوك الذين حكموا بالسوط والسيوف قد ذهبوا وفشلوا وأصبحوا لعنة على كل لسان مؤمن حر شريف. أما الذين حكموا بالقسط والعدل حسبما تأمر الشريعة الإسلامية؛ فقد خلد التاريخ أسماءهم ويذكرهم الناس بالرحمة والمحبة والتقدير.

فأين الحجاج بن يوسف، وغيره من الحكام الأمويين والعباسيين الظالمين

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ١٨١.

(٢) سورة المؤمنون: الآيات، ١ - ١١.

الذين حكموا بالسوط والسيف؟ وأين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة المعصومين الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر لقد بقي ذكرهم عالياً محترماً فواحاً يتعطر بذكرهم كل المؤمنين الطاهرين، وهذا ما دعا إليه الإمام الرضا عليه السلام لسلوك هذا المسلك الاجتماعي السليم.

٢ - وقال عليه السلام :

«إن مشى الرجال مع الرجل فتنة للمتبوع ومذلة للتابع»^(١).

لقد خلق الله الإنسان حراً، وميزه بالعقل ليدبر شؤون حياته برصانة وتعقل وكرامة. ومنحه العزة ليصون نفسه من الذل، ويبقى مرفوع الجبين فلا يكون تابعاً لأحد لأن تابعيته تذله وترفع من قدر المتبوع. وهنا علينا أن نتفحص أمر المتبوع وصفاته وسيرته هل هو من المؤمنين الصالحين، السائرين على الخط الإسلامي السليم والذين يعرفون الحق ويتمسكون به بلا تهاون ولا هوان؟.

أم أنهم من الذين غرتهم المناصب وبهرجة الحياة الدنيا فتأهوا وتعالوا، وأكثروا من الخدم والحشم وأسرفوا في دفع المال ليكثروا حولهم التابعين والمعوزين؟.

علينا أن ندرس أمر المتبوع ونكون على بينة من أمره، وعند ذلك نقرر، أن المؤمن يرى تسلمه السلطة مسؤولية كبرى وأمانة ثقيلة على كتفه وعليه أن يؤديها بصدق وإخلاص وتجرد، مفضلاً مصالح الأمة على مصالحه الخاصة، فيعيش لغيره قبل أن يعيش لنفسه، ولنا بالأئمة المعصومين أسوة حسنة فهم المثل الأعلى لنا في جميع شؤونهم وتصرفاتهم. فلم تخذعهم المناصب ولم يغرهم لا السلطان ولا المال لأنهم اعتبروا هذه الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر. فرضوان الله عليهم أجمعين.

٣ - وقال عليه السلام :

«صاحب النعمة يجب أن يوسع على عياله»^(٢).

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ١٨١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٣٣٥.

أغدق الله بنعم غفيرة على الإنسان من نعم الفكر ونعم المال ونعم الصحة ونعم الملك والسلطان إلى غير ذلك من نعم لا تحصى ولا تعد، وعلى صاحب هذه النعم الكثيرة أن يعطي مما أنعم الله عليه حسب قدرته وامكانياته فينفق في سبيل الله على المحتاجين عامة وعلى عياله بصورة خاصة، فهو يعد رب أسرة وعليه الانفاق على أفراد أسرته. وقد رغب الله عز وجل في هذا الانفاق ووعد المنفقين من عباده الصالحين بحسن المثوبة والأجر العظيم في الآخرة. زد على ذلك محبة الناس له في الحياة الدنيا وتقديرهم لاندفاعه في سبيل الآخرين من عياله واخوانه وأصحابه. والآيات الكريمة التي دعت للإنفاق في سبيل الله كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَجَّ سَتَائِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

فهذا تشجيع واضح لمن ينفق أمواله في سبيل الله على المحتاجين عامة وعلى عياله خاصة. ولا ننسى أن العمل في سبيل العائلة هو نوع من الجهاد الذي دعا إليه الإسلام.

٤ - وقال ﷺ :

«التودد إلى الناس نصف العقل»^(٢).

الإنسان الودود هو الإنسان المحب، وإن يكون الإنسان محباً أمر عظيم ولكن الأعظم أن يكون محبوباً، وحتى يكون كذلك عليه أن يتودد إلى الناس. والود نحو الآخرين صفة نبيلة، وفضيلة جلييلة تنبعث من عاطفة صادقة تدفع صاحبها على الدوام إلى محبة الجميل في أي إنسان تمثل، وإلى تفضيل الجليل من أي مكان صدر، ومحبة كل كريم وقويم من الأشياء والأحياء إلى درجة العشق.

لكن علينا أن نعرف جيداً من يستحق ودنا ومحبتنا، ونكرم من يكون من

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٦١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٣٣٥.

أهل التكريم، ونبجل من كان من أهل الاجلال والاكبار.

وكما نعلم جميعاً أن الإسلام هو دين العدل والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط كل شيء خلقه تعالى بمقدار. وعلينا نحن تقدير ذلك المقدار، حيث يجب أن نأخذ ما يلي حاجاتنا بتعقل وروية وحكمة.

ولكن هناك أشياء يحبها الناس فيحرفون في حبها، وعندها لا يسلمون من المؤاخذة والحساب. أما المحبة المثلى التي دعا إليها القرآن المجيد هي تلك التي تجعل صاحبها متفتح القلب والعقل لتمجيد ما يستحق التمجيد، وفي قمة هذه الصفات وأعلى درجاتها محبة الله تعالى، ثم محبة الرسول الأكرم محمد عليه السلام ثم محبة المؤمنين من عباده الصالحين. هؤلاء علينا أن نتودد لهم ونحبهم ونصادقهم.

فعلينا إذن أن نحب الله ونبغضه، ونعطي في سبيل الله ونتودد إلى عباد الله الصالحين. قال الرسول الكريم عليه السلام: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله» أي أن نجعل حبنا للشيء متفقاً مع رضى الله تعالى، وبغضنا له متفقاً أيضاً مع بغضه سبحانه وتعالى.

وهذا الود إلى الناس على هذا الشكل يدوم ويستمر لأنه خالص لوجه الله عز وجل وما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل. وهذا بلا ريب نصف العقل على حد قول الإمام الرضا عليه السلام وإن من علامات رضى الله على الإنسان المؤمن محبة الناس له.

لكن على الأخ الأكبر لن يكون كبيراً أبمكارم أخلاقه وكبيراً بعقله وكرمه.

٥ - وقال عليه السلام:

«لم يخنك الأمين ولكن ائتمنت الخائن»^(١).

الأمانة حمل ثقيل على كتف المؤمن عليه أن يؤديها إلى أهلها، وهي ترتبط

(١) المصدر السابق.

ارتباطاً مباشراً بالضمير الحي الذي يدفع بالإنسان إلى القيام بواجباته الشرعية قياماً سليماً. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(١).

وقد أمر الله عباده أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها باخلاص ومحبة وطواعية قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٢) والأمين مخلص صادق وفي، لا يغش ولا يخون بل يحافظ على حقوق أخيه المؤمن محافظة على نفسه فعلينا أن نأتمنه ونتعامل معه.

أما الخائن فقد حذرنا الإمام الرضا عليه السلام من معاملته، لأنه يفسد ويؤذي، من هنا كان من واجباتنا الأساسية حسن اختيار الصديق فلا نتعامل إلا مع الصادقين المؤمنين ونحذر الخائنين الكاذبين.

وقال عليه السلام: «إن الله يبغض القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» جاء في المثل: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك» فاحترام الوقت واستغلاله لصالح الفرد والجماعة أمر مهم جداً تعتمد الدول الحضارية المتطورة. فالقيل والقال إضاعة للوقت وبالتالي إضاعة من عمر الإنسان فعلينا أن نعمل بجِد وإخلاص، والله ورسوله والمؤمنون يراقبوننا كيف نعمل قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِي وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَارِدُونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُنشَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) وإضاعة الوقت تؤدي بلا ريب إلى إضاعة المال، وإضاعة المال تسبب ضنك العيش وذلة السؤال.

إن كثرة السؤال إذا كانت من أجل التحصيل والمعرفة فلا بأس من سماع السائل وإجابته على أسئلة، أما إذا أكثر السائل من أسئلة غير مدروسة وغير موضوعية فلا فائدة من الإجابة عنها ولذلك، يبغضها الله لعدم جدواها وعدم

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٧٢.

(٢) سورة النساء: الآية، ٥٨.

(٣) سورة التوبة: الآية، ١٠٥.

فائدتها. فعلينا جميعاً أن نستفيد من وقتنا الثمين ونكسب عيشنا بالمال الحلال، وبذلك نحفظ أنفسنا من كثرة السؤال والذل والهوان.

٦ - وقال عليه السلام:

«إنا أهل بيت نرى وعدنا علينا ديناً كما صنع رسول الله»^(١).

هذه الصفة: صدق الوعد، وصف بها الله عز وجل الأنبياء عليهم السلام ومنهم نبي الله إسماعيل قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٢).

ثم وصف أهل البيت بهذه الصفة النبيلة الكريمة، فهم أهل النبوة، نهلوا صفاء الدين وطيب الخلق وحصن المعرفة من الرسول الأكرم جدهم الحبيب عليه السلام.

وصدق الوعد يولد المحبة بين أفراد المجتمع ويوحد صفوفهم ويجمع كلمتهم. ولا خير في أمة لا يتحلى أبناؤها بصدق الوعد مع أنفسهم ومع غيرهم من الأمم الأخرى، وعندما تفقد هذه الصفة في أي مجتمع يحل محلها عدم الثقة وفقدان التعاون والانحلال في الروابط الاجتماعية.

لذلك ركز الإمام الصادق عليه السلام على هذه الصفة الكريمة لأنه وجدها ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامي الذي ينال حظاً عظيماً واهتماماً بالغاً في الأسرة والمدرسة والجامعة، لأن بها ترد الحقوق لتوضع في محالها، ومنها يحصل الخير العميم. وقد دعانا الرسول الأعظم، رسول المحبة والرحمة إلى قول الصدق في جميع أعمالنا وأقوالنا وتصرفاتنا فقال عليه السلام: «عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً؛ وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى

(١) تحف العقول: ص ٤٤٦.

(٢) سورة مريم: الآية، ٥٤.

الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(١).

وأهل البيت هم المثل الأعلى في صفاتهم وحركاتهم وأعمالهم، ولقد وضعهم الصحابة والتابعون من أرباب الفكر في المكانة العليا التي وضعهم الله فيها ورسوله فمدحهم بألطف المدائح ووصفهم بأنبئ الصفات^(٢).

٧ - وقال ﷺ :

«عونك للضعيف أفضل من الصدقة»^(٣).

من مميزات الحياة الاجتماعية الراقية التعاون على الخير العام؛ للنهوض بالحياة الروحية إلى المستوى الراقي الذي يؤدي بلا ريب إلى التخفيف من آلام الغير والمشاركة الوجدانية العميقة.

وقد كان لمبدأ التعاون نصيب وافر من العناية في القرآن الكريم، حيث دعا جميع المسلمين للتعاون المثمر المبني على البر والتقوى قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّيرِ وَالتَّمَدُّونَ وَالتَّقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤) يشرح من هذه الآية الكريمة أروع المعاني الروحية، فالبر يأتي بمعنى البر والطاعة، والصدق والصلاح، فهو كلمة جامعة لكثير من الفضائل الإنسانية والشمال الكريمة. والتعاون على البر والتقوى يتناول المؤازرة في كل عمل ينتج عنه الخير، سواء مما ينهض بأحوال الأمة في هذه الدنيا، أو يكون من وسائل النجاح والسعادة في الدار الآخرة. كما نهانا سبحانه وتعالى عن التعاون من أجل الاثم والعدوان.

والتعاون للضعيف أمر ضروري في الحياة الإنسانية فعلى المؤمن مساعدة اخوانه من عباد الله، لأن الله سبحانه أراد للمؤمنين العزة والكرامة ورفض لهم الذل والإستكانة. إن كرامة المؤمن ليست ملكه الشخصي يتصرف بها كيف يشاء؛

(١) رواه مسلم.

(٢) راجع بتاييع المودة: ج ٢ ص ٧٨ و ج ٣ ص ٣٨ وشواهد التنزيل ج ٢ ص ١٩٧.

(٣) تحف العقول: ص ٤٤٦.

(٤) سورة المائدة: الآية، ٢.

إنها من كرامة الله عز شأنه ولا يتحقق النصر إلا بالتعاون والتآزر، لنصبح كما طلب منا ربنا كالبنيان المرصوص، الذي يبقى عزيزاً كريماً مصوناً مهياً.

والمؤمن الذي يشعر مع أخيه المؤمن؛ فيساعده في حاجاته ويعينه في أموره يكسب المحبة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

وفي كتاب أمير المؤمنين الذي أرسله لعامله على مصر مالك الأشر يقول فيه: «وأشعر قلبك الرحمة للريعية، والمحبة لهم، واللطف بهم فإنهم صنفان: إما أخ في الدين أو نظير لك في الخلق...»

فأعظمهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، وولي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك!..»

وهذا هو جوهر الدين الإسلامي تعاون وتآخ ورحمة ومحبة.

٨ - وقال عليه السلام:

«لا تبذل لآخوانك من نفسك ما ضره عليك أكثر من نفعه لهم»^(١) من أعظم الصفات التي يتحلى بها الإنسان للنهوض بالحياة الاجتماعية إلى المستوى الراقى الرفيع تقديم الخير للإنسانية: الإيثار. والإيثار هو شعار النفوس الكبيرة الهادفة للخدمة العامة ومصصلحة الغير.

وعلى العكس من ذلك الأنانية التي وصفها الفلاسفة أنها شر كبير في الإنسان يرافقه منذ الولادة، وقد سموها: الحب الذاتي الذي ركبته فيهم الطبيعة. ولكن ذلك لا يمنع أنه من أفرط فيه صار العلة العادية لجميع خطايانا.

من هنا كان للإيثار الأثر البالغ في توثيق عرى المحبة بين أفراد المجتمع الواحد، لذا مدح الله في كتابه العزيز الذين تخلقوا بالإيثار ودعانا إليه.

قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

(١) وسائل الشيعة: ج ١١ ص ٥٤٤.

(٢) سورة الحشر: الآية، ٨٩.

وهنا يجب أن نميز بين الإيثار والأثرة. قال قوم: إن الإنسان بطبيعته لا يبعثه على العمل إلا حبه لنفسه وطلبه للذة لها. وهذه هي الأثرة وقد أوضح علماء النفس الفرق بين الأثرة والإيثار. فقالوا: إن كل عمل يعمل إنما يعمل بناء على غريزة من غرائز الإنسان والدافع هو الغريزة، وكل عمل يعمل إجابة لطلب الغريزة يشعر الفرد بلذة عند حصوله ويعد هذا العمل إيثاراً إذا كان العمل يجد لذة في عمل الخير للناس عامة.

أما إذا كان يجد لذة في عمل يعمله لنفسه فذلك أثرة. مثل الطبيب الذي يرغب في لفت نظر الناس إليه والاعجاب به. فهو يتلذذ من الثناء عليه شخصياً وإعجاب الناس به. فعمله عندئذ يكون أثرة لا إيثاراً. لأن الإيثار يعتمد على الغاية النبيلة التي يراد تحصيلها. وهي اسعاد الناس عامة.

لكن إذا كان هذا الإيثار وبذل الخير لآخواتك يجلب عليك المضرة أكثر من نفعه لهم فهذا لا يجوز لأنه يناقض الغاية التي من أجلها كان عمل الخير. فمضرة نفس من أجل منفعة نفس أخرى لا تجوز أبداً. وهل يرضى المنتفع منك من أصحابك بمضرتك من أجله. لا أظن أن ذلك يحصل. قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» فالأخ المؤمن من الذي أحبه وأحافظ عليه وأراعي مصالحه عليه هو أيضاً من جانبه أن يحبني ويخلص لي ويغار على مصالحي. من هنا كان قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك».

وقال عليه السلام:

٩ - «من كثرت محاسنه مُدح بها استغنى عن التمدح بذكرها».

جاء في لسان العرب مدح: أثنى على الممدوح بماله من صفات، وتمدح: يكلف أن يمدح ويقال: هو يتمدح إلى الناس: يطلب مدحهم وقرظ نفسه وأثنى عليها، وافتخر بما ليس عنده.

والرجل الفاضل يعمل الخير في سبيل الله لا يريد منا من أحد، يعمل الخير من أجل الخير وليس ليظهر أمام قومه بالكرم ويصبح عندهم أحدوثة، لأن بذلك يضيع إحسانه ويضيع أجره ويخسر محبة الناس له.

أما الذي يحسن إلى الناس تقرباً من الله ومحبة بهم فسرعان ما تعود منفعته إلى نفسه. قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(١).

وهنا يشعر المحسن بطمأنينة لا يشعر بها غيرهم، ويكفي ما يقابل به من المحسن إليهم من المحبة والود والتقدير مما يدخل السعادة إلى نفوسهم. بينما المسيء يكون منبوذ في مجتمعه لا يهنأ له عيش ولا يقر له قرار.

وعلماء الأخلاق يقولون إن الإحسان خلق جامع لجميع أبواب الحقائق فيه لب الإيمان وروحه. وأحسن تعريف للإحسان ما قاله سيد البلغاء والمرسلين النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والإحسان هو كمال الحضور مع الله تعالى، والاخلاص له، والتجرد له، وقد رغب الله سبحانه في الإتيان بالحسنات بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

لذلك من كثرت مدائحه ومدح بها فلا حاجة إلى سائر الناس ليتمدحوا بأعماله وحسناته، فقد استغنى عنهم جميعاً واكتفى بأن يقرض الله قرضاً حسناً. وهل هناك أكرم وأعظم من هذا الذي نقرضه؟ إنه العليّ القدير، الرحمان الرحيم، رب العالمين، فاطر السماوات والأرض وصاحب العرش العظيم، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣).

فهل بعد ذلك يحتاج المحسن للتمدح من الذين يحسن إليهم؟ إنه يقرض رب العالمين الغني عن العالمين حيث له ملك السماوات والأرض ومن فيهن. ولو شاء لأغنى فقيراً وأفقر غنياً وأعطى الملك لمن يشاء وحرمه عمن يشاء، ومن أحسن في سبيل الله لا حاجة لمدح أتمدح أحد من عباد الله.

(١) سورة الإسراء: الآية، ٧.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ١٦٠.

(٣) سورة البقرة: الآية، ٢٤٥.

والاحسان الذي دعا إليه الله عباده المؤمنين هو غاية ما تصبو إليه الحضارة الإنسانية لاقرار السلام فيها، ونشر المحبة والتعاون والايثار بين أفراد المجتمع. فأبي سلام يعم العالم إذا تخلقوا بأخلاق القرآن المجيد، ذلك الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه. وما أحرانا أن نتخلق بهذه الأخلاق الكريمة التي تخيلها الفلاسفة في المدينة الفاضلة^(١)، وطبقها الإسلام في أول عهده.

في رحاب التربية الرضوية:

١ - قال عليه السلام: «الأخ الأكبر بمنزلة الأب».

إن التضامن بين أفراد العائلة أمر ضروري على صعيد الإصلاح الاجتماعي، فالأسرة الصالحة تعطي مجتمعا صالحا. والأخ الأكبر يقوم بدور هام في غياب الأب، رب الأسرة، فيسد فراغ أبيه ويدير شؤون الأسرة تجاه أخوته وأخواته لذلك وجب على الأخوة والأخوات احترامه وتلبية طلباته، وهذا ما أكد عليه الإمام الرضا عليه السلام في المحافظة على تماسك الأسرة الواحدة وتعاونها فيما يعود عليها باليمن والسعادة.

٢ - وقال عليه السلام:

«ما من شيء من الفضول إلا ويحتاج إلى فضول من الكلام» الفضول: هو ما لا فائدة فيه، يقال هذا من فضول الكلام، واشتغال المرء أو تدخله فيما لا يعنيه، أما عند الأطباء: ما يخرج من البدن بدون معالجة.

من هنا كان كلام الإمام الرضا عليه السلام أن ما من كلام يصدر من فضولي إلا ويحتاج إلى فضول من الكلام. لأنه لم يصدر عن تعقل وحكمة فالكلام الذي لا فائدة فيه يرد عليه بكلام يماثله، وكما جاء في المثل: الكلام صفة المتكلم، والإناء ينضح بما فيه.

(١) راجع جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي.

٣ - وقال عليه السلام :

«السخي يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه».

السخاء هو طبع في نفوس البشر يكسبه الفرد من تربيته البيتية، وترسخ هذه العادة الكريمة في نفسه حتى تصبح جزءاً من نفسه. والسخي محبوب من الناس ومحبوب من الله عز وجل، لأن الله كريم ويحب الكرماء. وكريم الطبع ما له له ولجميع الناس، وهو الذي يقوم بالمبادرة فيأخذ ويعطى، يأكل من طعام الناس ليتشجعوا وليأكلوا من طعامه. والإنسان اجتماعي بطبعه يعيش في مجتمع فيأخذ منه ويعطيه. وكما وصفوه: مدني بالطبع.

ولا ريب أن السخاء في طبع الإنسان يقربه من الآخرين، وبذلك تترسخ الوحدة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد، وتعم المحبة بينهم فيطعمون ويطعمون ويضافون ويضيفون. ولا نغالي إذا قلنا أن الضيافة والكرم طبع عربي أصيل.

أما البخيل فهو مكروه لدى مجتمعه فلا يريح ولا يرتاح، وقد صنفه الإمام الرضا عليه السلام مع الحسود والمملوك والكذوب.

قال عليه السلام :

٤ - «ليس لبخيل راحة، ولا لحسود لذة ولا لمملوك وفاء، ولا لكذوب مروة».

يبقى البخيل قلق النفس لأنه يشعر بعقدة التدني عن الآخرين، فيحب أن يأخذ منهم ولا يعطيهم وهو كما وصفه الجاحظ من أهل البلع والمنع. فهل تريد بعد هذا أن ترتاح نفسه؟

وكذلك الحسود يتمنى أن تزول النعم عن الناس وتتحول إليه فيبقى طوال حياته يراقب ويراقب حتى تتعب نفسه ويتصلب شعوره ويتملك الحسد منه، وهل بعد ذلك يمكنه الشعور بلذة في حياته؟ أما المملوك الذي يخون نفسه وتسلب منه حرته ويعيش لذلك ممقوتاً مذموماً في مجتمعه فهل يستطيع أن يكون وفيماً مع الآخرين؟

٥ - وقال عليه السلام :

«إذا ذكرت الرجل وهو حاضر فكنه وإذا كان غائباً فسمه».

من الآداب الاجتماعية في الإسلام كنية الرجل وهذا تأدباً واحتراماً له .

وقصة علي بن أبي طالب عليه السلام مع رجل ادعى عليه عند الحليفة عمر بن الخطاب فكنى عمر علياً وقال له : تفضل يا أبا الحسن، وترك المدعي ولم يكنه، فقال له علي عليه السلام : كنيته وناديت الرجل باسمه وهذا لا يجوز في الإسلام والعدالة تقضي أن يكنى المدعي والمدعى عليه .

أما إذا كان الرجل غائباً فلا ضير إن سميناه باسمه . وهكذا أكد الإسلام على الاحترام المتبادل بين الأفراد لتتوثق العلاقات الاجتماعية، بينهم وتنمو المحبة التي يرفل تحت جناحها كل خير وسلام .

٦ - وقال عليه السلام :

«من استفاد أخاً في الله استفاد بيتاً في الجنة».

واضح من هذا الحديث أن الأخوة في الله تقود العاملين بها إلى دخول الجنة . فما معنى الأخوة في الإسلام؟ ومتى بدأت؟ ومن نادى بها؟ دعا الإسلام في أول عهده إلى الأخوة بين المسلمين ليتحابوا ويتماسكوا ويتعاونوا على البر والتقوى، ورفع شعار الأخوة قبل أن تعلنه فرنسا بشعارات ثورتها بقرون وأجيال، ولم تقم الأخوة الإسلامية على أساس الإقليم والجنس والقبيلة والعشيرة؛ وإنما بنيت على أساس أنها جزء من أجزاء العقيدة يسأل عنها المسلم ويحاسب عليها . وبذلك أصبحت الأخوة الإسلامية تضم تحت جناحها طاقات هائلة من القوة التي تمد المجتمع الإسلامي بالوحدة المتماسكة، والتفاهم البناء، والتعاون المحب والايثار الخلاق، حتى غدت نموذجاً فريداً من التكامل الاجتماعي يسد الطريق أمام الطامعين والأعداء وأصحاب الغايات الهدامة . وهل أروع وأعظم من هذا الرباط الوثيق الذي يمسك بالمسلمين كالبنيان المرصوص! قال تعالى في كتابه العزيز .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١)

فالمؤمنون هم جنود الله وعبيده الصالحون يحملون شارته وينفذون أوامره. وقد حُب جل وعلا الإيمان في قلوبهم وزينه لهم، فأولى بهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا.

ولا ريب أن الأخوة في الله نابعة من الإيمان، والإيمان نابع من التقوى تقوى الله، وراجع إليها. والتقوى نابعة من الشعور بأن الله سميع عليم. وهكذا يتأدب المؤمنون مع ربهم الذي حرك قلوبهم إليه وشرح صدورهم للإيمان.

والأخوة الإسلامية ليست مجرد عاطفة ظاهرة وإنما هي علاقة وثيقة تمتد إلى أعماق القلوب ودخائل النفوس لتحتم على المسلمين المؤمنين أن يتعاونوا فيما بينهم وأن يشاركوا بعضهم في السراء والضراء، قال الإمام الصادق عليه السلام: «المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله لا يخونه ولا يظلمه، ولا يخدعه، ولا يكذبه، ولا يغتابه».

وقال أيضاً عليه السلام: «يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمؤاساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى يكونوا كما أمرهم الله عز وجل: ﴿رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ﴾^(٢).

لقد بنى الإسلام الأخوة الدينية على أسس عميقة، لأنه يعلم أنها تؤدي إلى التودد والتآلف والمحبة، ونهى من جانب آخر عن التباعد والتباغض والحسد والعدوان، فمن الأخوة الدينية تتفتح عوامل المحبة المتمثلة في التراحم والتعاطف. من هنا كان تأكيد الإمام الرضا عليه السلام على الأخوة في الله لأنها تؤدي إلى الدخول إلى الجنة.

في رحاب التربية الدينية الرضوية:

قال عليه السلام:

١ - «المؤمن الذي إذا أحسن استبشر، وإذا أساء استغفر، والمسلم الذي

(١) سورة الحجرات: الآية، ١٠.

(٢) سورة الفتح: الآية، ٢٩.

يسلم المسلمون من لسانه، ويده وليس منا من لم يأمن جاره بوائقه»^(١).

العقيدة الإسلامية تؤمن بوجود الله، فاطر السماوات والأرض يحيي ويميت وإليه المصير، وهي فطرة في النفس الإنسانية وجدت معه منذ وجوده.

والمسلم المؤمن هو الذي يؤمن بالله عز وجل الواحد الأحد. قال تعالى مع غاية في الإيجاز ﴿وَاللَّهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِكُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

ففي هذه الآيات دلالات بينة على وحدانية الله تعالى. وعلى هذه الطريقة ذكر القرآن الكريم كثيراً من الآيات بأساليب متنوعة، ومن تدبر هذه الآيات بعقل وحكمة كان من المؤمنين الصالحين. والمؤمن هذا في رأي الإمام الرضا عليه السلام إذا أحسن إلى عباد الله استبشر راضي النفس مطمئن البال.

لكن الإنسان معرض للخطأ في بعض الأحيان فإذا أخطأ وأساء إلى سواءه أو إلى نفسه استغفر الله تعالى، وتاب إليه فقد يغفر سبحانه للمؤمن إذا تاب توبة نصوحاً.

والمسلم المؤمن هو الذي يسلم الناس من يده ولسانه فلا يتكلم بما يؤدي غيره من قريب أو بعيد، فيحفظ لسانه عن سوء ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب الآخرين ويعمل بقول أمير المؤمنين عليه السلام :

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معائباً فصنها وقل يا عين للناس أعين

والمسلم المؤمن هو الذي يحافظ على جاره كما يحافظ على نفسه قال رسول الله ﷺ : «أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعتته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن

(١) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٨٨.

(٢) سورة البقرة: الآيات، ١٦٣. ١٦٤.

مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته وإن أصابته مصيبة عزيته. ولا تستعمل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشترت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فادخلها سرأً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذ بقطار قدرك إلا أن تغرف له منها، ثم قال: أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله».

وعن أبي جعفر عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع»^(١).

وقال عليه السلام: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه».

وللشعراء مباراة بذكر الجوار، وحفظ حقوق الجار لما في هذه الفضيلة الأخلاقية من الشيم العالية. قال أبو فراس الحمداني:

أنا الجار لا زادي بطيء عليهم ولا دون مالي في الحوادث باب
ولا أطلب العوراء فيهم أصيبها ولا عورتي للطالبين تصاب
٢ - وقال عليه السلام:

«من فرج عن مؤمن فرج الله عنه يوم القيامة»^(٢).

في الإسلام نظام كامل شامل يدعى التكافل الاجتماعي، وقد تدخل في عناصره: الصدقة، والبر، والإحسان، والزكاة، وما إلى ذلك من صفات بارة كريمة ولكنها جميعها تعد من وسائل هذا النظام الإنساني.

اهتم الإسلام بالتكافل الاجتماعي ليكون نظاماً هاماً لتربية روح الفرد وضميره من جهة، وتنمية شخصيته وسلوكه الاجتماعي من جهة أخرى. ذلك أن تربية الفرد على هذا النحو إنما هي إعداد له في الميدان الاجتماعي. ولا يخفى ما لهذا التهذيب من نتائج خيرة في السلوك الاجتماعي.

فالمؤمن هو أخ المؤمن، ومرآته وعينه يشاركه في أفراحه ويؤازره في محنه ويفرج عنه ما استطاع من همومه، ويدافع عنه بالحق في حضوره وغيابه. ولم

(١) إحياء علوم الدين الغزالي.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٢ ص ٥٨٧.

تقف مساعدة المؤمن لأخيه المؤمن عند هذه الحدود بل تتجاوز ذلك إلى كل علاقات ونواحي الحياة الأخرى. تكافل في حماية الفرد وتكافل في حماية المجتمع من كل رذيلة وفساد، سواء أ جاء هذا الفساد من المحكوم أم من الحاكم.

وكل فرد في المجتمع الإسلامي عليه مسؤولية هامة في هذه الحماية، كل في موقعه وكل في محيطه الذي يجول فيه. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعَكُمْ جَمِيعًا فَبَيْنَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

فالمسلمون المؤمنون يفرج بعضهم عن البعض الآخر لأنهم وحدة متماسكة بعقيدة الإيمان، متضامنون متكافلون فيما بينهم فعليهم أنفسهم فليزكوها وليطهروها. وعليهم جماعتهم فليلتزموا معها وليراعوا شؤونها. فهم وحدة متماسكة، وهم أمة متضامنة فيما بينهم أولياء بعضهم البعض.

وعلى كل فرد في الإسلام أن يعمل ويعطي عطاء خيراً بلا منة، كما له حق العمل على الجماعة أو على الدولة النائبة على الجماعة، والتكافل الاجتماعي في الإسلام ليس نظام إحسان وصدقات، إنما هو نظام إعداد وانتاج تنشأ عنهما الكفاية الذاتية.

وتطبيقاً لهذا المبدأ العظيم في البناء الاجتماعي القويم؛ قرر الإسلام تحريم التعامل بالربا الذي يوهن العلاقات بين الناس، وينمي الأنانية في نفوسهم، ويبعدهم عن المحبة الصادقة والأثرة ذات الأبعاد الإيجابية.

من هنا دعا الإمام الرضا المؤمنين إلى التعاون فيما بينهم بمحبة وإخلاص فالقوي يساعد الضعيف، والغني يعطي الفقير بلا منة ولا إحسان لأن المؤمن أخ المؤمن يشعر معه ويشاركة في أفراحه وأتراحه. وهذا واجب شرعي لا يجب التقاعس عنه.

(١) سورة المائدة: الآية، ١٠٥.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

٣ - وعن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد بن عيسى عن معمر بن خلاد، قال: سمعت أبا الحسن الرضا يقول: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكير في أمر الله عز وجل» (٢).

وقال بعض العلماء في أمر الصلاة والصيام: أغلب الناس لا يستفيدون من صلاتهم سوى الركوع والسجود، ومن صيامهم سوى الجوع والعطش.

أما المؤمن العاقل فهو الذي يقوم بشعائره الدينية لوجه الله تعالى، فيفكر في عظمة الخالق عز وجل ودقة صنعه لهذا الكون بكل ما فيه ومن فيه. من هنا كان القول: ساعة تفكر خير من عبادة سنة. التفكير في هذه الدقة البالغة والتوازن العجيب وحركات الكون المنسجمة مع الحياة البشرية على الأرض.

٤ - عن الطوسي قال حدثنا الرضا علي بن موسى قال حدثني أبي جعفر بن محمد قال حدثني أبي محمد بن علي قال: حدثني أبي علي بن الحسين قال: حدثني أبي الحسين بن علي عليه السلام قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «الملوك حكام على الناس والعلم حاكم عليهم، وحسبك من العلم أن تخشى الله، وحسبك من الجهل أن تعجب بعلمك» (٣).

لقد حدد الإمام الرضا عليه السلام صفات العالم ثم حدد هدف العلم: وهو خشية الله عز وجل؛ أما إذا انحرف العالم عن هذا الخط فيكون ممن يعجبون بعلمهم وبذلك يقع في خانة الجهل وفي عداد الجهلاء.

٥ - وروي الطوسي أيضاً قال:

حدثني الرضا علي بن موسى عن أبيه عن أجداده عليهم السلام عن أبي بن طالب قال: سمعت رسول الله يقول: «إن العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار

(١) سورة الحجرات: الآية، ١٠.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٥٥ وتحف العقول: ص ٣٢٥.

(٣) أمالي الطوسي: ج ١ ص ٥٥.

ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة.

الذكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام ويعرف الحلال من الحرام، العلم إمام العمل، والعمل به يلهم السعداء ويحرمه الأشقياء فطوبى لمن لم يحرمه الله منه حظهُ»^(١).

في هذا الحديث نظام شامل وبرنامج كامل لكل العلماء المؤمنين، فيه تركيز أكيد على ماهية العلم الذي ينقذ الإنسان من الجهل وينور له طريقه ويقوي بدنه، فبه يبلغ العبد منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، وبه يطاع الرب ويعبد؛ عملاً بقول الرسول الأكرم: «إنما يخشى الله من عباده العلماء». فكلما ازداد العالم علماً، كلما ازداد إيماناً بالله تعالى.

ولا يكفي أن نعلم، وإنما علينا أن نعمل بما علمنا، لأن بالعلم نستطيع التمييز بين الحلال والحرام فطوبى لمن لم يحرمه الله منه^(٢).

٦ - صفات المؤمن :

روى الكليني عن مولى الرضا قال: سمعت الرضا يقول:

«لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال: سنة من ربه وسنة من نبيه، وسنة من وليه».

فأما السنة من ربه فكتمان سره، قال الله عز وجل ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(٣).

وأما السنة من نبيه فمداراة الناس فإن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بمداراة الناس، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٤).

وأما السنة من وليه فالصبر في البأساء والضراء^(٥). يقول الله عز وجل:

(١) المصدر السابق: ج ٢ ص ١٠٢.

(٢) المرجع نفسه: ج ٢ ص ١٠٢.

(٣) سورة الجن: الآيتان، ٢٦. ٢٧.

(٤) سورة الأعراف: الآية، ١٩٩.

(٥) أمالي الصدوق: ص ١٩٨.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

٧ - درجات الإيمان:

وعن الكليني أيضاً قال: عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد والحسين بن محمد عن الوشاء عن أبي الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسم في الناس شيء أقل من اليقين»^(١).

في البدء على كل إنسان أن يسلم وجهه لله تعالى فيكون مسلماً، ولكن لا يكفي إسلامه فيخلص الناس من شره ولسانه بل عليه أن يكون مؤمناً: فيؤمن بوجود الخالق العظيم وبوجود الأنبياء والرسل قبل الإسلام وأن خاتمهم الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفوق الإيمان بدرجة (التقوى) وهي تحصين الإنسان من السقوط في المزالق فيكون في وقاية من الزلات والهفوات، فيبتعد عن كل المحرمات ولا يستطيع الشيطان من الدخول إلى نفسه حتى يوسوس في صدره، وبذلك يكون مسلماً مؤمناً تقياً يقوم بواجباته الشرعية كاملة غير منقوصة، فتطمئن نفسه، وفوق التقوى بدرجة يأتي (اليقين).



(١) الكافي: ج ٢ ص ٥١.

الإمام الرضا في كنف أبيه عليه السلام

عاش الإمام الرضا في ظل أبيه مدة تسعاً وعشرين سنة ونيف، وقد أشاد الإمام الكاظم عليه السلام بولده وقدمه على السادة الأجلاء من أبنائه، بعد أن أوصاهم بخدمته والرجوع إليه في أمور دينهم فقال لهم:

«هذا أخوكم علي بن موسى عالم آل محمد عليه السلام سلوه عن أديانكم، واحفظوا ما يقول لكم، فإني سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام يقول لي: إن عالم آل محمد عليه السلام لفي صلبك، وليتني أدركته فإنه سمي أمير المؤمنين...»^(١).

شهد الإمام الرضا ضرباً من المحن القاسية والخطوب الفادحة التي حلت بأبيه عليه السلام الذي كان مثار قلق وخوف للحكم العباسي، لأنه كان محط أنظار المسلمين وموضع آمالهم في إنقاذهم من ملوك العباسيين الظالمين الذين تهادى ظلمهم للناس فقتلوا وشردوا وسجنوا وسمموا بتوصية من والي الشام الذي قال: «إن لله جنوداً من عسل» وهو معاوية بن أبي سفيان. وما يجدر بيانه أن شطراً كبيراً من المسلمين دانوا بإمامة والد الإمام الرضا، الإمام الكاظم عليه السلام وهو عندهم الخليفة الشرعي للرسول الأكرم عليه السلام وأحق بمركز الخلافة من هارون الرشيد وغيره من ملوك العباسيين، وهذا ما أقلقهم وأقض مضاجعهم. فاتخذوا جميع الوسائل لاضطهاد الإمام عليه السلام والتنكيل به.

والذي دعانا إلى عرض صورة موجزة عن حياة الإمام الكاظم عليه السلام لأن ذلك يتصل بحياة الإمام الرضا عليه السلام.

أما معالم شخصية الإمام الكاظم عليه السلام فقد ملأت فم الدنيا شرفاً وفضلاً

(١) كشف الغمة: ج ٣ ص ١٠٧ وأعيان الشيعة ج ٤ ص ١٠٠.

لتوفر جميع عناصر الفضيلة ومقومات الحكمة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية والدينية. والتي منها:

أ - مواهبه العلمية:

كان الإمام موسى أعلم أهل عصره وأدراهم بجميع العلوم، وقد احتف به العلماء يسجلون ما يفتي به وما يقوله من روائع الحكم والأدب التي أخذها من والده عملاق الأمة الإسلامية ورائد نهضتها الفكرية، وشهد بوفرة علمه ولده فقال عليه السلام: «إن ابني هذا، وأشار إلى الإمام موسى»، لو سألته عما بين دفتي المصحف لأجابك فيه بعلم»^(١).

وقال الشيخ المفيد عن وفرة علم الإمام موسى فقال: «وقد روى الناس عن أبي الحسن فأكثرُوا، وكان أفقه أهل زمانه»^(٢).

وإذا استنطقنا تاريخ العصر العباسي الأول لأجانبنا أن الإمام موسى الكاظم قد قام بتطوير الحياة العلمية والأدبية والاجتماعية بأسلوب حضاري مميز؛ وكان من ألمع أئمة المسلمين في نشر الثقافة الإسلامية.

ب - عبادة الإمام الكاظم وتقواه:

أجمع الرواة على أن الإمام الكاظم عليه السلام كان من أعظم الناس طاعة لله تعالى، ومن أكثرهم عبادة له، وكانت له ثفنات كثفونات البعير من كثرة السجود كما كان لجده الإمام زين العابدين عليه السلام حتى لقب بذئ الثفنات. كان يصلي نوافل الليل ويصلها بصلاة الصبح، ثم يعقب حتى تطلع الشمس ويخر الله ساجداً، فلا يرفع رأسه من الدعاء والتمجيد لله حتى يقرب زوال الشمس^(٣).

ومن مظاهر طاعته أنه إذا دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أول الليل فسجد سجدة واحدة، وهو يقول بنبرات تقطر خوفاً من الله:

(١) حيازة الإمام موسى بن جعفر للقرشي ج ١ ص ١٣٨.

(٢) الإرشاد: ص ٢٧٢.

(٣) كشف الغمة: ج ٣ ص ١٠٧.

«عظم الذنب عندي فليحسن العفو عندك، يا أهل التقوى، ويا أهل المغفرة» وجعل يردد هذا الدعاء بإنابة وإخلاص وبكاء حتى أصبح الصبح^(١).

وحينما أودعه الطاغية العباسي هارون الرشيد في ظلمات السجون فرغ نفسه للعبادة، وشكر الله على ذلك قائلاً:

«اللهم إني طالما كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، وقد استجبت لي فلك الحمد على ذلك»^(٢).

وقد طلب الربيع من هارون أن يطلق سراح الإمام ولا يضيق عليه في سجنه قائلاً: يا أمير المؤمنين، مالك قد ضيقت على الإمام موسى في السجن؟ فسارع هارون قائلاً: هيهات لا بد من ذلك...»^(٣).

هذه النبذة اليسيرة التي صدرت عنه عليه السلام من صنوف العبادة تدل دلالة واضحة على أنه كان إمام المتقين وسيد العابدين وإمام الموحدين في عصره ولا غرو في ذلك فقد عاش في ظلال أبيه صاحب المنهج المعروف ورائد الأمة الإسلامية الإمام جعفر الصادق عليه السلام صادق الإيمان، وصادق القول وصادق العمل وصادق الإرادة، وقد سميت في عنوان كتاب لي «الإمام الصادق عطر النبوة ومنهج حياة»^(٤).

ج - زهد الإمام الكاظم:

لقد زهد عليه السلام في الدنيا، وأعرض عن مباحجها، وبريقها الخادع والمؤقت، وأثر طاعة الله تعالى على كل شيء. ومن كان يدخل بيته يلاحظ هذا الزهد الواضح في بيت بسيط الأثاث لكنه غني العقيدة وغني الإيمان.

روى إبراهيم بن عبد الحميد قال:

«دخلت عليه في بيته الذي كان يصلي فيه، فإذا ليس فيه شيء سوى

(١) وفيات الأعيان: ج ٤ ص ٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ج ٤ ص ٢٩٣.

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر: ج ١ ص ١٤٢.

(٤) صادر عن دار المرتضى: ١٩٩٧.

خصفة، وسيف معلق، ومصحف»^(١). وكثيراً ما كان يتلو على أصحابه سيرة الصحابي الثائر العظيم أبي ذر الغفاري الذي طلق الدنيا، ولم يحفل بأي شيء من زينتها قائلاً:

«رحم الله أبا ذر، فلقد كان يقول: جزى الله الدنيا عني مذمة بعد رغيفين من الشعير: أتغذى بأحدهما، وأتعشى بالآخر، وبعد شملتني الصوف ائتزر بأحدهما وأتردى بالآخرى»^(٢).

لقد اعتمد الإمام موسى عليه السلام سيرة العظماء الخالدين على صدر التاريخ من صحابة جده سيد المرسلين عليه السلام يتلو مآثرهم على أصحابه وتلاميذه، لتكون لهم قدوة حسنة في حياتهم الخاصة والعامة.

د - حلم الإمام الكاظم:

كان الإمام الكاظم عليه السلام مضرب الأمثال في حلمه وكظمه للغیظ، يقول الرواة أنه كان يعفو عن أساء إليه، ويصفح عن اعتدى عليه وله بوادر كثيرة تفيد عن حلمه مع الأصحاب والأعداء على حد سواء. منها:

أنه اجتاز على جماعة من أعدائه كان فيهم ابن هياج فأمر بعض أتباعه أن يتعلق بلجام بغلة الإمام ويدعي أنها له، ففعل ذلك، وعرف الإمام غايته فنزل عن البغلة وأعطاهها له^(٣).

وبذلك يكون الإمام قد أعطى مثلاً أعلى للحلم وسعة النفس، وقد أوصى أبناءه بالتحلي بهذه الصفة الكريمة فقال عليه السلام: «يا بني أوصيكم بوصية من حفظها انتفع بها، إذا آتاكم آت فأسمع أحدكم في الأذن اليمنى مكروهاً، ثم تحول إلى اليسرى فاعتذر لكم، وقال: إني لم أقل شيئاً فاقبلوا عذره»^(٤).

يرشح من هذه الوصية مدى سعة أخلاقه وكبر حلمه ومقابلة المسيء بالحسنى، وهذه ظاهرة هامة تدعو إلى التألف وجمع الكلمة بين الناس.

(١) البحار: ج ١١ ص ٢٦٥.

(٢) أصول الكافي: ج ٢ ص ١٣٤.

(٣) البحار: ج ١١ ص ٢٧٧.

(٤) الفصول المهمة: ص ٢٢.

٥ - جود الإمام وكرمه:

كان الإمام الكاظم عليه السلام كأبيه وجده عليهم السلام من أندى الناس كفاً، وأكثرهم عطاءً للمحرومين والمساكين والبائسين، وكان يتم إحسانه إليهم بتكتم شديد وعدم ذبوع ما يعطيه مبتغياً بذلك رضى الله قبل رضى الناس. فعطاؤه كان في سبيل الله تعالى. يقول الرواة:

أنه كان يخرج في غلس الليل فيوصل البؤساء والضعفاء، وهم لا يعلمون من أي جهة تصلهم هذه المبرة. وصلاته هذه كانت تتراوح ما بين المائتين دينار إلى الأربعمائة دينار. وكان الناس يقولون: «عجباً لمن جاءته صرار موسى وهو يشتكي القلة والفقر»^(١).

و - اغاثة الإمام للملهوفين:

من أبرز ذاتياته عليه السلام إغاثة للملهوفين، وإنقاذهم مما ألم بهم من محن الأيام وخطوب الزمان. لذلك أفتى جماعته بجواز الدخول في حكومة هارون الرشيد بشرط الإحسان إلى الناس. وقد شاعت عنه هذه الفتوى:

«كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان».

يقول الرواة أن شخصاً من أهالي الري كانت عليه ديون طائلة لحكومة الري، وقد عجز عن تسديدها فخاف من الحكومة أن تنزل به العقوبة وتصادر أمواله، فسأل عن الحاكم فأخبروه أنه من شيعة الإمام الكاظم عليه السلام فسافر إلى المدينة وتشرف بمقابلة الإمام عليه السلام وشكا إليه حاله، فاستجاب عليه السلام بالوقت له وكتب إلى حاكم الري رسالة جاء فيها بعد البسملة:

«اعلم أن الله تجت عرشه ظلاً لا يسكنه إلا من أسدى إلى أخيه معروفاً، أو نفس عنه كربة، أو أدخل إلى قلبه سروراً، وهذا أخوك والسلام...». أخذ الرجل الرسالة ومضى إلى الحاكم ليلاً فطرق باب بيته فخرج غلامه فقال له: من أنت؟ «رسول الصابر موسى بن جعفر» فهرع الغلام إلى مولاه وأخبره بذلك، فخرج

(١) تاريخ بغداد: ج ١٣ ص ٢٨.

وعانقه وقبل ما بين عينيه وطفق يسأله عن حالة الإمام وهو يجيبه، ثم ناوله رسالة الإمام عليه السلام فأخذها باكبار وقبلها ولما قرأها استدعى بأمواله وثيابه فقامه في جميعها، وأعطاه قيمة ما لا يقبل القسمة وهو يقول له^(١):

«يا أخي هل سررت؟...» وسارع الرجل قائلاً: «أي والله وزدت على ذلك...».

ثم استدعى الحاكم السجل فشطب جميع الديون التي على الرجل، وأعطاه براءة منها، فخرج وقد غمرته موجات من الفرح والسرور، ورأى أن يجازي إحسانه بإحسان فيمضي إلى بيت الله الحرام ويدعو له، ويخبر الإمام بما أسداه عليه من المعروف، ولما أقبل موسم الحج سافر إلى بيت الله الحرام، ولما انتهى إليه دعاء للرجل باخلاص، وأخبره بما أسداه حاكم الري من الإحسان إليه، فسر الإمام بذلك سروراً بالغاً، والتفت إليه الرجل قائلاً:

«يا مولاي هل سرك ذلك؟».

«أي والله لقد سرنني، وسر أمير المؤمنين، والله لقد سر جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولقد سر الله تعالى».

هذه المبادرة تمثل مدى اهتمام الإمام الكاظم عليه السلام باغاثة الملهوفين ومساعدة المحرومين لأنه يعتبرهم إخوة له في الإسلام عملاً بقول الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

هذه هي أبرز الصفات التي كان يتحلى بها الإمام الكاظم عليه السلام من مواهب علمية، وعبادة وتقوى، وزهد وقناعة وحلم وتواضع، وجود وسخاء وإغاثة للمحرومين والملهوفين. وقد شرب ابنه الإمام علي الرضا من هذا المعين العذب وعاش في هذا المناخ الخصب، وتلقن دروساً عظيمة من خلال المناظرات التي حضرها مع أبيه عليه السلام.

من هذه المناظرات العديدة نذكر تلك التي حصلت في الكوفة.. عندما

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر ج ١ ص ١٦٦.

(٢) سورة الحجرات: الآية، ١٠.

غادر الإمام موسى عليه السلام المدينة متوجهاً إلى الكوفة، ولما انتهى إليها استقبل فيها استقبالاً حاشداً، وقد نزل ضيفاً في دار حفص بن عمير اليشكري، فاحتف به العلماء والمتكلمون وأخذوا يسألونه عن مختلف المسائل وهو يجيبهم عنها، ثم عقد مؤتمراً عاماً ضم فيه علماء النصارى واليهود وجرت بينه وبينهم مناظرات انتهت بانتصاره عليهم وعجزهم عن مجاراته والتفت الإمام إلى الحاضرين وقال لهم:

«يا معشر الناس، أليس أنصف الناس من حاج خصمه بملته وبكتابه وشريعته...» فقالوا جميعاً: نعم..».

فقال عليه السلام^(١):

«اعلموا أنه ليس بإمام بعد محمد عليه السلام إلا من قام بما قام به محمد عليه السلام حين يفضي له الأمر، ولا يصلح للإمامة إلا من حاج الأمم بالبراهين للإمامة».

فانبرى عالم يهودي فقال له: «ما الدليل على الإمام؟...» فقال عليه السلام:

«أن يكون عالماً بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن الحكيم فيحاج أهل التوراة بتوراتهم، وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل القرآن بقرآنهم، وأن يكون عالماً بجميع اللغات حتى لا يخفى عليه لسان واحد، فيحاج كل قوم بلغتهم، ثم يكون مع هذه الخصال:

تقياً، نقياً من كل دنس، طاهراً من كل عيب، عادلاً، منصفاً، حكيماً، رؤوفاً، رحيماً، غفوراً، عطوفاً، صادقاً، مشفقاً، باراً، أميناً، مأموناً...».

ثم جرت بينه وبين الحاضرين مناظرات أدت إلى تمسك الشيعة بالإمام الكاظم عليه السلام، وزيادة إيمانهم بقدراته العلمية العظيمة كما أدت إلى إفحام القوى المعارضة للإمام، وعجزهم عن مجاراته.

في هذا الجو العلمي الحافل بشتى أنواع المعارف والعلوم عاش الإمام

(١) البحار: ج ١٢ ص ٢٣.

الرضا عليه السلام ونهل من ندير علوم أبيه وتثقف بثقافته وتعلمذ عليه وتخلق بأخلاقه، ونهج نهجه وتلمس خطاه في التمسك بالحق والدفاع عن الخط الإسلامي الصحيح ولم يلن له جانب، ولم تغريه الاغراءات التي قدمها له المأمون ابن هارون، ولم تأخذه في الحق لومة لائم. وهذا تكليف شرعي من إمام معصوم لا ريب فيه. إلى جانب هذا كله شهد الإمام الرضا عليه السلام ما عاناه والده من أقسى ألوان المحن والخطوب من الطاغية هارون، الذي جهد على ظلمه والتكليل به، وقد قضى زهرة حياته في ظلمات السجون محجوباً عن أهله وشيعته وأصحابه، فسجن في البصرة ونقل إلى سجن بغداد مقيداً بالحديد وأوعز هارون إلى عيسى، عامله على البصرة باغتياله ثم كلف السندي بن شاهك فضيق على الإمام في مأكله ومشربه وكبله بالقيود، والإمام عليه السلام في السجن مقبل على عادته على العبادة، فكان في أغلب أوقاته يصلي لربه ويمجده ويحمده على أن فرغه للعبادة.

ثم عهد هارون إلى السندي باغتيال الإمام، فدس له سمّاً فاتكأ في رطب ثم أجبره السندي على تناوله فأكل منه رطبات يسيرة فقال له السندي: «زد على ذلك...».

فرمقه الإمام بطرفه، وقال له: «حسبك قد بلغت ما تحتاج إليه...»^(١).

أرسل الإمام موسى عليه السلام رسالة إلى هارون أعرب فيها عن نقمته عليه وهذا نصها: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء حتى ينقضي عنك يوم من الرضاء، حتى نفنى جميعاً إلى يوم ليس فيه انقضاء، وهناك يخسر المبطلون»^(٢).

وسرى السم في جميع أجزاء بدن الإمام عليه السلام وأخذ يعاني أقسى ألوان الأوجاع والآلام، فاستدعى السندي وطلب منه أن يحضر له مولاه ليتعهد بتجهيزه. وبعد أن دس له السم سأله السندي أن يأذن له في تجهيزه فأبى وقال له: «إننا أهل بيت مهور نساءنا، وحج ضرورتنا، وأكفان موتانا من طاهر أموالنا، وعندى كفني»^(٣).

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر ج ١ ص ٤٩٩.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠ ص ١٨٣.

(٣) مقاتل الطالبين: ص ٥٠٤.

وسمت روح الإمام الكاظم إلى خالقها تحف بها ملائكة الرحمن بطاقات من زهور الجنة، وتستقبلها أرواح الأنبياء والأوصياء والمصطفون الأخيار.

والإمام الرضا عليه السلام يرى بأب عينه كل هذه المآسي والخطوب التي أثقلها هارون على والده عليه السلام، والمأمون ورث هذا الحقد عن والده وصبه غضباً على الإمام الرضا لأنه سار على منهج والده الإمام الكاظم عليه السلام ولم يتخل عن واجبه الشرعي تجاه الأمة الإسلامية، فقد نصبه الإمام موسى علماً لشيئته ومرجعاً لأمته، وخرجت من السجن عدة رسائل كتب فيها: «عهدي إلى ولدي الأكبر»^(١) وعهد بذلك إلى جمهرة كبيرة من أعلام الشيعة المعروفين والمشهود لهم بالثقة المطلقة منهم: علي بن يقطين - محمد بن إسماعيل - داود بن كثير، نعيم بن قابوس - سليمان بن حفص - عبد الله بن مرحوم - عبد الله بن الحرث - عبد الله الهاشمي - حيدر بن أيوب - جعفر بن خلف - الحسين بن بشير - محمد بن سنان - ونصر بن قابوس وغيرهم...

وقد حافظ الإمام الرضا عليه السلام على وصية أبيه ونفذها بكل ما فيها بعزيمة وجرأة وإخلاص فكلفته غالباً ولم يضعف ولم يتوان حتى أنه ضحى بحياته كوالده وجده من أجل الحفاظ على الخط الحسيني الشريف.



(١) حياة الإمام موسى بن جعفر ج ١ ص ٤٧٠.

عصر الإمام الرضا عليه السلام

كان عصر الإمام الرضا عليه السلام من أزهى العصور في التاريخ الإسلامي، وقد سمي بالعصر الذهبي لازدهار العمران وتطور الحياة الاجتماعية في شتى الحقول. فمعظم مناطق العالم أصبحت خاضعة للحكم العباسي، وأصبحت بغداد - مدينة السلام - عاصمة العالم الإسلامي. كانت أعظم حاضرة يؤمها العلماء والأدباء والشعراء من مختلف العالم وذلك للظفر بمنصب من مناصب الدولة، أو لعرض ما تحتاجه بلادهم من الشؤون العلمية والإدارية والاقتصادية. من هنا كان قول هارون الرشيد مخاطباً الغمامة في سنة قحط: اذهبى وامطري أنى شئت فإن خراجك سيأتي إلي. ففي أي بقعة تمطر الغمامة تعود فائدتها إلى أرض الدولة العباسية الواسعة الأرجاء. وهذه بعض شؤون العصر:

١ - الحياة العلمية:

ازدهرت الحياة العلمية في عصر الإمام الرضا عليه السلام في جميع أنواع العلوم وزهت ألوان التقدم الحضاري، التي انتهت إليها الدولة العباسية في جميع أدوار حكمها، وهذه بعض صور التقدم العلمي في العصر العباسي الذهبي:

أ - المعاهد والمكتبات:

اهتمت الدولة العباسية بالمعاهد والمدارس اهتماماً بالغاً، فأنشأت في بغداد حوالي ثلاثين مدرسة لتدريس العلوم الإسلامية وغيرها، كما أنشأت فيها المكتبات العامة ومن أهمها:

ب - بيت الحكمة:

نقل الرشيد إلى بيت الحكمة مكتبته الشخصية، وأضاف إليها من الكتب ما جمعه جده منصور الدوانقي وأبوه المهدي. وفي عهد المأمون طلب من أمير

صقلية بعض الكتب العلمية والفلسفية والتاريخية، ولما وصلت إليه نقلها إلى مكتبة بيت الحكمة، كما طلب من أصحابه في خراسان الكثير من الكتب، وكان حينما سمع بكتاب يأتي به لها.

وفي بيت الحكمة كلف المأمون سهل بن هارون خازناً على قسم من المكتبة وهي الكتب الفلسفية التي نقلت إليه من جزيرة قبرص.

ولما هادن المأمون صاحب الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد، فجمع صاحب الجزيرة بطانته وذوي الرأي والخبرة، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون فأشاروا عليه بعدم الموافقة، إلا مطران واحد فإنه قال له:

الرأي أن تعجل بانفادها إليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة إلا أفسدتها، وأوقعت الخلاف بين علمائها، فأرسلها إلى المأمون، فسر بها كثيراً وعين سهل بن هارون خازناً عليها.

وظلت بيت الحكمة تغذي أهل الفكر والبحاث والعلماء بأنواع العلوم وقتاً طويلاً إلى أن استولى الطاغية السفاك المغولي هولوكو على بغداد وأتلف كل موجودات المكتبة، حتى أن مياه الفرات قد تلونت بلون الحبر الذي خطت به تلك الكتب الثمينة. وبذلك خسر العالم الإسلامي تراثاً هاماً له. واليوم التاريخ يعيد نفسه من قبل أمريكا في العراق الشقيق.

ج - الترجمة والتعريب:

من مظاهر تطور الحياة العلمية والثقافية في ذلك العصر، اهتمام الدولة العباسية بتعريب اللغات الأجنبية، حيث أقبل العلماء المترجمون على تناول كتب العلوم الطبية والفلك والرياضة والعلوم السياسية والفلسفية، وكان يرأس ديوان الترجمة حنين بن إسحاق. روى ابن النديم أن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة والمدخرة ببلاد الروم، فأجابته إلى ذلك بعد امتناع، فأوفد إليه المأمون جماعة من أصحابه العلماء منهم: مسلم صاحب بيت الحكمة وابن البطريق والحجاج بن

مطر وغيرهم؛ فأخذوا مما وجدوا فلما حملوها إليه أمر بنقلها فنقلت إلى بيت الحكمة^(١).

ومن الطبيعي أن تلك الكتب المعربة قد ساعدت على نمو الفكر العربي كما ساهمت في تطور العلوم في البلاد الإسلامية، فقد اشتغل الكثير من طلاب العلوم بتفقهها ودراستها والإفادة منها.

د - قمر ابن المقنع:

ومن بدائع مخترعات ذلك العصر قمر ابن المقنع، صنعه عطاء الخراساني المعروف بالمقنع، فكان ذلك القمر يطلع، ويراه الناس من مسيرة شهرين ثم يغيب عنهم وإليه أشار أبو العلاء المعري:

أفئق إنه البدر المقنع رأسه ضلال وغيي مثل بدر المقنع^(٢)
وفيه يقول أبو القاسم هبة الله الشاعر:

إليك فما البدر المقنع طالعاً بأسحر من ألحاظ بدر المعمم^(٣)

هـ - الخرائط والمراصد:

ومن مظاهر التقدم العلمي في ذلك العصر: خريطة لجميع أنحاء العالم سميت بالصورة المأمونية، أمر بوضعها المأمون. وهي أول خريطة صنعت للعالم في العصر العباسي.

كما أمر أيضاً بإنشاء مرصد فلكي فأنشأ ب - (الشماسية) وهي إحدى محلات بغداد.

العلوم السائدة في العصر العباسي:

(١) الفهرست: ص ٣٣٩.

(٢) الاعلام: ج ٥ ص ٢٩.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٦.

١ - التفسير:

يعني تفسير الآيات القرآنية وايضاح معانيها وبيان الناسخ من المنسوخ، والمطلق من المقيد، والعام من الخاص... وقد اتجه المفسرون في تفسيرهم إلى اتجاهين:

الأول: التفسير بالمأثور، ونعني به تفسير القرآن الكريم بما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الطيبين، وهذا ما سلكه معظم المفسرين الشيعة كتفسير القمي، والبرهان، والعسكري وغيرها، وحجة الشيعة في ذلك أن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم المخصوصون بعلم القرآن والعالمون بتفسيره. يقول الإمام الباقر عليه السلام «ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء»^(١).

ويقول شيخ الطائفة الشيخ الطوسي: «إن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الأئمة الذين قولهم حجة كقول النبي صلى الله عليه وآله»^(٢).

الثاني التفسير بالرأي:

ويراد به الأخذ بالاعتبارات العقلية الراجعة إلى الاستحسان، وقد ذهب إلى ذلك المعتزلة والباطنية فلم يعنوا بما أثر عن أئمة الهدى في تفسير القرآن الكريم وإنما استندوا إلى ما يرونه من الاستحسانات العقلية^(٣). وإن الأخذ بالظواهر فإنه ليس من التفسير في شيء.

ومن الجدير بالذكر أن أول مدرسة للتفسير بالمأثور أقيمت في الإسلام كانت في عهد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو أول مفسر للقرآن وعنه أخذ جبر الأمة عبد الله بن عباس، وغيره من أعلام الصحابة.

٢ - علم الحديث:

ومن العلوم السائدة دراستها في ذلك العصر علم الحديث، ونعني به ما أثر

(١) التبيان: ج ١ ص ٤.

(٢) حياة الإمام محمد الباقر ج ١ ص ١٨١.

(٣) المصدر نفسه: ج ١ ص ١٨١.

عن النبي ﷺ أو عن أحد أوصيائه من الأئمة الطاهرين من قول أو فعل أو تقرير لشيء، فإن ذلك كله في السنة، وفي السنة كما في القرآن الكريم: العام والخاص، والمطلق والمقيد وغير ذلك.

وقد حث أئمة الهدى من الشيعة أصحابهم على تدوين الحديث النبوي الشريف. وقد قام جماعة من أصحاب الإمام الرضا وجمعوا الأحاديث الصحيحة في جوامع كبيرة وهي الجوامع الأولى للإمامية، وتعد الأساس لتدوين الجوامع الأربعة لمشايع الإسلام.

روى أبو بصير قال: «ما منعكم من الكتابة، إنكم لن تحفظوا حتى تكتبوا إنه خرج من عندي رهط من أهل البصرة يسألون عن أشياء فكتبوها»^(١).

٣ - علم الفقه:

من العلوم الإسلامية المميزة علم الفقه، وقد ساد وانتشر في العصر العباسي وفي سائر العصور، يضاف إليه معرفة التكاليف اللازمة على المكلفين، ويتوجب عليهم المسؤولية الشرعية أمام الله عز وجل في الالتزام والتطبيق على واقع حياتهم الخاصة والعامّة.

وقد قام الأئمة المعصومون عليهم السلام بدور نشيط وفعال في إنشاء مدرستهم الفقهية التي تخرج منها أعلام الفقهاء وكبار العلماء مثل: زرارة بن مسلم وجابر الجعفي وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل وغيرهم من خيرة العلماء. وكل هؤلاء دونوا ما سمعوه من الأئمة الطاهرين في أصولهم التي بلغت ما يقارب أربعماية أصل، ثم جمعت ونقحت في الكتب الأربعة^(٢) التي يرجع إليها فقهاء الإمامية في استنباط أحكام الشرعية.

والمذهب الجعفري يعتبر من أسبق المذاهب الإسلامية في تدوين الفقه، قال العالم مصطفى عبد الرزاق: «إن النزوع إلى تدوين الفقه، كان أسرع إلى

(١) حياة الإمام محمد الجواد ص ١٩٤. وراجع نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف.

(٢) الكتب الأربعة هي: أصول الكافي، من لا يحضره الفقيه، تهذيب الاحكام، الاستبصار.

الشيعة من سائر المسلمين، ومن المعقول أن يكون النزوع إلى تدوين الأحكام الشرعية أسرع إلى علماء الشيعة؛ لأن اعتقادهم العصمة في أئمتهم كان حرياً أن يسوقهم إلى الحرص على تدوين فتاواهم»^(١).

٤ - علم الأصول:

ومن العلوم الجليلة التي كانت تدرس في تلك العصور، علم الأصول، ويرمي إلى الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية، وقد أسس هذا العلم وبنى مدرسته الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام، وتابع بعده في تنشيط هذا العلم وتوسيع دائرته الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ومن جاء بعده من الأئمة المعروفين^(٢).

٥ - علم النحو:

علم ضروري وأساسي لفهم معاني القرآن الكريم، ويساعد على فهم العلوم الإسلامية الأخرى. وقد مثل دوراً مهماً في العصر العباسي، حتى أن بعض بحوثه ومسائله عقدت لها أندية في مجالس خاصة وفي قصور الخلفاء؛ وقد حدث نزاع وجدال حاد في بعض مسائل نحوية بين كبار علماء النحو بحضور الخليفة العباسي، وجهازة كبار في هذا العلم.

أسس هذا العلم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ونقله عنه أبو الأسود الدؤلي، ثم تخصص به جماعة من الأعلام في ذلك العصر كان في طليعتهم الكسائي والفراء والأخفش وسيبويه

٦ - علم الكلام:

ومن مظاهر انتشار الحياة العلمية وتقدمها كان علم الكلام، انتشر انتشاراً واسعاً وخاص فيه العلماء والمتكلمون في بحوث مهمة جداً في هذا العلم وذلك للدفاع عن معتقداتهم وحماية دينهم. ويعد في طليعة المتكلمين هشام بن الحكم

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٠٢.

(٢) الفهرست لابن النديم: ص ٣٤٠.

تلميذ الإمام المفكر العملاق الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، فقد أبطل معتقدات خصومهم بردود ثابتة، وأكد بأدلته الحاسمة مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي هو الدين القويم، دين الله الذي ارتضاه لعباده الصالحين. وللإمام الرضا عليه السلام جولات بارعات ومناظرات مهمة في هذا العلم سوف نأتي على ذكرها بإذن الله. واشتهر من علماء أهل السنة وأصل بن عطاء، وأبو هذيل العلاف وأبو الحسن الأشعري وحجة الإسلام الغزالي.

٧ - علم الكيمياء:

ومن العلوم التي حظيت باهتمام بالغ في ذلك العصر وتقدمت شوطاً بعيداً في هذا الميدان هو علم الكيمياء، تخصص فيه جابر بن حيان مفخرة الشرق العربي؛ الذي تلقى علومه عن المفكر العظيم الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي يسميه علماء الغرب: الدماغ المفكر للإنسانية، بعد أن اطلعوا على خزائن فكره في هذا العلم فكان هو المؤسس له.

٨ - علوم الطب:

تقدم علم الطب وانتشر انتشاراً واسعاً على يد الإمام الرضا عليه السلام؛ الذي يعد في طليعة هذا الفن، ورسالته الطبية التي سميت بالرسالة الذهبية لنفاستها وعلو قيمتها، حيث كانت من أروع البحوث الطبية في ذلك العصر وقد شجع ملوك بني العباس على دراسة هذا العلم، وبذلوا الأموال الطائلة للمتخصصين فيه أمثال بختيشوع الطبيب الحاذق المعروف.

٩ - العلوم الهندسية: المدنية والمعمارية:

ومن بين العلوم التي بلغت أوجهاً في ذلك العصر الهندسة المعمارية والهندسة المدنية. فقد أبدع المهندسون إبداعاً عظيماً ظهر في هندستهم قصور الخلفاء والأمراء والوزراء سواء أكانت في (بغداد) أم في (سر من رأى) حيث كانت تلك القصور الضخمة أروع ما شيد على امتداد التاريخ فكانت مثلاً رائعاً لرواد البناء في العالم، مثل قصر الجعفري الذي وصفه الشاعر البحراني فقال:

عال على لحظ العيون كأنما ينظرن منه إلى بياض المشتري

وتسير دجلة تحته ففناؤه من لجة غمر، وروض أخضر
 ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاته قطع السحاب الممطر^(١)
 وفي هذا القصر الرائع بنى المتوكل بركة كبيرة، جلب إليها الماء من نهر
 الفرات وجعلها متنزهاً جميلاً، فانبرى البحثري على عادته إلى وصفها فقال:
 يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها
 كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها، فادقوا في معانيها^(٢)
 وقصر التاج وقصر الثريا ودار الشجرة وغيرها . . .
 مضافاً إلى ذلك الألواح الفنية التي لم يضع مثلها؛ حتى في هذا القرن الذي
 بلغت فيه الهندسة الحديثة والتقدم (التكنولوجي) القمة .

١٠ - علم الفلك:

كان العرب في العصر العباسي على علم واسع في الفلك والنجوم، ولهم فضل كبير في تقدمه، فقد جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والفرس والهند والكلدان شأنهم في أكثر العلوم الدخيلة، وفي عهد المأمون نبغ العالم المعروف: الخوارزمي، وكان منقطعاً إلى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم. كما اشتهر في هذا العلم بنو شاعر الثلاثة، ومن أعمالهم المشهورة قياسهم خط نصف النهار للمأمون استعملوا فيها محيط الأرض. كما الفوا كتباً جلية في الفلك والهندسة. ونبغ في عصرهم الذهبي كثير من العلماء الأفاضل مثل البلخي المتوفى ٢٧٢هـ، وحنين بن إسحاق الذي نبغ في عالم الترجمة، وثابت بن قرة الحراني المتوفى ٢٨٨هـ، ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني، وقد اصطنع زيجاً ابتداءً بالرصد ٢٦٤ - ٥ - ٣١٧هـ، وأثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩، وكان أوحد عصره في فنه .

هذه بعض العلوم السائدة في ذلك العصر وهي تدل دلالة واضحة على التطور العلمي والانطلاق الفكري في شتى المواضيع .

(١) الديوان: ج ١ ص ٤٠.

(٢) الديوان: ج ١ ص ٣٤.

ومن العلوم التي اشتهر بها العرب وكان لهم فيها مآثر جمة علم الصيدلة.

١١ - علم الصيدلة:

ينسب علم الصيدلة إلى الصندل أو الصيدل وهو شجر يشبه الجوز، وسمى العرب صاحب الصناعة صيدلي ومحل العمل صيدلية. كما سماوا هذا العلم بعلم العقاقير أو الأدوية. ولهذا العمل علاقة وثيقة بعلم النبات. وترتبط الصيدلة بعلم النبات لأن عدداً كبيراً من الأدوية يصنع من النبات والأعشاب. وقد اعتنى بعض الصيادلة العرب بزراعة النباتات الطبية، كما أقيمت بعض الحدائق بجوار المستشفيات خصيصاً لاستثمارها في هذا المجال كما يتصل علم الصيدلة بعلم الكيمياء وعلم الحيوان، وقد أدرك العرب هذا التلازم بين الصيدلة والعلوم الأخرى، فاستفادوا منها في تطوير علمهم وتعتبر الصيدلة من أقدم العلوم، ونشأتها تقترن بتاريخ الأدوية ومنذ أن احتاج الإنسان المريض إلى الدواء كانت حاجته إلى الصيدلة.

ولقد فصل العرب علم الصيدلة عن علم الطب منذ القديم، وجعلوه مستقلاً وبدون مغالاة كان العرب المؤسسين الحقيقيين لعلم الصيدلة ويعود لهم الفضل في رفع مستواه. وقد بدأت الصيدليات العربية العامة بالعمل المتخصص في أواخر القرن الثاني للهجرة. وأول صيدلية مستقلة أنشئت في بغداد أيام المنصور، ثم ألحق بكل مستشفى صيدلية خاصة بها. أما أوروبا فلم تعرف الصيدلية المتخصصة إلا في القرن الخامس الهجري وألمانيا عرفت أول صيدلية عامة في القرن السابع الهجري. ولقد أصبح للصيدلة عند العرب مدارس لتعليمها، ووضعوا على الصيدلي شروطاً علمية مشفوعة بشهادة من الدولة. وكما ترى كانت الحالة أفضل مما عليه الآن في هذا المجال، حيث نرى الكثير من الصيدليات غير الشرعية.

أما عن المراكز والأماكن والحواضر العلمية في العصر العباسي فسوف نذكرها بإيجاز.



حواضر العصر العباسي

١ - بغداد:

سماها المنصور مدينة السلام، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم بمعنى الجنة تحت اسم: السلام، وسلام، وسلاماً في ثلاثة وأربعين موضعاً. والاسم الذي طغى واستعمل في الوثائق الرسمية التي تصدر عن الخلافة: مدينة السلام^(١).

تأسست مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور، وأصبحت أم المدائن ومركز التجارة وكعبة العلوم والآداب، ومنبع الثروة والرخاء، ومقصد الشعراء والأدباء والعلماء وقد جاء في وصفها:

«بغداد جنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين وغرة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف». وفيها قال الزجاج «بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية»^(٢).

وقد سادت فيها أنواع الثقافات العالية، وانتشرت فيها المعاهد والمدارس، وبيوت الحكمة، والمكتبات العامة والخاصة.

٢ - البصرة:

كانت مركزاً مهماً لعلم النحو، وكان أول من أنشأ هذه المدرسة أبو الأسود الدؤلي تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام وكانت هذه المؤسسة تنافس مدرسة الكوفة، وقد سمي نحاة البصرة «أهل المنطق» تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة وكان من أعلام هذه المؤسسة سيبويه الفارسي وهو مؤلف كتاب القواعد «سيبويه» في النحو وهو

(١) تاريخ بغداد: ج ١ ص ٧٧.

(٢) معجم البلدان. لفظ بغداد.

من الكتب الهامة ومن أكثرها عمقاً وأصالة^(١).

وكما كانت البصرة مركزاً مهماً لعلم النحو فقد كانت مدرسة لعلم تفسير القرآن الكريم، وكان من العلماء البارزين في هذا الفن أبو عمرو بن العلاء، وبالإضافة لذلك فقد كانت البصرة مدرسة لعلم العروض واللغة، وكان المتخصص بهذين العلمين الخليل ابن أحمد صاحب كتاب (العين) الذي يعد أول معجم لغوي وضع في اللغة العربية، كما وضع الموازين الشعرية التي كانت وما زالت أساساً للشعر الأصولي، الذي يعتمد على أعظم الشعراء العرب في العصر العباسي وفي عصرنا اليوم.

٣ - يثرب، المدينة المنورة:

تعد يثرب من أهم المراكز العلمية في الإسلام، فقد تشكلت فيها مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وقد ضمت عيون العلماء والفقهاء، وقد اهتموا بتدوين أحاديث أئمة الهدى عليهم السلام، وقد عنوا بصورة خاصة بتدوين أحاديثهم الخاصة في الفقه باعتباره النظام المتكامل في الإسلام، كما تشكلت في يثرب مدرسة التابعين، وهي مدرسة فقهية عنت بأخذ ما روي من الصحابة في الفقه.

٤ - الكوفة:

تأتي الكوفة بعد يثرب في الأهمية، فقد كان الجامع الأعظم فيها مركزاً عاماً للدراسات الإسلامية، وقد انتشرت الحلقات الدراسية التي ضمت مئات الطلاب الذين يتلقون دروسهم من العلماء المتخصصين بالعلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والعلوم العربية.

وقد اهتمت مدرسة الكوفة بصورة موضوعية وخاصة بعلوم أهل البيت عليهم السلام حدث الحسن بن علي الوشاء، فقال: «أدركت في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمد»^(٢).

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام: ص ٣٩.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر ج ١ ص ٨٢.

وقد حظيت الكوفة بأسر علمية رفيعة الشأن وكلها تخرجت من جامع الكوفة وهي: آل حيان التغلبي، وآل أعين، وبنو عطية، وبيت بني دراج وغيرهم^(١).

ولا يخفى مدرسة النحو التي أنشئت في الكوفة، وكان من معلميها المعروفين الكسائي الذي عهد إليه الرشيد بتعليم ولديه الأمين والمأمون^(٢).

٥ - سامراء:

شرع المعتصم في بناء هذه الحاضرة الجديدة سنة ٢٢١هـ، وجلب إليها العمال والصناع وأرباب المهن من سائر الأقطار الإسلامية، وهي تبعد عن بغداد شمالاً ما يقارب ثمانين كيلومتراً. وقد أصبحت سامراء مقصد جميع الناس من كل حذب وصوب، فشيّدوا فيها المباني الفخمة والقصور الأنيقة.

وذكر أن هذه المدينة لما عمّرت، أطلق عليها اسم (سرور من رأى) ثم اختصر الاسم فأصبح (سر من رأى) ولما خربت سميت (ساء من رأى) ثم اختصر فقيل (سامرا) في هذه المدينة يوجد قبر الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام.

الحياة الاقتصادية في العصر العباسي:

اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بمكافحة الفقر، فألزم ولاية الأمور على زيادة دخل الفرد وتنمية الاقتصاد وبسط الرخاء والرفاهية بين الناس، وكان من بين ما عني به في تطوير الاقتصاد أن ألزم ولاية المسلمين بانفاق أموال الدولة على المصالح العامة، وذلك عن طريق تنمية الزراعة وإنشاء المشاريع العامة. كما منع ولاية المسلمين أن يختاروا لأنفسهم وأقربائهم شيئاً من خزينة الدولة. هذه المبادئ أقرها الإسلام في سياسته الاقتصادية ولكن هل التزم الحكام العباسيون بهذه المبادئ؟؟.

لقد خالف بنو العباس هذه السياسة العادلة، فاتخذوا مال الله دولاً وعباد الله

(١) تاريخ الإسلام: ج ٢ ص ٣٣٨.

(٢) حياة الإمام محمد الجواد ص ١٩١.

خولاً، وأنفقوا الأموال الطائلة على شهواتهم وأصحابهم، فبنوا القصور الفخمة ووهبوا الأموال الطائلة على المغنين والجواري والعابثين؛ مما أوقع البلاد في أزمت حادة في الاقتصاد العام. لذلك وجدنا المجتمع ينقسم إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: الطبقة الرأسمالية التي جمعت عندها أموال الأمة الإسلامية؛ ولا عمل لها إلا البطالة واللهو والإسراف في المحرمات.

الطبقة الثانية:

طبقة العمال والفلاحين والمحرومين التي شقيت وتعبت وشاع فيها الفقر والحرمان. وقد أدى هذا الانقسام في صفوف المجتمع إلى فقدان التوازن في الحياة الاقتصادية، وانعدم الاستقرار في الحياة الاجتماعية والسياسية.

واردات الدولة العباسية:

فاضت خزائن الدولة العباسية وتضخمت للغاية في عصر الإمام الرضا عليه السلام فقد أحصيت الواردات من الخراج وحده فكان ما يزيد على أربعماية مليون درهم. ومن كثرة المال وسعة الحال أنه كان المال لا يعد عدداً وإنما يوزن وزناً. فكانوا يقولون خمسة آلاف قنطار أو سبعة آلاف قنطار من الذهب^(١)، لكن من المؤسف أن هذه الأموال الطائلة لم تنفق على تطوير الحياة العامة للمسلمين والمحرومين، وإنما كان ينفقها الملوك على أبنائهم ووزرائهم وحاشيتهم وملازمهم.

إسراف وتبذير:

أسرف ملوك بني العباس إسرافاً هائلاً على ملذاتهم الخاصة، وكان التبذير ظاهرة سائدة عندهم فقد بنى المهدي منتزهاً أنفق عليه خمسين مليون درهم^(٢)، وصرف المتوكل على قصره المعروف بالماحوزة خمسين مليون درهم وعلى قصره المعروف بالعروس ثلاثين مليون درهم، وعلى البهو خمسة وعشرين مليون

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر: ج ١ ص ٨٢.

(٢) معجم البلدان: ج ٣ ص ١٥٣.

درهم. هذه القصور الفخمة بناها في (سامرا) وزاد عددها حتى بلغت ستة عشر قصرًا أنفق في سبيلها أموالاً جساماً لا تصدق. ومن جملة إسرافه وتبذيره أنه أنفق على ختان أولاده ستة وثمانين مليون درهم.

والمأمون من دمشق حملت إليه ثلاثون مليون درهم، أنفق منها أربعة وعشرين مليوناً على أصحابه والباقي أنفق على جنده^(١).

ومن ألوان البذخ والإسراف الهائل في أموال الأمة الإسلامية هو ما أنفقه المأمون على زواجه (ببوران) فأمهرها ألف ألف دينار، علماً أن قيمة الدينار في ذلك الوقت كانت تساوي جملاً. وفي حفلة العرس نثر على الجند الذي كان معه ألف ألف دينار.

وصحب معه من الغلمان الصغار ثلاثين ألفاً وسبعة آلاف جارية، أما الجند الذي كان معه فكانوا أربعماية ألف فارس، وثلاث مائة ألف راجل. وكان الحسن بن سهل والد العروس بوران يذبح لضيوفه ثلاثين ألف رأس من الغنم، ومثيلها من الدجاج، وأربعماية من البقر، وأربع مائة من الجمل^(٢)، وسموا هذه الدعوة: دعوة الإسلام، معاذ الله. الإسلام منها براء!!.

ولما كانت ساعة الزفاف أجلست بوران على حصير منسوج من الذهب؛ ودخل عليها المأمون ومعه جمهرة من العباسيات وعماته فنثر الحسن بن سهل على المأمون وزوجته ثلاث مائة لؤلؤة وزن كل واحدة مثقال، وبادرت العباسيات بالتقاتها، وقال المأمون: قاتل الله أبا نواس كأنه حضر مجلسنا هذا حيث قال في وصفه الخمر:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب^(٣)

هذه الأموال التي أنفقها المأمون والحسن بن سهل على زواجه، قد أخذت من بيت مال المسلمتين الذي يجب إنفاقه في شريعة الله في إزالة البؤس عن المسلمين ومكافحة الفقر. وهذا هو الإسراف الذي حرمه الإسلام.

(١) تاريخ ابن الأثير: ج ٦ ص ٤٣٣.

(٢) راجع تاريخ الطبري.

(٣) الديوان.

كانت الأكثرية الساحقة من المجتمع الإسلامي في عصر المأمون ترزح تحت كابوس رهيب من الفقر والبؤس.

وهذه قصيدة لأبي العتاهية يشرح فيها عما كانت عليه العامة من البؤس والشقاء يقول مخاطباً الملك العباسي:

من مبلغ عن الإما
إنني أرى اليتامى في البيو
يشكون مجهدة بأص
من للبطون الجائعا
ألقيت أخباراً إلي
م نصائحاً متوالية
ت البائسات الخالية
وات البائسات الخالية
ت وللجسوم العارية
ك من الرعية شافية^(١)

وصف هذا الشعر الاجتماعي الحالة السائدة في عصر أبي العتاهية، فجماعات غفيرة من الشعب المسلم عارية أجسامهم، جائعة بطونهم خاوية أبدانهم، في حين أن خزائن ملوك العباسيين قد زخرت بالملايين من أموال المسلمين غير أنها لم تنفق في صالحهم.

والشاعر بشار بن برد استجار بابن المهلب لينقذه من ويلات الفقر فيقول راجياً يعقوب بن داود:

يا أيها الرجل الغادي لحاجته
إن الحوائج قد سدت مطالعها
قالت فطيمة: صم فينا فقلت لها:
إذا ابن داود أعطاني معونته
عند الخليفة بين المطل والجود
فابعث لها جاه يعقوب بن داود
إن شاء يعقوب صمنا يا ابنة الجود
كان الفراغ ولم أربع على عود

فتأمل هذا التذلل والاستعطاف، بعد أن سدت نوافذ العيش على أغلب الطبقات، وعانى أكثر الناس الجوع والحرمان.

زد على ذلك الضرائب الثقيلة على الموارث.

والقسوة والظلم في أخذ الخراج.

(١) حياة الإمام محمد الباقر.

من ظلم العباسيين وجورهم أنهم فرضوا الضرائب الباهظة على تركة الأموات، فنهبوا أموال الناس بغير حق، يقول المؤرخون: إن كثيراً من الحكام حاولوا بعد موت ذوي الثروة إذا كان لا وارث له يضمنونها إلى تركتهم^(١).

وهذا الاجراء القاسي يخالف تعاليم الإسلام التي قضت بأن ما تركه الميت لورثته، وليس للحكام عليه أي سلطان. وقد شمل هذا التصرف الظالم أمهات الخلفاء فلقد عذب القاهر أم أخيه المقتدر، وعلقها برجلها لتخرج ما عندها من أموال ثم أرغمها على ذلك بعد تعذيب مرير^(٢).

كما قاسى المسلمون كأشد ما تكون القسوة في أخذ الخراج منهم، فقد وضعوا عليهم جباة اراهييين لا يخافون الله. فظلموا وجاروا وقاموا بأعمال منكرة، منها أنهم كانوا يعلقون الرجل البدين من ذراع واحدة حتى يشرف على الموت.

ففي زمن المهدي العباسي كان أخذ الخراج بمنتهى القسوة، فكان أهل الخراج يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنابير والسنانير^(٣) أما الرشيد فكان أكثر بطشاً وأكثر قسوة فاستعمل جباة لا رحمة في قلوبهم ولا رأفة في نفوسهم، من هؤلاء الجباة عبد الله بن الهيثم: عذب الناس بصنوف مذهلة من العذاب الأليم، فدخل عليه ابن عياض فرأى قسوته وعذابه للناس فقال له: ارفعوا عنهم إنني سمعت عن رسول الله ﷺ يقول: من عذب الناس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة فأمر برفع العذاب عن الناس^(٤).

وجاء في وصية أبي يوسف للرشيد بشأن أهل الخراج فقال: بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم من له حرمة، ومنهم من له وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم.

يقتضي بذلك الذمات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من

(١) الحضارة الإسلامية: ج ١ ص ٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) الوزراء والكتاب: ص ١٤٢.

(٤) تاريخ البعقوبي: ج ٣ ص ١٤٦.

يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان، أو من أموال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك كله بالعسف والظلم والتعدي»^(١).

ثم تابع قائلاً: «وبلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس، ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام»^(٢).

ولا ريب أن هذا الإجراء القاسي منهم يرفضه الإسلام ويحرمه، لكن حكام بني العباس خالفوا الشرع وابتعدوا عنه وعصوا أمر الله.

تركة ملوك العباسيين:

امتلأت خزائن ملوك بني العباس بالأموال الطائلة، التي اختلست من حقوق الشعوب الإسلامية، فأخذت بالعنف والقهر، ولبيان ذلك نذكر بما تركه بعض ملوكهم من الثروات والأموال:

١ - ما تركه المنصور الدوانيقي:

ترك المنصور الدوانيقي بعد هلاكه أربعة عشر مليون درهم^(٣).

٢ - ما تركه المهدي:

والمهدي جمع وجمع حتى وصلت خزائنه إلى سبعة وعشرين مليون درهم^(٤).

٣ - ما تركه هارون:

وهارون الرشيد بذخ وأسرف وبذر وترك تسعمائة مليون درهم^(٥).

٤ - المأمون:

يكفي أن نذكر أنه أنفق على عرسه من بوران بنت الحسن بن سهل ثمان وثلاثين مليوناً من الدراهم.

(١) الخراج: ص ١١٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٨.

(٣) مروج الذهب: ج ٣ ص ٣١٨.

(٤) المصدر نفسه

(٥) تاري الطبري.

هذه بعض الأموال التي تركوها بعد هلاكهم، والتي استولوا عليها ظلماً وبغير حق، لذلك عانى المسلمون في جميع عهودهم الضيق والبؤس والحرمان وهذه بعض معالم السياسة الاقتصادية في الحكم العباسي.

وخلاصته القول أنه لم تكن تصرف في الوجوه الشرعية وعلى أسس سليمة، ولم تساير الاقتصاد الإسلامي الذي يهدف إلى انعاش الشعوب ونشر الرخاء والسعادة على الناس. فالحاكم العباسي كالحاكم الأموي كان يعتبر نفسه ظل الله على الأرض يتصرف بأموال العباد حسب رغباته ومزاجه دون أن يستشير أحداً من رجال الاقتصاد!! .

يقول المنصور: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه باذنه، قد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحنى فتحنى، وإذا شاء أن يقفلني قفلني»^(١).

المال في الإسلام هو مال الله ولا يجوز للحاكم المسلم المؤمن العادل أن ينفقه إلا في سبيل الله على المشاريع الإسلامية العامة وعلى الفقراء والمحتاجين، وليس على المغنين والعابثين، فأموال المسلمين للمسلمين يجب أن تنفق على مصالحهم، ورفع مستواهم اقتصادياً وفكرياً واجتماعياً.

كراهة المسلمين الأحرار للحكم العباسي الجائر:

نقم المسلمون على الحكم العباسي بأشد ما تكون النقمة، وتمنوا رجوع الحكم الأموي على ما فيه من قسوة وعذاب إذ كانت سياستهم سياسة الجور والظلم، قال عبد الرحمن الأفريقي للمنصور الدوانيقي:

«ظهر الجور ببلادنا فجئت لأعلمك، فإذا الجور يخرج من دارك ورأيت أعمالاً سيئة، وظلماً قاشياً، ظننته لبعده البلاد منك فجعلت كما دنوت منك كان الأمر أعظم» فالتاع المنصور من كلامه وأمر بإخراجه^(٢).

(١) المصدر نفسه، والعجب كل العجب أنه من أعطى المنصور هذا الاذن الإلهي؟ ومن سمح له أن يكون قفلاً؟ وكأنه وكيل الله على الأرض!! إنه كأسلافه وأتباعه يقول باسم الدين، والدين منه براء!! .

(٢) تاريخ بغداد: ج ١٠ ص ٢١٥.

ثم سأل المنصور ابن أبي ذؤيب قائلاً له: «أي الرجال أنا؟».

فأجابه أبو ذؤيب بمنطق الأحرار الذي لا يخضع للسلطان فقال: «أنت والله عندي شر الرجال، استأثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين، وأهلكت الضعيف، واتبعت القوي وأمسكت أموالهم»^(١).

فسياسة ملوك بني العباس كانت متشابهة في الجور والظلم والقسوة كسياسة بني مروان. يقول أبو العطاء السندي:

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار^(٢)
وقال أحمد ابن أبي نعيم:

ما أحسب الجور ينقضي وعلى النا س أمير من آل عباس
فنفاه المأمون بسبب هذا البيت إلى السند^(٣).

ويقول شاعر الأحرار سديف:

إننا لنأمل أن تترد الفتنا بعد التباعد والشحناء والأحن
وتنقضي دولة أحكام قادتها فينا كأحكام قوم عابدي وثن
فانتشر هذا الشعر، وسمعه المنصور فأوعز إلى عامله عبد الصمد بدفنه حياً
ففعل^(٤).

والشاعر سليم العدوي استنهض الأمة لثور على الحكم العباسي، فقال:

حتى متى لا نرى عدلاً نسربه ولا نرى لولاء الحق أعوانا
مستمسكين بحق قائمين به إذا تلون أهل الجور ألوانا
يال للرجال لداء لا دواء له وقائد ذي عمي يقتاد عميانا^(٥)
حنق المسلمون على الحكم العباسي ونقموا عليه لأنه لم يحقق لهم أي

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ ص ١٤٥.

(٢) حياة الإمام الرضا: ص ١٠٨.

(٣) نهاية الأرب: ج ٨ ص ١٧٥.

(٤) العمدة لابن رشيقي: ج ١ ص ٧٥.

(٥) المستطرف: ج ١ ص ٩٧.

هدف من أهدافهم ولا أي أمل من آمالهم، وإنما كان وابلأ من الطيش والعنف وإرغام الناس على ما يكرهون، استولوا على أموال المسلمين بغير حق، وأنفقوها بغير حق وساموا الناس بالذل والهوان.

لذلك كله كان لا بد من قيام ثورات شعبية عارمة.

الثورات الشعبية:

ماجت البلاد الإسلامية بالفتن واشتعلت فيها الثورات الشعبية لسوء السياسة العباسية التي لم ترع بأي حال مصالح المجتمع ورغباته الهادفة إلى العدل السياسي، والعدل الاجتماعي بين الناس.

من أهم هذه الثورات التي حمي وطيسها:

١ - ثورة أبي السرايا: من أخطر الثورات التي اندلعت في ذلك العصر، وقد خسر فيها المسلمون ما يقارب المائتي ألف مقاتل. ومفجر هذه الثورة الزعيم العلوي العظيم محمد بن إبراهيم الطباطبائي فهو الذي وضع مخططاتها وصمم تصاميمها^(١).

رأى هذا الثائر العلوي الشريف ما مني به المسلمون من الظلم والجور والاضطهاد، وما عاناه السادة العلويون من التنكيل والارهاق والضيق، فتحفز لاعلان الثورة لايقاظ المسلمين عامة والعلوين خاصة من الطغمة العباسية الحاكمة. وقد وصفه المؤرخون بأنه كان شديد الرقة والعطف على الفقراء. مر في بعض شوارع الكوفة فرأى عجوزاً تتبع أحمال الرطب فتلتقط ما يسقط منها، وتجمعه في كساء رث فسألها عن ذلك، فقالت له: «إني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤونتي، ولي بنات لا يعدن أنفسهن بشيء، فأنا أتبع هذا في الطريق، واتقوته أنا وولدي».

ولما سمع ذلك انفجر باكياً والتفت إليها قائلاً بحرارة: «والله أنت وأشباهك تخرجوني غداً حتى يسفك دمي»^(٢).

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٤ ص ٨.

(٢) مقاتل الطالبين: ص ٥٣٩.

هذا الاحساس دفعه لاعلان الثورة لينقذهم من الظالمين، الذين اختلسوا أموال الشعب. وأخذ يتصل بذوي الرأي والنفوذ من زعماء العرب يطلب منهم الانضمام إليه والاشتراك معه في مقاومة الظلم وقلب الحكم، فعرض على الزعيم العربي الكبير نصر ابن شيت. فقال له: «حتى متى توطنون بالخسف، وتهضم شيعتكم وينزى على حقكم»^(١).

ألهمت هذه الكلمات عواطفه ودكت مشاعره، فتحفز محمد إلى الاسراع في الثورة عندما وجد الفرصة المناسبة سانحة له وهي: اختلاف العباسيين فيما بينهم وتفرق كلمتهم بسبب الفتنة الكبرى التي حدثت بين ولدي هارون الأمين والمأمون، وصراهم على تولي السلطة. مما أحدث تصدع الحكم، وتطلع المجتمع إلى ثورة تنقذهم من ويلات الحكم العباسي. والذي زاد من خطورة الثورة انضمام بعض القواد العرب إلى الثورة فكان:

انضمام أبي السرايا إلى الثورة:

هو قائد ماهر علوي الرأي انضم إلى الثورة لأنه كان يتألم جداً لما أصاب العلويين السادة من الخطوب والمآسي والمحن على أيدي الحكام العباسيين.

وهو سري بن منصور الشيباني ثائر شجاع محنك من الأمراء العصاميين خاض حروباً كثيرة، ولما نشبت الحرب بين الأمين والمأمون التحق أبو السرايا بمعسكر هرثمة بن أعين، وسار معه في ألفي مقاتل، ولما قتل الأمين نقص هرثمة من عطايا الجيش ومرتباتهم فساء ذلك أبا السرايا، وعزم على التخلي عنه، واستأذنه أن يحج فأذن له، وأعطاه عشرين ألف درهم فأخذها وفرقها بين أصحابه، وبذلك استمالهم وأوصاهم باتباعه إلى (عين التمر). ولما انتهوا إليها أخذوا عاملها ونهبوا أمتعته، ثم قصدوا عاملاً آخر لبني العباس فأخذوا أمواله وقسموها بينهم، ولما وصلت الأنباء إلى هرثمة فقد صوابه وأرسل جيشاً لقتال أبي السرايا.

التقى الجيشان ودارت بينهما معركة رهيبة انتصر على أثرها أبو السرايا ومنى

(١) المصدر نفسه: ص ٥١٨.

جيش هرثمة بخسائر فادحة. وأكمل أبو السرايا زحفه قاصداً الأنبار، ولما وصل إليها استولى على الإدارة المحلية فيها وقتل عاملها إبراهيم الشروري، وصادر جميع أمواله. والآن أصبح لأبي السرايا المال والرجال.

التقاء أبي السرايا بمحمد بن إبراهيم:

واصل أبو السرايا الزحف بجيوشه، وكان كلما انتهى إلى بلد فتك بعمال بني العباس واستولى على أموالهم، حتى وصل إلى الرقة ومنها التقى بالزعيم العلوي الكبير محمد بن إبراهيم، وبعد مباحثات دقيقة بينهما عرضا فيها ما يعانیه المسلمون من الذل والهوان من طغاة الحكم العباسي صمما استكمال المسيرة والقضاء عليه، والدعوة إلى بيعة الإمام الرضا من آل محمد ﷺ^(١).

أسند محمد إلى أبي السرايا القيادة العسكرية العامة، ومنحه ثقته وفوض إليه جميع شؤون الثورة. وماذا بعد؟.

اعلان الثورة على الحكم العباسي:

أعلن أبو السرايا الثورة على الحكم العباسي وزحف بجيوشه نحو (نينوى) واتجه صوب مرقد أبي الأحرار وسيد الشهداء الإمام الحسين ﷺ، فزار المرقد الطاهر، وأطال الزيارة. ورفع عقيرته قائلاً: «من كان هاهنا من الزيدية فليقم إلي؟».

فنهض إليه جماعة من الجيش فخطبهم خطبة طويلة أشاد فيها بأهل البيت ﷺ، مبيناً مآثرهم ومادحاً فضائلهم، وما عانوه من الظلم والاضطهاد من خصومهم ثم عرج في خطابه على سيد الشهداء الإمام الحسين ﷺ فقال:

«أيها الناس هبكم لم تحضروا الحسين فتنصروه، فما يقعدكم عنم أدركتموه ولحقتموه وهو غداً خارج طالباً بثأره وحقه، وتراث آبائه، وإقامة دين الله، وما يمنعكم من نصرته ومؤازرته، إنني خارج من وجهي هذا إلى الكوفة للقيام بأمر الله، والذب عن دينه والنصر لأهل بيته فمن كانت له نية في ذلك فليلحق بي...».

(١) تاريخ ابن خلدون: ج ٧ ص ٢٤٣.

استجابت له الزيدية وغيرهم، واتجه أبو السرايا بجيوشه نحو الكوفة ثم التقى بمحمد وبقي معه أياماً واتجه معه نحو الكوفة، ولما انتهى إليها استقبله أهلها استقبالاً رائعاً وأظهروا فرحة كبرى بقدومه وبايعوه بالإجماع^(١).

احتلت جيوش أبي السرايا الكوفة، ونهبوا جميع ما في قصر الوالي الفضل ابن عيسى، لكن أبو السرايا لم يرغب في ذلك فأصدر أوامره المشددة إلى الجيش بالكف عن السلب وارجاع المنهوبات إلى أهلها.

ولما ذاع صيته وأصبح وجوده خطراً على الحاكم العباسي في بغداد؛ أرسل الحسن بن سهل حاكم العراق من قبل المأمون ثلاثة آلاف فارس بقيادة زهير بن الحسن لحرب أبي السرايا، ولما انتهى إلى الكوفة التحمت مع جيوش أبي السرايا، فانهزم الجيش العباسي، واستولى جيش أبي السرايا على جميع أمتعته. سرى الرعب والخوف في نفوس العباسيين وأيقن الكثيرون منهم أن الثورة قد نجحت وأن مصيرهم في خطر كبير.

وفاة الزعيم العلوي العظيم محمد بن إبراهيم الطباطبائي:

ذهبت معظم المصادر التاريخية إلى أنه توفي وفاة طبيعية، وأكبر الظن: توفي حتف أنفه. وقام أبو السرايا بتجهيزه فغسل الجثمان وأدرجه في أكفانه وحمل في غلس الليل البهيم إلى (الغري) فدفن فيه^(٢).

تولى بعده القيادة أبو الحسن علي بن عبيد الله بتوافق الجميع وبايعوه، فقام بعزم ثابت ونظم شؤون حكومته، وبعث عماله إلى الأقطار الإسلامية التي فتحها أبو السرايا وهي:

- ١ - الكوفة ولى عليها إسماعيل بن علي.
- ٢ - اليمن ولى عليها إبراهيم نجل الإمام موسى بن جعفر.
- ٣ - الأهواز جعل عليها زيد بن موسى.

(١) مقاتل الطالبيين: ص ٥٣٣.

(٢) المصدر السابق.

٤ - البصرة استعمل عليها العباس بن محمد .

٥ - مكة جعل عليها الحسن بن الحسن الأفطس .

٦ - واسط جعل عليها جعفر بن محمد بن زيد، وجعل على شرطته روح ابن الحجاج، وأسند القضاء إلى عاصم بن عامر .

وضربت النقود بالكوفة، وكتب عليها الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ، صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُتْنٌ مَرْضُوعٌ﴾^(١).

وأخذت الثورة يتسع أوارها في مناطق العالم الإسلامي والمسلمون استجابوا بفرح للحكم العلوي . عندها أدرك العباسيون الخطر المحقق بدولتهم وزوال سلطانهم . وقد مني والي العراق الحسن بن سهل بهزيمة ساحقة فكتب إلى هرثمة بن أعين التعجيل في القدوم إليه، وأوفد لمقابلته السندي بن شاهك، ثم أخذ هرثمة يجمع الجيوش ويعد العدة لمناجزة أبي السرايا، ولما كملت جيوشه، وكان عددهم ما يقارب ثلاثين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل زحف بهم نحو الكوفة والتقى جيشه بجيش أبي السرايا، فالتحما ودارت بينهما حروب قاسية وقتل من أصحاب أبي السرايا خلق كثير وانهارت قواه العسكرية ولم يعد قادراً على حماية الكوفة، فهرب نحو القادسية ومنها إلى السوس ثم إلى خراسان، ثم قتل أبو السرايا وصلب رأسه في الجانب الشرقي من بغداد وبدنه في الجانب الغربي^(٢).

وانتهت بذلك هذه الحادثة الخطيرة، وقد قتل فيها ما يقارب من مائتي ألف مقاتل، وإن هذه الثورة وأمثالها كانت من سوء السياسة العباسية التي لم تأل جهداً في ظلم الناس وإرغامهم على العبودية للحكم العباسي . وهذا ما يشير بوضوح إلى أن الحياة السياسية في عصر الإمام الرضا عليه السلام كانت مضطربة جداً وبشعة جداً، فانتشرت الاضطرابات وشاع التمرد على الحكم العباسي في معظم البلاد الإسلامية . وهنا بدأت المحن ضد العلويين والتنكيل بهم^(٣).

(١) سورة الصف: الآية، ٤.

(٢) مقاتل الطالبين .

(٣) تاريخ الطبري: ج ١٠ ص ٤٤٦.

التنكيل بالعلويين:

عانى العلويون في العصور العباسية الأولى أقسى المحن وأمرها، والتي شاهد بعضها الإمام الرضا عليه السلام وقد عمد العباسيون بشكل سافر إلى اضطهادهم وتعذيبهم وتصفيتهم جسدياً بالسم أو بالسيف. وكان أول من أوقع الفتنة بين العلويين والعباسيين المنصور الدوانيقي وهو القائل:

«قتلت من ذرية فاطمة ألفاً أو يزيد، وتركت سيدهم وإمامهم جعفر بن محمد».

معاذ الله كيف تحرك لسانه ينطق هذه الكلمات!! لقد قتل هذا العدد الغفير من الأطنهار الأبرار ليجعلهم ذخراً له يقدمهم هدية إلى جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الله رب العالمين، وهو الذي ترك لولده خزانة رؤوس العلويين، وعلق بكل رأس ورقة كتب عليها اسم العلوي، وقد حوت هذه الخزانة رؤوس شيوخ وأطفال وشباب، وقال للإمام الصادق عليه السلام.

«لأقتلنك ولأقتلن أهلك حتى لا أبقى على الأرض منكم قامة سوط»^(١) هذا ما اقترفه المنصور اللعين من إراقة الدماء الطاهرة لأبناء النبي صلى الله عليه وآله، وهو يعد من أسوأ الصفحات في تاريخ الدولة العباسية^(٢).

واستمر الظلم والاجرام في عهد الهادي للأسرة العلوية فقد أربهم وألح في طلبهم، وقطع أرزاقهم وأعطياتهم وكتب إلى الآفاق بطلبهم^(٣).

وفي عهد هارون الرشيد فقد عانى العلويون أشد وأقسى ألوان الظلم والجور، يقول الفخري: «لم يكن يخاف الله وأفعاله بأعيان آل علي وهم أولاد بنت نبيه لغير جرم»^(٤).

وأقسم الرشيد - لا أرشده الله - على تصفيتهم يقول: «حتام أصبر على آل

(١) المناقب: ج ٣ ص ٣٥٧.

(٢) مختصر تاريخ العرب: ص ١٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ج ٣ ص ١٣٦.

(٤) الآداب السلطانية: ص ٢٠.

بني أبي طالب والله لأقتلنهم ولأقتلن شيعتهم»^(١) وقد أوعز إلى عامله على يثرب بأن يضمن العلويون بعضهم بعضاً وهو الذي هدم قبر سيد الشهداء وريحانة رسول الله ﷺ الإمام الحسين عليه السلام، وقطع السدرة التي كان يستظل تحتها الزائرون، وقد قام بذلك عامله على الكوفة موسى بن عيسى العباسي.

ويصف دعبل الخزاعي ما عاناه العلويون من القتل والسجن والتعذيب، من العباسيين فقال:

وليس من حي من الأحياء نعلمه من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك إيسارا على جزر
قتلاً وأسراً وتحريقاً ومنهبة فعل الغزاة بأهل الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن فعلوا ولا أرى لبني العباس من عذر^(٢)
وعرض الشاعر ابن الرومي في قصيدة رثى بها العلويين، قال:

ألا أيها الناس طال ضريركم بآل رسول الله فاخشوا أو اتجوا
أكل أوان للنبي محمد قتيل زكي بالدماء مخرج
تبيعون فيه الدين شر أئمة فله دين الله قد كاد يمرج^(٣)
وتابع قائلاً:

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم لبلواكم عما قليل مفرج^(٤)
أما فيهم راع لحق نبيه ولا خائف من ربه يتحرج^(٥)
وكثير من الشعراء الأحرار عرضوا ما عاناه السادة العلويون من المحن والخطوب من الحكام العباسيين، لكنهم رضي الله عنهم بحكم تكليفهم الشرعي صبروا وجاهدوا ودافعوا عن الحق بجرأة علوية معروفة .

(١) الأغاني: ج ٥ ص ٢٢٥.

(٢) ديوان دعبل.

(٣) أراد بشر الأئمة ملوك العباسيين. ويمرج: أي يفسد.

(٤) الشلو: العضو، ولمراد قتل أبنائهم.

(٥) مقاتل الطالبين: ص ٦٤٦.

أسباب دعت المأمون للحقد على الإمام عليه السلام

منها: دعاء الإمام للاستسقاء:

حبس المطر عن الناس في سنة صعبة، فطلب إليه المأمون أن يدعو الله تعالى لينزل المطر على الناس، فأجابه الإمام عليه السلام: «إني أفعل ذلك يوم الاثنين، فقال له المأمون: ولم ذلك؟ فقال عليه السلام:

«إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاني البارحة، ومعه أمير المؤمنين علي عليه السلام وقال: يا بني انتظر يوم الاثنين، فأبرز إلى الصحراء واستسق، فإن الله تعالى سيسقيهم، وأخبرهم بما يريك الله مما لا يعلمون من حالهم، ليزدادوا علماً بفضلك ومكانك من ربك عز وجل...».

انتظر المأمون، وباقي حاشيته يوم الاثنين، وقد أوعز إلى جميع الأوساط الشعبية بالخروج إلى الصحراء في ذلك اليوم الموعود، ولما حان هذا اليوم هرعت الناس إلى الصحراء، وخرج الإمام عليه السلام وعليه هبة جده صلى الله عليه وآله وسلم، فلما انتهى إلى الصحراء نصب له منبر، وقد حفت به الجماهير وقد علت أصواتهم بالتهليل والتكبير.

دعاء الإمام:

اعتلى الإمام المنبر فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، ثم قال: «اللهم يا رب أنت عظمت حقنا أهل البيت، فتوسلوا بنا كما أمرت وأملوا فضلك، ورحمتك، وتوقعوا إحسانك، ونعمتك، فاسقهم سقياً نافعاً، عاماً، غير رايت^(١)، ولا ضائر، وليكن ابتداء مطرهم بعد انصرافهم من مشهدهم هذا إلى منازلهم ومقارهم...».

وأضاف الإمام قائلاً: «فوالذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق نبياً، لقد نسجت

(١) المطمئن: من الأرض بين جبلين.

الرياح في الهواء والغيوم، وأرعدت وأبرقت..». ولما سمعت الجماهير كلام الإمام أرادت الرجوع إلى أهلها لئلا يصيبهم المطر، فقال عليه السلام: ليست هذه السحابة التي أطلت عليكم لكم وإنما هي لبلد، وسماء لهم.

وهكذا، وبإذن الله، أطلت على الجماهير عشر سحب متوالية، ويخبر الإمام عن كل سحابة أنها تهطل في بلد وسماء، وأطلت السحابة الحادية عشر، فقال عليه السلام:

«أيها الناس: هذه سحابة بعثها الله عز وجل لكم، فاشكروا الله على تفضله عليكم، وقوموا إلى مقاركم، ومنازلكم فإنها مساقه لكم، ولرؤوسكم ممسكة عنكم إلى أن تدخلوا إلى مقاركم، ثم يأتيكم من الخير ما يليق بكرم الله تعالى وجلاله...».

ثم نزل من على المنبر، وسارعت الجماهير إلى بيوتها، فلما انتهت إليها هطلت السحابة بوابل من المطر، لم يسبق له مثل فملئت الأودية والأنهار، والغدران، والفلوات.

عند ذلك أيقن الناس بكرامة أهل البيت، وعرفوا منزلتهم الرفيعة عند الله تعالى، وقالوا: هنيئاً لولد الرسول عليه السلام كرامات الله عز وجل لهم، وهذه الكرامة هي من كرامات هذا الإمام العظيم.

وعلى أثر هذه الكرامة الجليلة خطب الإمام عليه السلام في حفل كبير حاشد فقال عليه السلام:

خطاب الإمام:

«أيها الناس: اتقوا الله في نعمه عليكم، فلا تنفروها عنكم بمعاصيه، بل استديموها بطاعته، وشكركه على نعمه وأياديه، واعلموا أنكم لا تشكرون الله تعالى بشيء بعد الإيمان بالله، وبعد الاعتراف بحقوق أولياء الله من آل محمد رسول الله عليه السلام أحب إليه من معاونتكم لاخوانكم المؤمنين على دنياهم التي هي معبر لهم إلى جنان ربهم، فإن من فعل ذلك كان من خاصة الله تبارك وتعالى وقد قال رسول الله عليه السلام في ذلك قولاً ما ينبغي لقائل أن يزهده في فضل الله عليه فيه أن تأمله وتعمل عليه؟».

قيل: يا رسول الله هلك فلان يعمل من الذنوب كيت، وكيت، فقال رسول الله: بل قد نجا، ولا يختم الله عمله إلا بالحسنى، وسيمحو الله عنه السيئات، ويبدلها حسنات، إنه كان يمر مرة في طريق عرض له مؤمن قد انكشفت عورته وهو لا يشعر فسترها عليه، ولم يخبره مخافة أن يخجل، ثم أن ذلك المؤمن عرفه في هواه فقال له: أجزل الله لك الثواب وأكرم لك المآب، ولا ناقشك في الحساب، فاستجاب الله له فيه، فهذا العبد لا يختم الله له إلا بخير بدعاء ذلك المؤمن، فاتصل قول رسول الله ﷺ بهذا الرجل فتاب وأتاب وأقبل على طاعة الله تعالى عز وجل، فلم تأت سبعة أيام حتى أغير على سرح المدينة، فوجه رسول الله ﷺ في أثرهم جماعة ذلك الرجل أحدهم فاستشهد...».

حفل هذا الخطاب العظيم بمبادئ عظيمة تدعو إلى تقوى الله وإلى التعاون والتآلف بين المسلمين، واعتبر ذلك من أفضل الطاعات والقربات إلى الله تبارك وتعالى.

اعمل خيراً شراً تلقى

تحذير وتحريض:

بعد هذا الحديث الهام بدأت المجالس والأندية تتحدث عن استسقاء الإمام عليه السلام وهطول الأمطار الغزيرة التي دبت في الأرض حياة وفي قلوب الناس فرحاً. لم يرض هذا العمل الخير العملاء وخاصة العباسيين الذين ورمت أنوفهم من الإمام وتميزوا بالغيظ والغضب، لأن فضل العلويين ظهر أمام الملأ وبان مالهم من المنزلة العظيمة عند الله تعالى وقد هرع وغد خبيث نحو المأمون يحذره ويعاتبه من عقد ولاية العهد للإمام عليه السلام وظهوره هذه الكرامة له قائلاً:

«يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تكون تاريخ الخلفاء^(١) في إخراجك هذا الشرف العميم، والفخر العظيم من بيت ولد العباس إلى بيت ولد علي».

(١) يعني: كناية عن عظيم الواقعة وهي عقده بولاية العهد للإمام، وأنها ستكون موضوع تاريخ للناس، ويحتمل أن يكون المراد أنت آخر الخلفاء.

لقد أعنت على نفسك وأهلك، جئت بهذا الساحر، ولد السحرة وقد كان خاملاً فأظهرته، ومتضعاً فرفعته، ومنسياً فذكرت به، ومستخفاً فنوهت به، قد ملأ الدنيا مخرقة^(١)، وتشوقاً بهذا المطر الوارد عند دعائه، ما أخوفني أن يخرج هذا الرجل هذا الأمر عن ولد العباس إلى ولد علي، بل ما أخوفني أن يتوصل بسحره إليك وإزالة نعمتك، والتواثب على مملكتك، هل جنى أحد على نفسه ومملكه مثل جنائتك؟ . . .».

فتأمل معي رعاك الله هذا المنطق الجاهلي الأرعن الذي حكى على الرسول الأعظم عليه السلام أنه ساحر، وذلك لظهور المعاجز والآيات على يده وكذلك حكموا على حفيده بهذا الحكم السقيم.

والآن ماذا قال المأمون عندما سمع هذا الكلام؟ لنستمع إلى جوابه: قال: «قد كان هذا الرجل - يعني الإمام الرضا - مستتراً عنا، يدعو إلى نفسه، فأردنا أن نجعله ولي عهدنا، ليكون دعاؤه لنا، وليعترف بالملك والخلافة لنا، وليعتقد فيه المفتتون به أنه ليس مما ادعى في قليل ولا كثير، وإن هذا الأمر لنا من دونه، وقد خشينا إن تركناه على تلك الحالة أن يفتق علينا منه ما لا نسده، ويأتي علينا منه ما لا نطيعه. والآن فإن قد فعلنا به ما فعلناه، وأخطأنا في أمره بما أخطأنا، وأشرفنا من الهلاك بالتنويه على ما أشرفنا فليس يجوز التهاون في أمره، ولكننا نحتاج أن نضع منه قليلاً، قليلاً، حتى نصوره عند الرعايا بصورة من لا يستحق لهذا الأمر، ثم ندبر فيه بما يحسم عنا مواد بلائه. . .»^(٢).

لقد كشف الغطاء وبان ما كان يخزنه المأمون في صدره من ندم لعقده ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام وذلك لأسباب:

١ - أن الإمام عليه السلام في نظر المأمون كان يدعو الناس إلى نفسه سرراً، وبتقليده لولاية العهد يكون دعاؤه للمأمون، ويعترف بمملكه وخلافته.

(١) المخرقة: الشعوذة.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٦٩.

٢ - إنه أراد أن يظهر للملأ أن الإمام عليه السلام لم يكن زاهداً في الحكم ومبتغياً الدار الآخرة، وإنما يريد سلطان الدنيا.

وقد اعترف أخيراً أنه أخطأ في ترشيحه الإمام عليه السلام لهذا المنصب، وانتدابه للقيام بالاستسقاء وغيره، حيث ظهرت روحانيته، وعظيم مكانته عند الله، ولكنه سوف يضم له المكاييد ويبغي له الغوائل حتى يقضي عليه.

خشية المأمون من التفاف الجماهير حول الإمام:

خشي المأمون من التفاف الجماهير حول الإمام عليه السلام، وخاف على ملكه من الزوال، فقد استبان للناس فضل الإمام عليه السلام وروحانيته، وأنه هو القادر أن يبسط العدل الاجتماعي والعدل السياسي في ربوعهم، وأن بني العباس لا قدرة لهم لزعامة الأمة والتحكم في سلطان المسلمين.

خلوة وحيرة:

فكر المأمون ملياً في خلوة مع نفسه، وقلّب الرأي على وجوهه مع مستشاريه للتخلص من الإمام الذي بات خطراً على ملكه حسب اعتقاده، فاتخذ قرارات هامة وهي:

أولاً: عقد المؤتمرات العلمية التي تضم كبار علماء البلاد لامتحان الإمام عليه السلام لعله يعجز عن الإجابة فيتخذ الخبيث من ذلك وسيلة للطعن في شخصية الإمام عليه السلام وإبطال مذهب التشيع، الذي ينص على أن الإمام لا بد أن يكون أعلم أهل زمانه، كما أنه إذا عجز الإمام عليه السلام فإنه يكون في فسحة من عزله عن ولاية العهد.

لكن هذه الخطة المأمونية قد فشلت فشلاً ذريعاً وبدل أن ينخفض صيت الإمام، ارتفع عالياً، وأقرت جميع الوفود العلمية وقادة الفكر، بأنه يملك طاقات هائلة من العلوم والمعارف لا تحد، وأنه أستاذ العلماء في عبقرياته الفذة ومواهبه العظيمة، الأمر الذي أوجب أن يقر بإمامته طائفة من مختلف الاتجاهات ومن كبار العلماء والأطباء، الذين توافدوا إليه من مختلف البلدان لامتحانه.

ثانياً: مراقبة الإمام:

فرض المأمون الرقابة على الإمام عليه السلام فالتفوا حوله من قوى الأمن يحصون عليه جميع تحركاته. وقد استندت مديرية الرقابة التي تشرف عليه إلى هشام بن إبراهيم الراشدي الهمداني. وكان هذا إبراهيم، فما يقول الرواة: عالماً وأديباً، وكانت أمور الإمام قبل أن يحمل إلى (خراسان) تجري من عنده وعلى يده، كما أن الأموال التي كانت ترسل إلى الإمام عليه السلام كانت على يده، ولما حمل عليه السلام إلى خراسان اتصل إبراهيم بذي الرياستين فأغراه بالمنصب والأموال، فتغلب هواه على دينه فانحرف عن الحق، فصار عيناً على الإمام فجعل ينقل جميع أخباره وشؤونه إلى الفضل وإلى المأمون، وقد أسند إليه المأمون حجابة الرضا، فضيق على الإمام غاية التضييق، ولا يقوم بأي شاردة أو واردة إلا عرضها على المأمون وعلى وزيره الفضل. وبذلك استطاع المأمون فرض السيطرة على جميع شؤون الإمام، وعرف تماماً جميع من يتصل به.

ثالثاً: منع جماهير الشيعة من الاتصال بالإمام:

منع المأمون الشيعة من الحضور في مجالس الإمام عليه السلام والاستماع إلى حديثه، وقد عهد المأمون بذلك إلى حاجبه محمد بن عمرو الطوسي، فطرد الشيعة ومنعهم من الالتقاء بالإمام عليه السلام. ولما وجد الإمام هذه المعاملة الشرسة من المأمون غضب عليه السلام وقام فصلى ركعتين وقال في قنوته:

«اللهم يا ذا القدرة الجامعة، والرحمة الواسعة، والمنن المتتابعة والآلاء المتوالية، والأبادي الجميلة، والمواهب الجزيلة، يا من لا يوصف بتمثيل، ولا يمثل بنظير، يا من خلق فرزق، وألهم فأنطق وابتدع فشرع، وعلا فارتفع، وقدر فأحسن، يا من سمي في العزففات خواطف الأبصار، ودنا في اللطف فجار هواجس الأفكار.

يا مَنْ تفرد بالملك فلا ند له في ملكوت سلطانه، وتوحد بالكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه، يا من حارت في كبرياء هيبتته دقائق لطائف الأوهام، وحسرت دون إدراك عظمتة خطايف أبصار الأنام، يا عالم خطرات قلوب العارفين وشاهد لحظات أبصار الناظرين، يا من عنت الوجوه لهيبتته، وخضعت الرقاب

بجلالته، ووجلت القلوب من خيفته، وارتعدت الفرياض من فرقه، يا بديء يا بديع، يا قوي يا منيع، يا علي، يا رفيع، صل على من شرفت الصلاة بالصلاة عليه، وانتقم لي ممن ظلمني، واستخف بي، وطرد الشيعة عن بابي، وأذقه مرارة الذل والهوان كما أذقنيها، وأجعله طريد الأرجاس وشريد الأنجاس...»^(١).

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء الإمام عليه السلام فثارت الضجة على المأمون وانتشرت الغوغاء في كل مكان حتى كادت تقضي عليه فاضطرب وخاف وامتلاً قلبه رعباً.

وقد حاول المأمون مرة أخرى النكاية بالإمام عليه السلام فطرد الشيعة من حوله. ولما علم عليه السلام بذلك قام فاغتسل وصلى ركعتين ودعا في قنوته بهذا الدعاء:

«اللهم أنت الله الحي، القيوم، الخالق، الرازق، المحي المميت، البديء البديع، لك الكرم، ولك الحمد، ولك المن، ولك الأمر، وحدك لا شريك لك، يا واحد، يا أحد، يا فرد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، صل على محمد وآل محمد...» ثم دعا الله بصرف ما أهمه، فكشف عنه كيد المأمون وبغيه.

رابعاً: عرض الخلافة على الإمام عليه السلام:

عرض المأمون الخلافة على الإمام عليه السلام لأسباب سياسية باتت مكشوفة للجميع، فقال له: إني رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة، وأجعلها لك، وأبأبعك، فيا سبحان الله!! المأمون الذي قتل أخاه الأمين من أجل كرسي الحكم يريد أن يعزل نفسه عن الخلافة ويسلمها على طبق من فضة للإمام الرضا!! أليس في هذا ما يدعو إلى العجب؟!.

فماذا كان جواب الإمام عليه السلام الذي يعلم جيداً ما يتلجلج في صدر المأمون قبل أن ينطق؟. لقد أجاب عليه السلام بصراحة تامة فقال:

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٦٢.

«إن كانت هذه الخلافة لك، والله جعلها لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسه الله، وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك، فلا يجوز أن تجعل لي ما ليس لك...»^(١).

ما شاء الله عن هذه الحجة الدامغة الحافلة بالصدق والحق، وهذا المنطق السليم المفحم، إنه إما معصوم ابن إمام معصوم عليه السلام. لما سمع المأمون هذا الجواب فقد صوابه وارثك ولم يدر ماذا يقول فالتجأ إلى الصمت والتفكير بمكيدة جديدة.

ولاية العهد:

ولما امتنع الإمام عليه السلام من قبول الخلافة عرض عليه المأمون ولاية العهد، فأجابه أيضاً بجواب حاسم وبجراحة وصرامة فقال عليه السلام «تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى الرضا لم يزهده في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد؟» عند ذلك طفح قلب المأمون غيظاً على الإمام والتاع وورم أنفه، وصاح بالإمام قائلاً:

«إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد، وإلا أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك...»^(٢).

لم يجار الإمام أحداً من الحكام والمسؤولين ولم يصانع المأمون أو غيره، بل وقف منه موقفاً اتسم بالجد والصرامة، والنقد اللاذع لبعض أعماله، ولو صانع المأمون وتقرب إليه، وأرضى عواطفه لما قدم المأمون على سجنه واغتياله.

والإمام الرضا عليه السلام هو من مدرسة أهل البيت التي كان رائدها ومؤدبها الرسول الأعظم، فقد أدب عليه السلام أهل بيته فكانوا كما أراد أصحاب علم وفقه وفضل:

قوم كأولهم في الفضل آخرهم والفضل أن يتساوى البدء والعقب

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٣٩.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٤٠.

خطوات معادية رهيبة للإمام الرضا عليه السلام:

قام الفضل بن سهل^(١) بخطوات خطيرة معادية للإمام الرضا عليه السلام والتي كان منها وشايته بالإمام إلى المأمون، فقد قال له: «إنك جعلت ولاية العهد لأبي الحسن، وأخرجتها من بني أبيك والعامّة، والعلماء، والفقهاء، وآل عباس لا يرضون بذلك وقلوبهم متنافرة عنك...»^(٢).

بهذا الكلام ملأ الفضل قلب المأمون حقداً وكراهية للإمام، واختار الأفكار المؤثرة ليحرضه على الإمام ويغدر به.

وبذلك أصبح الفضل شديد المعارضة للإمام، فإذا ذهب الإمام إلى رأي عاكسه، ودعا المأمون إلى نقده.

غضب وغيظ وحيرة:

لم يمض وقت طويل على تقلد الإمام الرضا عليه السلام لولاية العهد حتى تنكر له المأمون كأشد ما يكون التنكر، وأخذ يكيد له المكائد في غلس الليل، ويبغي له الخوائل في وضح النهار. ففرض عليه الرقابة الشديدة ثم حبسه في بيته ومنع العلماء والفقهاء من الاتصال به، والانتهاج من نمير علومه، كما منع سواد شيعته من مقابلته لأن الإمام في ذلك الوقت أصبح له جماهير غفيرة من الشيعة وغيرهم يقدرونه ويعملون برأيه.

لقد أصبح للإمام مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، وقد زدادت هذه

(١) الفضل بن سهل السرخسي أسلم على يد المأمون سنة ٩٠هـ، وكان من أخبر الناس بعلم النجوم، وقد طلب المأمون من والده الفضل أن ترسل إليه بما خلفه ابنها فأرسلت إليه صندوقاً صغيراً مختوماً ففضه، فإذا فيه رقعة من جريد مكتوب فيه بخطه بعد البسملة هذا ما قضى الفضل بن سهل على نفسه، قضى أن يعيش ٤٨ سنة ثم يقتل ما بين ماء ونار، وقد عاش هذه المدة، ثم قتله غالب خال المأمون بسرخس، والفضل بن سهل ليس شيعياً كما ذهب إليه ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٠٩ وقد أكد ذلك السيد جعفر مرتضى في كتابه: «الإمام الرضا» نفى عن الفضل نسبة التشيع بصورة جازمة.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٦٠.

المكانة وترسخت حينما أسندت إليه ولاية العهد، ورأوا واضحاً عدم تكلف الإمام عليه السلام وبعده عن مغريات الحياة، وزهده في الدنيا ومشاركته للناس في الأمهم، وعطفه على الضعفاء، وحنوه على البؤساء وسعة علومه ومعارفه، وإحاطته بما تحتاج إليه الأمة في جميع شؤونها، وشدة إنابته إلى الله تعالى وتقواه، إلى غير ذلك من معالي أخلاقه العلوية النبيلة التي يحار فيها الفكر، والتي هي امتداد ذاتي لأخلاق جده الرسول الأعظم عليه السلام الذي «أدبه ربه فأحسن تأديبه» وقضى على جميع التخلف عند المسلمين خاصة والعرب عامة. رأى الناس بكل وضوح الأخلاق العلوية الماثلة في الإمام الرضا عليه السلام فهاموا بحبه، وأمّنوا بإمامته، ووجدوه أحق من غيره في تسلم الخلافة وإدارة شؤون البلاد والعباد؛ في حين وجدوا المأمون وسائر ملوك بني العباس قد اتصفوا عكس ما اتصف به الإمام.

فهم من حين أن تقلدوا الخلافة لم يؤثر عنهم جميعاً أي مكرمة أو فضيلة، فقد غرقوا في شهواتهم وملذاتهم، وأنفقوا الملايين من أموال المسلمين على لياليهم الحمراء.

كل هذا أقلق حال المأمون وأخذ يتخبط في غيظه وغضبه ينتظر اليوم المناسب للايقاع بالإمام عليه السلام. وقد جهد ليظهر للمجتمع الإسلامي تعلق الإمام بالدنيا وعدم زهده فيها بعد تقليده ولاية العهد. إلا أنه باء بالفشل لأن سيرة العلويين مشرقة كالشمس بنور الإيمان، وسيرة العباسيين مظلمة قاتمة لا بصيص فيها بنور الإيمان وهدي الإسلام. والإمام ظهر أمام الناس جميعاً كألمع شخصية عرفها العالم الإسلامي في تقواه وورعه، وإقباله على طاعة الله وعبادته، وبعده كل البعد عن كل المناحي السياسية.

نصيحة خالصة مقابل عقوبة طالحة:

قدم الإمام الرضا عليه السلام نصيحة خالصة للمأمون، لا يشوبها شائبة من المشاكل السياسية وهي:

إعفاؤه من ولاية العهد وإعفاء الفضل بن سهل من الوزارة، وبذلك يتخلص

المأمون من كيد العباسيين وبغيهم عليه^(١). إلا أن المأمون لم يعفهما، وإنما كان يدبر لهما المكائد لاغتيالهما والتخلص منهما فيصفيهما جسدياً ليخلو له الجو، وينال بذلك رضى العباسيين ويزيل عنه سخطهم وانتقامهم.

... ومن الحمام كان الحمام:

أخذ المأمون يطيل التفكير ويقلب الرأي على وجوهه فاستقر رأيه على التخلص من الإمام الرضا عليه السلام الذي تحقد عليه الأسرة العباسية؛ ومن الفضل بن سهل دفعة واحدة، وهذا أيضاً ينقم عليه العباسيون اعتقاداً منهم أن هو الذي حبذ للمأمون عقد ولاية العهد للإمام عليه السلام، فأوعز المجرم إلى عصابة مجرمة من عملائه القيام باغتيال الإمام والفضل في حمام (سرخس) فطلب منهما الدخول معهما في هذا الحمام، ويكون هو معهما، وذلك لتغطية الأمر، وعدم انكشافه لأي أحد. وكان الإمام عليه السلام يقظاً حذراً فلم تخف عليه هذه المكيدة فرفض الدخول إلى الحمام. ولما علم المأمون برفضه كتب إليه ثانية يلتمسه، ويرتجاه فأجابه الإمام عليه السلام :

«لست بداخل غداً الحمام، فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام في هذه الليلة يقول لي: يا علي لا تدخل الحمام غداً، فلا أرى لك يا أمير المؤمنين ولا للفضل أن تدخلوا الحمام غداً...».

فأجابه المأمون الحاقد والغادر:

«صدقت يا سيدي، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لست بداخل الحمام غداً والفضل فهو أعلم وما يفعله...».

ونفذت مكيدة المأمون بالنسبة إلى الفضل، فقد خلاه وشأنه ليلاتي مصرعه على أيدي عصابته المجرمة.

مصرع الفضل:

بادر الفضل إلى الحمام، فحينما دخل فيه وجد العصابة بانتظاره، وفوراً

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٤٥.

بدأت سيوفهم الحاقدة تقطع جسده فخر على الأرض صريعاً يتخبط بدمه، وما هي إلا لحظات حتى وجد جثة هامدة لا حراك فيها، وبذلك يكون المأمون الخادع قد حقق شطراً من مهمته؛ وبقي الشطر الآخر بانتظار الوقت المناسب.

اعمل خيراً شراً تلقى:

وبعد مصرع الفضل سارع أصحابه نحو المأمون ليأخذوا الثأر منه، لأنهم علموا أنه هو الذي أوعز بقتله، فبادر حراس قصر المأمون إلى غلق أبوابه خوفاً من هجوم الثوار. ولما كانت الأبواب مغلقة حمل الثوار أقبسة من نار لحرق أبواب القصر والانتقام من المأمون. عند ذلك فزع المأمون من سوء فعله فالتجأ إلى الإمام الرضا عليه السلام واحتمى به. خرج الإمام عليه السلام إلى الثوار وخاطبهم ثم أمرهم بالانصراف فاستجابوا له، ونجا المأمون ببركة الإمام من هذا المأزق الحرج^(١) أما الذين اشتركوا في جريمة قتل الفضل فكانوا خمسة أشخاص من حاشية المأمون، ومن بينهم غالب خاله، وقد قبضت عليهم الشرطة، وجاءت بهم إلى المأمون لمحاكمتهم.

ولما سئلوا: من الذي دفعكم لقتله؟ قالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فقال لهم: إني أقتلكم بإقراركم، وأما ما ادعيتموه من أنني أنا أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة. ولما أصرروا على الإقرار، أمر بهم فضربت أعناقهم، وخاله غالب معهم! ثم بعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل ابن الفضل، وأظهر عليه الحزن الكاذب على عادته، وقد طبق عليه المثل:

يقتل القتل ويحمل بجنازته.

الجريمة الكبرى!!!

اغتيال الإمام الرضا عليه السلام:

عندما انتهى المأمون من جريمة قتل الفضل، غسل يديه من دمه، ثم بدأ بجريمة كبرى وهي: قتل إمام المسلمين، سبط الرسول عليه السلام الإمام الرضا عليه السلام، فدس له سمّاً قاتلاً في العنب، أو الرمان كما سنفصل ذلك بعد

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٦٤.

قليل . وبذلك فقد قضى المأمون الغادر والمجرم على أعلم شخصية في العالم الإسلامي ، كانت مصدر الفكر والوعي والتقدم في العالم الإسلامي .

والعجب كل العجب كيف أقدم على هذه الجريمة الشنعاء وهو يعلم جيداً أن الإمام الرضا عليه السلام يتميز بأنبيل وأرفع الصفات النبيلة فهو:

- ١ - أبين الناس فضلاً وعلماً .
- ٢ - أعف إنسان على وجه الأرض .
- ٣ - أزهّد إنسان في مباحج الدنيا وزيتها .
- ٤ - أندى الناس كفاً وأوفرهم جوداً وعطاء للمحرومين .
- ٥ - اجتماع كلمة المسلمين عليه وإقرارهم بفضله^(١) .

تنصل مكشوف: وأقوال كاذبة!

حاول بعض المؤرخين المأجورين تنزيه المأمون من اقتراف هذه الجريمة النكراء ، فقالوا وخرصوا وكذبوا وهذه بعض أقوالهم .

١ - أولهم ابن خلدون .

قال ابن خلدون أن الإمام مات حتف أنفه فجأة على أثر عنب أكله^(٢) فيا سبحان الله ما هذا العنب القتال؟؟!

وقد جرى مجراه ابن خلكان^(٣) .

٢ - اغتيال العباسيين للإمام عليه السلام .

وابن الجوزي أيضاً ذهب مذهباً مماثلاً في سبب اغتيال الإمام عليه السلام ، فقال: «لما رأى العباسيون أن الخلافة قد خرجت من أيديهم إلى أولاد علي بن أبي طالب سمووا علي بن موسى الرضا فتوفي في قرية من قرى (طوس) يقال لها (سناباد) . . . وقد زعم قوم أن المأمون سمه ، وليس كما ذكر ، فإن المأمون

(١) كشف الغمة: ج ٣ ص ١٢٥ والبحار ج ١٢ ص ٤٤ .

(٢) تاريخ ابن خلدون: ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٣) وفيات الأعيان .

حزن عليه حزناً لم يحزنه على أحد، وكتب إلى الآفاق يعزونه»^(١).
 ٣ - وذهب فريق آخر من المؤرخين إلى أن الإمام عليه السلام توفي مسموماً ولم يذكروا غير ذلك^(٢).

هذه بعض الأقوال التي ذكرت وهي غير صحيحة ولا نصيب لها من الواقع، لأن من المقطوع به: أن المأمون هو الذي اغتال الإمام عليه السلام ولم يمت حتف أنفه ولا اغتاله العباسيون، والمأمون أقدم على اقتراف هذه الجريمة النكراء للتخلص من الإمام الذي شاع ذكره في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وظهرت دلائل إمامته للعيان، وهام المسلمون بحبه، وذلك لما يتمتع به من سمو الآداب ومعالي الأخلاق والزهد في الدنيا، والاقبال على الله إلى غير ذلك من الصفات النبيلة التي أخذها عن آبائه المعصومين وجده الرسول الأعظم عليه السلام، في حين أن المأمون وسائر ملوك بني العباس كانوا خالين من كل هذه الصفات.



(١) تذكرة الخواص: ص ٣٦٤.

(٢) البحار وعيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ١٤٥.



إلى جنة المأوى

الإمام الرضا ينعي نفسه:

كان تقليده عليه السلام لولاية العهد امتحاناً عسيراً للغاية، فقد ضيق عليه المأمون، وفرض عليه رقابة شديدة، وأحاطه بقوى مكثفة من الأمن، وقد مل الإمام من هذه الحياة المعذبة، فراح يدعو الله تعالى أن ينقله من دار الدنيا إلى دار الآخرة، ودار الخلود فقال عليه السلام :

«اللهم إن كان فرجي مما أنا فيه بالموت فعجل لي الساعة . .» .

استجاب الله تعالى دعاء المظلوم فنقله عز وجل من دار الدنيا المحفوفة بالمكاره والآلام إلى دار الحق، دار الخلود.

أما عن كيفية وفاته، فقد دعا الإمام عليه السلام في غلس الليل البهيم هرثمة بن أعين، فلما مثل عنده قال له :

«يا هرثمة هذا أوان رحيلي إلى الله تعالى، ولحوقي بجدي وأبائي عليهم السلام وقد بلغ الكتاب أجله، وعزم هذا الطاعي - يعني المأمون - على سمي في عنب ورمان مفروك، فأما العنب فإنه يغمس السلك في السم ويجذب الخيط بالعنب، وأما الرمان فإنه يطرح السم في كف بعض غلماناه، ويفرك الرمان بيده ليتلطح حبه في ذلك السم وأنه سيدعونني في اليوم المقبل، ويقرب إلي الرمان والعنب، ويسألني أكلها، فأكلها ثم ينفذ الحكم، ويحضر القضاء .

فإذا أنا مت فسيقول: أنا أغسله بيدي، فإذا قال ذلك: فقل له عني: بينك وبينه، أنه قال لي: لا تتعرض لغسلي، ولا لتكفيني ولا لدفني، فإنك إن فعلت ذلك عاجلك من العذاب ما أخرج عنك، وحل بك اليم ما تحذر فإنه سينتهي .

وأضاف الإمام قائلاً: فإذا خلى بينك وبين غسلتي حتى ترى، فيجلس في علو من أبنيته مشرفاً على موضع غسلتي لينظر، فلا تتعرض يا هرثمة لشيء من

غسلي حتى ترى فسطاقاً أبيض قد ضرب في جانب الدار، فإذا رأيت ذلك، فاحملني في أثوابي التي أنا فيها، وضعني من وراء الفسطاط حتى تراني فتهلك .

وأنه - أي المأمون - سيشفرك عليك، ويقول لك: يا هرثمة أليس زعمتم أن الإمام لا يغسله إلا إمام مثله، فمن يغسل أبا الحسن، علي بن موسى، وابنه محمد بالمدينة ونحن بطوس؟ .

فإذا قال ذلك: فقل له: إنا نقول: إن الإمام لا يجب أن يغسله إلا الإمام مثله، فإن تعدى متعد فغسل الإمام لم تبطل إمامة الإمام لتعدي غاسله، ولا بطلت إمامة الإمام الذي بعده، بأن غلب على غسل أبيه، ولو ترك أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بالمدينة لغسله ابنه محمد ظاهراً مكشوفاً، ولا يغسله الآن أيضاً إلا هو من حيث يخفى، فإذا ارتفع الفسطاط فسوف تراني مدرجاً في أكفاني فضعني على نعشي، واحملني، فإذا أراد أن يحفر قبوري، فإنه سيجعل قبر أبيه هارون الرشيد، قبلة لقبيري، ولا يكون ذلك أبداً، فإذا ضربت المعاول ينب عن الأرض، ولم يحفر منها شيء ولا قلامة ظفر فإذا اجتهدوا في ذلك وصعب عليهم، فقل لهم عني:

إني أمرتك أن تضرب معولاً واحداً في قبلة قبر أبيه هارون الرشيد فإذا ضربت تقذفه في الأرض إلى قبر محفور، وضريح قائم، فإذا انفرج القبر فلا تنزلي حتى يفور من ضريحه الماء الأبيض فيمتلىء منه ذلك القبر... فإذا غار الماء فأنزلي في ذلك القبر والحدني في ذلك الضريح^(١).

وأمر الإمام عليه السلام هرثمة بحفظ ما قاله، فأجابه إلى ما أراد، وفي اليوم الثاني بعث المأمون خلف الإمام، ولما حضر عنده قام إليه فعانقه وقبل ما بين عينيه وأجلسه إلى جانبه، وأقبل عليه يحادثه، وأمر بعض غلمانته أن يأتيه بعنب ورمان، قال هرثمة:

فلم أستطع الصبر وأصابني رعدة .

وناول المأمون الإمام العنقود من العنب، وقال له: «يا ابن رسول الله ما

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢٤٧.

رأيت عنباً أحسن من هذا العنب؟...» فرد عليه الإمام: «ربما كان عنباً أحسن منه في الجنة...».

وطلب المأمون من الإمام أنه يتناول منه شيئاً فامتنع عليه السلام منه، فصاح المأمون: لعلك تتهمنا بشيء؟...».

وتناول الإمام ثلاث حبات، ثم رمى به، وقام، فقال له المأمون: «إلى أين؟...».

فنظر إليه الإمام، وقال له بنبرات خافتة:
«إلى حيث وجهتني...»^(١).

تفاعل السم في جسم الإمام الطاهر وأيقن عليه السلام بنزول المصيبة فسارع إلى الدار ينتظر اليوم الموعود. وهو في هذه الحال أرسل إليه المأمون يطلب منه وصيته ونصيحة له، فقال عليه السلام لرسوله:

«قل له: أن لا تعطي أحداً ما تندم عليه...».

وسرى السم في جميع أجزاء جسم الإمام عليه السلام وأخذ يعاني أقصى الآلام وهو يعلم أن لقاء بربه لقريب، فأخذ يتلو آيات من الذكر الحكيم، ويستغفر الله تعالى، ويدعو للمؤمنين.

يقول الرواة لما ثقل حاله امتنع أهل بيته وأصحابه عن الأكل والشرب، فالتفت عليه السلام إلى ياسر وقال له:

«هل أكل الناس شيئاً؟...».

فرد عليه ياسر بصوت متهدج حزين النبرات؛ قائلاً: «من يأكل مع ما أنت فيه».

فانتصب عليه السلام كعادته ثم قال: هاتوا المائدة، ولم يدع أحداً من حشمه إلا اجلسه على المائدة، وأخذ يتفقد واحداً بعد واحد، ولما فرغوا من تناول الطعام، أمر بحمله إلى النساء، ولما فرغن من الأكل أغمي عليه وسلم الروح إلى خالقها،

(١) المصدر نفسه: ج ٢ ص ٢٤٣.

إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وفي آخر الليل كان الإمام يتلو آيات من الذكر الحكيم، وكان آخر آية قرأها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١) ثم فاضت نفسه الزكية إلى بارئها. تحف بها ملائكة الرحمن وتستقبلها في رياض الخلد أرواح الأنبياء وأرواح الأوصياء، ومن بينهم جديده الرسول الأكرم وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب يرحبان بقدمه.

لقد انتقل الإمام الرضا عليه السلام إلى حظيرة القدس بعدما أدى رسالة ربه رافضاً أي تعاون مع المأمون، ودون أن يشترك بأي عمل إيجابي في جهاز الدولة، ويكون بذلك قد سلب شرعية حكومة المأمون وأنها لم تكن قائمة على حكم الله العادل. وهذا هو السبب الذي نغص حياة المأمون ودفع به ليزيق الإمام جميع ألوان الاضطهاد وعذاب السجون.

لكن الإمام الرضا عليه السلام صاحب القلب الكبير والإيمان العميق، والإرادة العلوية الفذة صاح هازناً بالموت وقال له قوله جده الإمام الحسين سيد الشهداء:

قد تجيء أيها الموت في كل لحظة، وترمي بالأحياء في غيابات المجهول، ولكنني أترقبك منذ زمن، ولا أهابك ولا أخافك أريد أن تموت أنت، وأن أحيأ أنا إلى الأبد. أبقى قطرة في محيط التاريخ، وأتجاوز السنين والعصور، وأبقى مع الخالدين. سجلت اسمي في قلب كل مؤمن، وعلقت ذكري على صدور أصحاب المواقع الحقة، وبقيت حياً فواحاً في خواطر الأبطال الذين أحبوا الحياة الحرة الشريفة.

لقد كانت وفاة الإمام الرضا رزءاً على العلماء والفقهاء ورجال الفكر الذين

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٥٤، وعيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢٤١.

كانوا ينهلون من نعيم علومه، كما كانت وفاته رزءاً شعبياً عاماً، فقد فقدت الأوساط الشعبية من كان يسهر على مصالحهم، ويناضل عن قضاياهم ضد الظلم والظالمين.

رياء ونفاق...!!

أظهر المأمون الحزن المخادع في وجهه والفرح الساكن في قلبه، وأظهر الجزع الكاذب أمام الجماهير، عله يخفي جريمته النكراء فخرج حافياً حاسراً، يضرب على رأسه، ويقبض على لحيته، ويبكي، وقد رفع عقيرته لیسمعه الناس قاتلاً:

«ما أدري أي المصيبتين أعظم علي، فقدي لك، وفراقي إياك، أو تهمة الناس لي أنني اغتلتك وقتلتك...»^(١).

أراد المأمون تبرير ساحته ودفع التهمة عنه بأنه هو الذي اغتاله. لكن سرعان ما انكشف رباؤه، واتضح للمجتمع بأنه هو المسؤول عن اغتياله، وظهر خداعه ونفاقه أمام الجميع.

تشيع جثمان الإمام عليه السلام:

وأخيراً.. إلى البيت الأخير، إلى البيت الدائم، شيع جثمان الإمام عليه السلام تشيعاً حافلاً لم تشهد مثله (خراسان) في جميع أدوار تاريخها أقفلت الدوائر الرسمية، وأغلقت المحلات التجارية، وهرع الناس بجميع طبقاتهم إلى تشيع جثمان ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أذهلهم المصاب الجسيم، فسالت الدموع كل مسيل، وتعالّت الأصوات بالصراخ من كل جانب على الفقيد العظيم الذي كان ملاذاً أميناً لهم. رفعت الأعلام السود، وتقدم المأمون الجثمان حاف القدمين حاسر الرأس وخلفه الوزراء وكبار رجال الدولة، وقادة الجيش، وهم يذكرون فضائل الإمام عليه السلام والخسارة العظمى التي منيت بها الأمة.

ثم جيء بالجثمان المقدس تحت هالة من التكبير والتعظيم إلى مقره

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢٤١.

الأخير، فحفر له قبر بالقرب من قبر هارون المجرم قاتل أبيه الإمام الكاظم عليه السلام فواراه المأمون فيه، موارياً فيه كل ما تسمو به الإنسانية من الصفات النبيلة، والعادات الرفيعة، والنزعات الكريمة.

وأقبلت الجماهير تعزي القاتل (المأمون) وسائر العلويين والعباسيين على مصابهم الأليم، والكل ما بين باك وواجم، فقد فقدوا إمام المسلمين، وسيد التقيين وابن بنت رسول الله خاتم النبيين.

وقد سئل المأمون عن السبب في دفن الإمام إلى جانب قبر أبيه هارون فأجاب: ليغفر الله لهارون بجواره للإمام الرضا عليه السلام.

فيا سبحان الله!! كيف يغفر الله لمجرم شرير ظالم قتل إماماً تقياً طاهراً كالإمام الكاظم؟! وهل قرب القبر ينفع؟! ألا يدري المأمون أن كل امرئ رهن بما كسبت يده؟ ألم يسمع قول الشاعر الكبير دعبل بقوله:

أربع بطوس على قبر الزكي بها	إن كنت تربع من دين على وطر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا	على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت	له يده فخذ ما شئت أو فذر
قبران في طوس خير الناس كلهم	وقبر شرهم هذا من العبر
ونحن بدورنا نسأل المأمون:	

هل جلوس القاتل على قبر القتيل، صائماً، قارئاً القرآن يغفر له؟ أقام المأمون عند قبر الإمام الرضا عليه السلام ثلاثة أيام صائماً نهاره، قارئاً.



مشهد ومزاره عليه السلام

ذكر المؤرخون في باب شهادته عليه السلام أنه دفن في دار حميدة بن قحطبة الطوسي في قرية سناباذ من رستان نوقان. وكانت هذه الدار في بستان يسكنها الأمراء ورجال الدولة العباسية، وبعد مدة قليلة تحولت هذه الدار وقرية سناباذ واشتهرت باسم «مشهد الرضا» أو «مشهد طوس».

وكانت في ناحية طوس مدينتان وهما: (نوقان) (وطابران) وتبعد الواحدة عن الأخرى أربع فراسخ. ولما دفن الإمام الرضا عليه السلام في سناباذ قصده الناس من النواحي وسكنوا عند مشهده، ولاذوا بقبوره وتبركوا بمجاورته، وبنوا عند قبره دوراً وأسواقاً للمسافرين والزوار، وتحولت سناباذ إلى مدينة كبيرة، وهاجر الناس من نوقان وطابران وتوطنوا عند مشهد الرضا عليه السلام، فصارت نوقان محلة من مشهد وخرت طابران.

والروضة الرضوية اليوم من أعظم المزارات في الدنيا، ولا يجتمع الناس في مزاركما يجتمعون عند قبره عليه السلام وأبواب الروضة المباركة مفتوحة في تمام الأيام والليالي.

وطوال أيام السنة لا تخلو من الزوار. وقد ذكر تاريخ بناء الروضة المباركة في آخر المجلد الثاني من كتاب مسند الإمام الرضا عليه السلام للشيخ عزيز الله العطاردي. كما ذكر كل ما يتعلق بها من مكاتب ومستشفيات ومستوصفات وغيرها؛ وجاء في ذيل الكتاب عن هذا البلد الجميل المبارك «مشهد الرضا» وتاريخه وخصوصياته، ومساجده ومدارسه ومعاهده للقرآن الكريم.

وكان المأمون يترحم على الإمام عليه السلام، وذلك لتنزيهه من افتراق هذه الجريمة النكراء، فأظهر أمام الملاء إخلاصه وحبه للإمام عليه السلام إلا أن ثوب الرياء شفاف جداً، يكشف عما تحته، وقد ظهر للجميع زيف ذلك، وبيانت الحقيقة، وما عاد لحزنه المزعم أي نفع أو أثر.

المأمون الخادع والمخدوع:

دعا المأمون هرثمة بن أعين، وطلب منه أن يحدثه بما سمع من الإمام، وما قاله له في سمه بالعب والرمان المفروك، فجعل هرثمة يحدثه بذلك والمأمون الخادع يصفر وجهه مرة، ويحمر أخرى وهو يقول بنبرات تقطر أسى وحسرات على ما اقترفه في حق الإمام قائلاً:

«ويل للمأمون من الله، ويل له من رسول الله ﷺ ويل له من علي بن أبي طالب، ويل للمأمون من فاطمة الزهراء، ويل للمأمون من الحسن والحسين، ويل للمأمون من علي بن الحسين، ويل للمأمون من محمد بن علي، ويل للمأمون من جعفر بن محمد، ويل له من موسى بن جعفر، ويل للمأمون من علي بن موسى الرضا. . هذا والله الخسران المبين!». .

فتأمل الندم ينهش قلبه، والخوف من لقاء ربه يحز في نفسه، والخوف يسيطر على جميع قواه. فأين جبروته وسلطانه؟ وما فائدة الجاه والمال؟ لكن الندم لا يزيل آثار الجريمة ولا يخفف من هول المصيبة.

ونحن نقول للمأمون وأمثاله ويل لكم من عظيم ذنوبكم، ويل لكم من اغتيال أسيادكم أبناء رسول الله، الأئمة المعصومين الذين طهرهم الله من الرجس تطهيراً.

فأين تربي المأمون؟ في مدرسة أبيه هارون وتلقن من الدرس في دور السم في الاغتيال، وتعلم منه الخبث والدهاء، وتعلم منه غرام الملك والمال والسلطان. فلا غرابة إذن إن صدر منه ما صدر من خيانة وخداع وإجرام.

ثم أمر المأمون هرثمة بكتمان قول الإمام معه، ونبه عدم إذاعته، وتلا قول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَاطًّا﴾^(١).

(١) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٢٤٩، النساء: الآية، ١٠٨.

الإمام الرضا خالد في ضمير الأمة الإسلامية:

إنه عليه السلام من مدرسة أهل البيت التي آثرت قداسة الجهاد والشهادة كان أئمة أهل البيت النبوي الشريف عليه السلام أصحاب مدرسة مستقلة في ذاتها، فريدة في أسلوبها وأصالتها، فلم يخضعوا رغم شدة الظروف وحراستها إلى الظلمة ولم يساورهم خوف لحظة واحدة حتى قضوا ما بين شهيد وسجين وأسير. قال تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا﴾^(١).

وقد كابد أهل البيت كثيراً من المندسين في صفوف أتباعهم ليفسدوا عليهم أمرهم ويشوهوا تعاليم الإسلام بما أدخل بين آثارهم من البدع والأساطير، حيث ادعت بعض الفرق في بعض أئمة أهل البيت عليه السلام أنهم لا يموتون، وإنما رفعوا كما رفع عيسى بن مريم عليه السلام من هذه الفرق: الواقفية التي مر ذكرها. فقد ظهرت بعد استشهاد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أبو الإمام الرضا عليه السلام حيث وقفوا عند الإمام الكاظم عليه السلام ولم يرجعوا إلى الإمام الرضا عليه السلام وقد أنكروا وفاته ويتضح موقف الإمام الرضا عليه السلام من هذه الفرقة وأمثالها بوضوح كما كان موقف الإمام الصادق والإمام الكاظم عليه السلام من الغلاة بقوله حين سئل عن الغلاة فقال:

«الغلاة كفار والمفوضة مشركون، من جالسهم أو خالطهم أو آكلهم أو شاربهم أو واصلهم أو زوجهم أو تزوج منهم أو آمنهم أو ائتمنهم على أمانة أو صدق حديثهم أو أعانهم بشرط كلمة خرج من ولاية الله عز وجل وولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وولايتنا أهل البيت»^(٢).

ومن جهة أخرى فإن تردي الوضع السياسي والأخلاقي للحكام في تلك الفترة انعكس على أكثر طبقات الأمة، فلم يسلم منه أحد سواء العامة والجمهور،

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٢٣.

(٢) أخبار عيون الرضا: ج ١ ص ٩٤.

أو قادة الرأي، وأقطاب المجتمع والعلماء لذا كان الرأي العام قد اتجه بشكل قوي وواضح باتجاه أهل البيت وأئمتهم عليهم السلام أمثال الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا عليهم السلام كانوا هم ملجأ الأمة ومفرج الاستغاثة، ومحور التجمع والمعارضة. فقد كانوا يمثلون موقع القيادة، ومقام الإمامة في البيت النبوي الشريف، وكانت قلوب الجماهير تنبض بحبهم والولاء لهم وتثق بما ترى من علم وورع وتقوى، وصدق في القول والعمل. لذلك نشاهد ثورات الطالبيين تمتد من بلاد الديلم وخراسان والأهواز والبصرة والكوفة والمدينة ومكة واليمن وغيرها من البلدان الإسلامية، وتلقى التأييد من الجماهير المحرومين، حتى دامت عبر المرحلتين الأموية والعباسية حوالي قرن من الزمن ابتداء من ثورة زيد بن علي، الثورة تلو الثورة، والمجتمع الإسلامي يعيش في صراع وتوتر سياسي وأمني مستمر ومحوره وطلانعه في الجهاد هم عناصر أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وقادتهم، وكان الكل يشاطرهم الإحساس والموقف، ولكن قد تحول أوضاع وظروف دون المقاومة المسلحة وإعلان الثورة والجهاد.

لذلك كنا نرى الأمة بمختلف طبقاتها تعلن الولاء سرّاً وعلناً لمجرد سماعهم بتحريك الطالبيين، وقد زادت المظالم والقسوة التي عاناها أبناء آل أبي طالب من الحكم الأموي والعباسي التفاف الناس حولهم وزيادة ميلهم وولائهم لأهل البيت عليهم السلام وثوراتهم ومواقفهم. الإمام الرضا عليه السلام هو من بيت آل النبي صلى الله عليه وآله من المتقين في الدنيا ومن أهل الفضائل الذين وصفهم أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب فقال: «المتقون في الدنيا هم أهل الفضائل: منطلقهم الصواب وقلوبهم الاقتصاد ومشبههم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم. طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب.

عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون»^(١).

(١) من نهج البلاغة.

وهذا ما أبغاهم أحياء في ضمير الأمة الإسلامية، والحقيقة أنهم ليسوا للشيعنة وحدهم ولا للمسلمين وحدهم، بل كانوا لجميع بني البشر من كل عرق ولون. إنهم كالهواء والماء، وكالضوء، وكالأبجدية، لكل ما هو أرقى وأبقى وأبقى. إنهم لما هو أوغل في الحق.

لقد صمدوا بإرادتهم الفولاذية عندما وعدوهم وأخلفوا، فصبروا بكل عزم وثابروا وصمدوا ولم يتوانوا.

لقد رفضوا موائد بني أمية الدسمة، ورفضوا الآلاف التي كان ينبغي الحكام تقديمها لهم. والإمام الرضا عليه السلام رفض تقديمات المأمون ومناصبه ولم يشنه عن عزيمته الفذة ومواقفه الشريفة ما كان له مكانة في قلوب المخلصين المؤمنين برسالة جده عليه الصلاة والسلام.

فلقد أثر معاوية كرسية وبطنه، وأثر يزيد شهواته، وأثر المغيرة وعمرو بن العاص لقيمات دنيوية، وأثر المنصور تخزين المال، وأثر هارون الجاه والسلطان، وأثر المأمون كرسي الحكم، ومن أجلها قتل أخاه الأمين. ومات جميعهم جسماً وذكرأ، ومات معهم ابن زياد وابن الجوشن وابن سعد، والفضل بن سهل وبقي الإمام الرضا عليه السلام يذكر حياً نضراً فواحاً كما ذكر محمد وآل محمد ورسالة محمد، فالشفاه التي ترتل اسمه كما ترتل آيات التنزيل، والقلوب التي تلهج بحبه، والعقول التي تتحرك بالاعجاب به ليس وقفاً على المسلمين، ولا على المئة الأولى من تاريخ الإسلام، فهذا أمر ينطبق على الذي يتفوق بحال من الأحوال.

أما الإمام الرضا عليه السلام فهو لكل حال ولكل الأجيال، لأنه باق في الوجود منذ أن أبدع الله الخير.

لقد ذهب الأمويون وترمدوا، وانطفأت قناديل فتوحاتهم لأنهم كانوا محكومين بغرائز الأثرة والاستبداد وحب التوريث للمال والضياع. أما علي وأبناؤه فقد تمسكوا بشريعة الإسلام وأحكامه، ومبادئ الرسول الأعظم وأخلاقه. فكان لهم مواقف ثابتة حافظوا عليها، وحقوق معلنة ماتوا دونها قالوا الصدق فلهج به

التاريخ، ووقفوا المواقف الحققة فنسخت عن صحيفهم البطولات، وبقيت مشاعل صدقهم وشهادتهم كواكب مشرقة قبالة الشمس لأنها تستوحي من نهج رسول الله وتوجه من نور الله .

وإذا نظرنا إلى الحقيقة بتأمل ووعي نجد أن الكل هباء، والكل فوات وفناء ما لم نتطلع إلى سمو الحقيقة العليا، إلى الله جل جلاله . فهذا وحده الذي يبقى، والذي لا يجب البقاء في الخلود، في رحاب رضوان الله، فهو ميت جسداً وروحاً وذكرأ وله جهنم وبئس المصير .

فالموقف الموقف، والصدق الصدق، والعدل العدل، والحق الحق وهذه كلها من شمائل أئمتنا المطهرين الذين فضلهم رب العالمين في كتابه المجيد، ومن أجل هذه الشمائل الكريمة استشهد الشرفاء الأتقياء .

والإمام الرضا ﷺ كآبائه وأجداده هزأ بالموت فإذا به ذو عرش على قلوب الملايين، يحتل قلوبهم، ويتملك مشاعرهم ومحبتهم وحسبه أنه قال للموت هازئاً به :

قد تجيء أيها الموت في كل لحظة وترمي بالأحياء في غيابات المجهول، ولكنني لا أخافك، ولا أهابك، أريد، أريد، أن تموت أنت، وأن أحيأ أنا إلى الأبد. أبقى قطرة في محيط التاريخ وأتجاوز السنين والعصور، فأبقى مع الخالدين. سجلت اسمي على قلب كل مؤمن، وعلقت ذكرى على صدور أصحاب المواقف الحققة، وبقيت حياً فواحاً في خواطر الأبطال الذين أحبوا الحياة الحرة الكريمة. وبعد أربعة عشر قرناً تجد أنصاري يسطع من نفوسهم ضوء يهدي، وعطر يرفع، وصوت يهب سامعه إلى نجدة الحق، ونصرة الشمائل .

وها هم جنودك وأنصارك في المقاومة الإسلامية يسرون على نهجك ويعملون برسالتك ويقاومون الظالمين المعتدين، ويدافعون عن المحرومين والمظلومين. كل ذلك في سبيل الإنسانية والحضارة السعيدة الهادفتين إلى الطمأنينة والسعادة، وكتاهما جناحان محلقتان نحو الصراط المستقيم .

ويا إمامي العظيم، الإمام الثامن من أئمة أهل البيت الاثني عشر المعصومين، أذف إليك البشري بأن أتباعك المؤمنين قد جاهدوا وصبروا وضحوا بأرواحهم فهزموا الصهاينة المجرمين في جنوب لبنان والبقاع الغربي فاستشهدوا من أجل إعلاء كلمة الله، ومن أجل وطنهم ومواطنيهم، فقاوموا الظالمين المعتدين وأحبوا اللحاق بكم فهنيئاً لكم، وهنيئاً لكل من سار على هذا الخط الإسلامي الشريف، خط الرسول الأعظم ﷺ وخط أهل البيت عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام.





رثاء بعض الشعراء للإمام عليه السلام

كان نبأ وفاة الإمام الرضا عليه السلام كالصاعقة على نفوس المؤمنين، فقد تلقوا النبأ المؤلم بحزن عميق، لأنهم شعروا أنهم فقدوا بموته كل ما كانوا يأملون به من رجوع الخلافة الإسلامية إلى معدنها الأصيل، فيعود إلى ربوعهم العدل السياسي والاجتماعي ويتخلصون من أئمة الظلم والجور. لكن آمالهم قد خابت باستشهاد الإمام العظيم. فسالت الدموع كل مسيل ونخر الحزن قلوب الجميع، مما دعا كوكبة من الشعراء فرثوا الإمام عليه السلام بذوب أرواحهم من بين هؤلاء شاعر أهل البيت دعبل الخزاعي.

رثى دعبل الإمام الرضا عليه السلام بقصيدة عصماء حكى حزنه العميق، وصورت الخسارة الكبرى التي مني بها العالم الإسلامي. وكان مما قاله:

لهم دون نفسي في الفؤاد كمين
يساهم فيه ميتة ومنون
عليهم دراكاً أزمة وسنون
تحكم فيه ظالم وضنين
وها ذاك مأمون وذاك أمين
لهذا رزايا دون ذاك مجون
بطوس عليك الساريات هتون
فأبكيك أم ريب الردى فيهون
وإن قلت موت إنه لقمين
معالم دين الله وهو مبين
لدي ولكن ما هناك يقين^(١)

هو النفس إلا أن آل محمد
أضربهم إرث النبي فأصبحوا
دعتهم ذئاب من أمية وانتحت
وعائت بنو العباس في الدين غيثة
وسموا رشيد ليس فيهم لرشده
رشيدهم غاو وطفلاه بعده
ألا أيها القبر الغريب محله
شككت فما أدري أمسقى شربة
وأيهما ما قلت: إن قلت شربة
أتعجب للأحلاف أن يتخيفوا
لقد سبقت فيهم بفضلك آية

(١) مقاتل الطالبين: ص ٥٧١.

وقال أيضاً في رثاء الإمام عليه السلام :

يا حسرة تتردد
على علي بن موسى
قضى غريباً بطوس
يا طوس طوباك قد صرت
ويا جفوني استهلي
وعبرة ليس تنفد
بن جعفر بن محمد
مثل الحسام المجرد
لأحمد أحمد مشهد
ويا فؤاد توقد^(١)

ومن الشعراء الذين رثوا الإمام عليه السلام وتلقوا نبأ وفاته بأسى مؤلم وحزن عميق الشاعر المعروف أشجع بن عمرو السلمي، فقد رثاه بقصيدة رائعة صورت مدى الخسارة الكبرى التي مني بها العالم الإسلامي وهذا نصها:

يا صاحب العيس يحدي في أزمته
إقر السلام على قبر بطوس ولا
فقد أصاب قلوب المسلمين بها
وأخلصت واحد الدنيا وسيدها
ولو بدا الموت حتى يستدير به
بؤساً لطوس فما كانت منازلها
معرس حيث لا تعريس ملتبس
إن المنايا أعارته مخالباها
أوفى عليه الردى في خيس أشبله
ما زال مقتبساً من نور والده
في منبت نهضت فيه فروعهم
والفرع لا يرتقي إلا على ثقة
لا يوم أولى بتخريق الجيوب ولا
حقاً بأن الرضا أودى الزمان به
ذا اللحظتين وذا اليومين، مفترش

اسمع وأسمع غداً يا صاحب العيس
تقر السلام، ولا النعمى على طوس
روع وأفرح فيها روع إبليس
فأي مختلس منا ومخلوس
لاقى وجوه رجال دونه شوس
مما تخوفه الأيام باللبوس
يا طول ذلك من نأي وتعريس
ودونه عسكر جم الكراديس
والموت يلقي أبا الأشبال في الخيس
إلى النبي ضياء غير مقبوس
بباسق في بطاح الملك مغروس
من القواعد والدنيا بتأسيس
لطم الخدود ولا جدع المعاطيس
ما يطلب الموت إلا كل منفوس
رمساً كآخر في يومين مرموس

(١) ديوان دعبل: ص ١٠١.

بمطلع الشمس وافته منيته
يا نازلاً جدياً في غير منزله
صلى عليك الذي قد كنت تعبه
لولا مناقضة الدنيا محاسنها
أحلك الله دار غير زائلة
ولروعة هذه القصيدة وإذاعتها بين الجماهير حفظها الناس ورددوها فخاف
أشجع السلمي من بطش حكام بني أمية به، فسارع إلى تغيير ألفاظها وجعلها في
الرشيد.

(١) مقاتل الطالبين: ص ٥٦٨.

المصادر والمراجع

- أ -

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - إعلام الوری للطبرسي .
- ٣ - أعيان الشيعة السيد محسن الأمين .
- ٤ - الاتحاف بحب الأشراف الشيرازي .
- ٥ - الإرشاد الشيخ المفيد .
- ٦ - أحكام القرآن الجصاص .
- ٧ - أئمتنا الحاج علي محمد علي دخيل .
- ٨ - الاحتجاج الطبرسي .
- ٩ - أخبار الحكماء القفطي .
- ١٠ - إحياء علوم الدين الغزالي .
- ١١ - أمالي الشيخ أبي جعفر الصدوق ١٢ - أمالي شيخ الطائفة الطوسي .
- ١٣ - الأغاني الأصفهاني .
- ١٤ - الإمامة والسياسة .
- ١٥ - الآداب السلطانية للماوردي .
- ١٦ - الأنوار البهية الشيخ عباس القمي .
- ١٧ - الإمام الصادق عطر النبوة ومنهج حياة حسين الحاج حسن .
- ١٨ - أدب العرب في عصر الجاهلية حسين الحاج حسن .

- ب -

- ١٩ - بحار الأنوار العلامة محمد باقر المجلسي .

٢٠ - البداية والنهاية ابن كثير الدمشقي .

٢١ - بصائر الدرجات محمد الصفار .

- ت -

٢٢ - تحف العقول الشيخ الحسن بن علي الحراني .

٢٣ - تذكرة الخواص عبد الرحمن الجوزي .

٢٤ - تاريخ أبي الفداء أبو الفداء .

٢٥ - التبيان في تفسير القرآن الشيخ الطوسي .

٢٦ - تاريخ ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون .

٢٧ - تاريخ بغداد الخطيب البغدادي .

- ت -

٢٨ - تاريخ الطبري محمد بن جرير الطبري .

٢٩ - تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام محمد بن علي أبو ريان .

٣٠ - تاريخ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي .

- ج -

٣١ - جمهورية أفلاطون .

- ح -

٣٢ - حياة الإمام موسى بن جعفر القرشي .

٣٣ - حياة الإمام محمد الباقر .

٣٤ - الحضارة الإسلامية آدم متز .

- خ -

٣٥ - الخراج أبو يوسف .

- د -

- ٣٦ - دائرة المعارف للقرن العشرين محمد فريد وجدي .
 ٣٧ - الدر المنثور جلال الدين السيوطي .
 ٣٨ - ديوان أبي نواس ٤٠ - ديوان البحري ٤١ - ديوان دعبل الخزاعي .

- ذ -

- ٣٩ - ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى محب الدين الطبري .

- س -

- ٤٠ - سنن الدارمي عبد الله السمرقندي الدارمي .
 ٤١ - سنن الترمذي .
 ٤٢ - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب البغدادي .
 ٤٣ - سيرة الأئمة الاثني عشر السيد هاشم معروف الحسين .
 ٤٤ - سفينة البحار المحدث القمي .
 ٤٥ - السيرة أحمد دحلان .
 ٤٦ - سيرة النبي ﷺ عبد الملك بن هشام .

- ش -

- ٤٧ - شرح نهج البلاغة عز الدين الشهير بابن الحديد .

- ص -

- ٤٨ - صحيح البخاري محمد بن عبد الهادي السندي .
 ٤٩ - صحيح مسلم الإمام مسلم بن الحجاج .
 ٥٠ - الصواعق المحرقة أحمد بن حجر الهيتمي .

- ط -

- ٥١ - طبقات الأطباء محمد الخليلي .

- ع -

- ٥٢ - عيون أخبار الرضا عليه السلام أبو جعفر بن بابويه القمي .
 ٥٣ - العمدة ابن رشيقي القيرواني .
 ٥٤ - علل الشرائع الشيخ الصدوق .
 ٥٥ - عمدة الطالب النسابة الداودي .

- غ -

- ٥٦ - الغيبة النعماني .

- ف -

- ٥٧ - الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة ابن الصباغ المالكي .
 ٥٨ - الفهرست ابن النديم .
 ٥٩ - فتوح البلدان أحمد بن يحيى البلاذري .
 ٦٠ - فرائد السمطين .

- ك -

- ٦١ - الكافي الشيخ محمد بن يعقوب الكليني .
 ٦٢ - كشف الغمة علي بن عيسى الأربلي .
 ٦٣ - كفاية الأثر علي بن محمد الخزاز الرازي .

- ل -

- ٦٤ - لسان العرب ابن منظور .
 ٦٥ - لسان الميزان ابن حجر العسقلاني .

- م -

- ٦٦ - مسند الإمام أحمد أحمد بن حنبل الشيباني .

- ٦٧ - من لا يحضره الفقيه محمد بن علي أبو جعفر الصدوق .
 ٦٨ - مروج الذهب علي بن الحسين المسعودي .
 ٦٩ - مطالب السؤول كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي .
 ٧٠ - مناقب آل أبي طالب محمد بن علي بن شهر آشوب السروي .
 ٧١ - مقاتل الطالبين أبو الفرج الأصبهاني .
 ٧٢ - منهج الدعوات السيد ابن طاووس .
 ٧٣ - المستدرك على الصحيحين الحاكم النيسابوري .
 ٧٤ - معجم البلدان ياقوت شهاب الدين ياقوت الحموي .
 ٧٥ - رجال حول الرسول: الحاج علي محمد علي دخيل .
 ٧٦ - المستطرف الأبشيهي .

- ن -

- ٧٧ - نهاية الإرب أحمد بن عبد الوهاب النويري .
 ٧٨ - نور الأبصار في مناقب بيت النبي المختار الشبلنجي .
 ٧٩ - النجوم الزاهرة ابن ثغرى بردى .
 ٨٠ - نهج البلاغة الإمام علي بن أبي طالب شرح محمد عبده .
 ٨١ - نقد الحديث في علم الرواية وحكم الدراية حسين الحاج حسن .

- و -

- ٨٢ - وفيات الأعيان أحمد بن محمود ابن خلكان .
 ٨٣ - وسائل الشيعة الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي .
 ٨٤ - الوزراء والكتاب .

- ي -

- ٨٥ - ينابيع المودة سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي .

نخبة من مؤلفاته المطبوعة

- ١ - علم الاجتماع الأدبي، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٣
- ٢ - أنساب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٤
- ٣ - حضارة العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٤
- ٤ - أعلام في الشعر العباسي، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٥
- ٥ - أعلام في النثر العباسي، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٥
- ٦ - نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٨٦
- ٧ - نظم إسلامية، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٧
- ٨ - الاسطورة عند العرب في الجاهلية، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٨
- ٩ - حضارة العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٨٩
- ١٠ - الثقافة الإسلامية، دار التعارف، بيروت ١٩٩٠
- ١١ - الإمام السجاد جهاد وأمجاد، نال جائزة، دار المرتضى، بيروت ١٩٩٤
- ١٢ - الرسالة في الثورة الحسينية، نال جائزة، دار الكرام، بيروت ١٩٩٢
- ١٣ - أدب العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٩٢
- ١٤ - حضارة العرب في العصر العباسي، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٩٤
- ١٥ - حضارة العرب في العصر الأموي، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٩٤
- ١٦ - الروابط الاجتماعية في الإسلام، دار المرتضى، بيروت ١٩٩٥
- ١٧ - النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية، بيروت ١٩٩٦
- ١٨ - معالم مشعة من حياة الإمام الباقر، نال جائزة، دار الرسول الأكرم، بيروت ١٩٩٦
- ١٩ - الحب والحياة، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٩٧

فهرس الموضوعات

- ٧..... فاتحة
- ٩..... هذا الكتاب
- ١١..... أهل البيت في الحديث النبوي الشريف
- ١٥..... منهج أهل البيت السياسي
- ١٨..... أ - الرسالة الذهبية:
- ١٨..... ب - مسند الإمام الرضا عليه السلام:
- ١٨..... ج - جوامع الشريعة:
- ١٩..... د - طلاب ورواة الإمام:
- ١٩..... ٥ - عصر الإمام الرضا عليه السلام
- ١٩..... ٦ - سيرة ملوك بني العباس:
- ٢٠..... ٧ - كيف يجب دراسة التاريخ الإسلامي:
- ٢١..... نسبه الشريف:
- ٢٢..... مولده:
- ٢٢..... كنيته:
- ٢٢..... ألقابه:
- ٢٣..... ١ - الرضا:
- ٢٣..... ٢ - الصابر:
- ٢٣..... ٣ - الزكي:
- ٢٣..... ٤ - مكيدة الملحدين:
- ٢٤..... ٥ - الصديق:
- ٢٤..... ٦ - الفاضل:
- ٢٤..... زوجاته:

- أولاده: ٢٤.
- شعراؤه: ٢٤.
- بوابه: ٢٤.
- ولاية العهد: ٢٥.
- ملوك عصره: ٢٥.
- عمره: ٢٥.
- قبره: ٢٥.
- نقش خاتمه: ٢٥.
- السكة الرضوية: ٢١.
- صفته: ٢٥.
- هيئته: ٢٦.
- نشأته: ٢٧.
- سلوكه: ٢٨.
- زهده: ٢٩.
- كرمه: ٢٩.
- عبادة الإمام الرضا عليه السلام: ٣٢.
- دعاء الإمام الرضا عليه السلام: ٣٦.
- الدعاء سلاح الأنبياء: ٣٧.
- إخفاء الدعاء: ٣٧.
- تسليح الإمام بالدعاء: ٣٧.
- من دعاء له عليه السلام: ٣٧.
- من دعاء له عليه السلام في قنوته: ٣٧.
- ومن دعاء له عليه السلام: ٣٨.
- إبطاء الإجابة في الدعاء: ٣٨.
- ومن دعاء له عليه السلام في سجوده: ٤٠.
- دعاؤه عليه السلام في سجدة الشكر: ٤١.
- ومن أدعيته دعاء يرد به ظلم الظالمين: ٤١.

- ٤٢..... ومن أديته دعاء بطلب الأمن والإيمان
- ٤٢..... ومن أديته دعاء يطلب فيه الانقياد الكامل إلى الله تعالى
- ٤٣..... النص عليه بالخلافة
- ٤٧..... الإمامة
- ٥٥..... صفات الإمام:
- ٥٦..... الأئمة خلفاء الله:
- ٥٦..... النص على عدد الأئمة:
- ٥٧..... التفسير الشيعي للإمامة
- ٥٩..... الولاء لأهل البيت على المستوى الروحي
- ٦١..... الولاء لأهل البيت عليهم السلام يجسد عمق الولاء للإسلام
- ٦١..... الدلالة الأولى:
- ٦١..... الدلالة الثانية:
- ٦٢..... الالتزام بنهج الأئمة من أهل البيت على المستوى العملي
- ٦٣..... دور أهل البيت في الفقه والأحكام والتشريع:
- ٦٤..... وقوف مدرسة أهل البيت بوجه التحريف:
- ٦٦..... مناقب الإمام الثامن عليه السلام
- ٦٩..... ما قاله العلماء في فضائله عليه السلام:
- ٧٤..... هجرة الإمام من المدينة المنورة إلى خراسان
- ٧٥..... مكاتبة المأمون للإمام الرضا عليه السلام:
- ٧٦..... الإمام عليه السلام في مكة:
- ٧٦..... ٢ - ومن مكة المكرمة إلى القادسية:
- ٧٧..... ٣ - ومن القادسية إلى النجاج:
- ٧٨..... ٤ - ومن النجاج إلى البصرة:
- ٧٩..... الأهواز:
- ٧٩..... ٦ - ومن الأهواز إلى قنطرة اربق:
- ٧٩..... ٧ - ومن قنطرة اربق إلى مفازة:
- ٨٠..... ٨ - ومن مفازة إلى قم:

- ٩ - ومن قم إلى نيسابور: ٨٠
- ١٠ - كرامة في قرية الحمراء: ٨٤
- ومن نيسابور إلى رباط سعد: ٨٥
- إلى سناباذ: ٨٥
- ١٣ - ومن سناباذ إلى طوس: ٨٦
- ١٤ - والآن ماذا عن دخوله عليه السلام دار حميد بن قحطبة: ٨٧
- في سرخس: ٨٨
- ١٦ - والآن نزول الرضا عليه السلام بمرو: ٨٨
- مناظرات الإمام الرضا عليه السلام: ٨٩
- ٢ - الفيلسوف الصابي: ٩٤
- استئناف المناظرة: ١٠٢
- إسلام الصابي: ١٠٧
- خوف العم على ابن أخيه: ١٠٧
- تكريم الإمام لعمران: ١٠٨
- ٣ - أسئلة سليمان المروزي: ١٠٩
- ٤ - مناظرة الجائليق: ١١٦
- ٥ - مناظرة أبي قرة للإمام: ١١٩
- ٦ - سؤال صباح بن نصر الهندي وعمران الصابي: ١٢٤
- الإمام الرضا عليه السلام مع المأمون: ١٢٦
- الإمام عليه السلام يرد على سؤال ابن السكيت: ١٤٠
- المأمون يقدر عظمة الإمام عليه السلام ويشيد بمواهبه: ١٤٢
- ولاية تضليل وعهد نفاق: ١٤٤
- تدبير مدروس: ١٤٥
- البيعة بولاية العهد: ١٤٧
- فرح في غير محله!! ١٥١
- الإمام يعلم المكيدة ويعرف سر المؤامرة: ١٥١
- الاحتفال بولاية العهد: ١٥١

- الواقفة - ١٥٤
- أسباب انحرافهم عن الإمام الرضا عليه السلام : ١٥٤
- أقطاب الواقفة ودوافعهم ١٥٧
- حوار حول الإمامة مع بعض الواقفين : ١٥٩
- الدنيا الغرارة : ١٦٠
- ما شاهد الإمام من المحن والمآسي : ١٦٢
- أحداث أليمة ومؤامرات مريرة : ١٦٥
- تعرض بيت الإمام الرضا للإساءة والسلب : ١٦٨
- فترة زمنية هادئة : ١٦٩
- ظلم وثورات ١٧٠
- موقف الإمام الرضا عليه السلام من ثورة العلويين على الحاكمين : ١٧١
- موقف الإمام عليه السلام : ١٧٢
- العلم عند أهل البيت عليهم السلام ١٧٦
- إذا كان الدين مصدر هداية فيجب أن يكون مصدر معرفة : ١٧٦
- علم الطب قبل الإسلام : ١٧٧
- اهتمام الإسلام بالصحة العامة : ١٧٩
- أولاً - التوازن في الطعام والشراب وعدم الإسراف : ١٧٩
- ثانياً - النظافة : ١٧٩
- ثالثاً - غرس الأشجار : ١٨٠
- الرسالة الذهبية في الطب ١٨٤
- سبب تأليفها : ١٨٤
- دراسة المأمون للرسالة : ١٨٦
- إعجاب المأمون بالرسالة الذهبية : ١٨٦
- محتويات الرسالة الذهبية ١٨٨
- ١ - القلب : ١٨٩
- حاسة السمع : ١٩٠
- ٢ - حاسة البصر : ١٩٢

- ٣ - أما عن النطق والتأثيرات الظاهرة والباطنة في الجسد: ١٩٤
- ٤ - الجسد كالأرض الطيبة: ١٩٥
- ٥ - تنظيم الأكل: ١٩٧
- برامج الأغذية في فصول السنة ٢٠٠
- ٢ - نيسان: ٢٠٠
- ٣ - أيار: ٢٠١
- ٤ - حزيران: ٢٠١
- ٥ - تموز: ٢٠٢
- ٦ - آب: ٢٠٢
- ٧ - أيلول: ٢٠٢
- ٨ - تشرين الأول: ٢٠٣
- ٩ - تشرين الثاني: ٢٠٣
- ١٠ - كانون الأول: ٢٠٣
- ١١ - كانون الثاني: ٢٠٤
- ١٢ - شباط: ٢٠٤
- وصايا الإمام الرضا عليه السلام الصحية ٢٠٦
- النوم: ٢٠٦
- الشراب: ٢٠٦
- معجون الأسنان، السواك: ٢٠٧
- الحذر من الجمع بين بعض المأكولات والمشروبات: ٢٠٨
- نصائح صحية عديدة: ٢٠٩
- نصائح صحية للمسافر: ٢٠٩
- فائدة الحمام: ٢١١
- ١ - الحالة الأولى: ٢١١
- ٢ - الحالة الثانية: ٢١٢
- ٣ - الحالة الثالثة: ٢١٢
- ٤ - الحالة الرابعة: ٢١٢

٢١٢.....	الدور الأول :
٢١٢.....	الدور الثاني :
٢١٣.....	الدور الثالث :
٢١٣.....	الدور الرابع :
٢١٤.....	علم التفسير عند الإمام الرضا <small>عليه السلام</small> :
٢١٥.....	متى بدأ التفسير :
٢١٧.....	منهج أهل البيت في التفسير
٢١٧.....	١ - تنزيه الله تعالى عن التجسيم :
٢١٧.....	٢ - تنزيه الأنبياء عن المعاصي :
٢١٨.....	٣ - استحالة رؤية الله تعالى :
٢١٨.....	٤ - رأي أهل البيت <small>عليهم السلام</small> في الهداية والضلالة :
٢١٨.....	٥ - رأي أهل البيت في الجبر والتفويض :
٢١٨.....	٦ - تفسير القرآن بالقرآن :
٢٢٦.....	والإمام الشافعي :
٢٢٦.....	الإمام الرضا في حقل التفسير :
٢٣٤.....	الإمام الرضا <small>عليه السلام</small> بضعة من الرسول الأكرم <small>صلى الله عليه وآله وسلم</small> :
٢٣٦.....	الإمام الرضا دائرة معارف
٢٣٧.....	١ - من علومه <small>عليه السلام</small> معرفته باللغات :
٢٣٩.....	فراسته بالمغيبات :
٢٤٣.....	درس من حكمه الخالدة :
٢٥١.....	في رحاب الحكم الرضوية الاجتماعية :
٢٦٦.....	في رحاب التربية الدينية الرضوية :
٢٧٦.....	الإمام الرضا في كنف أبيه <small>عليه السلام</small>
٢٧٢.....	أ - مواهبه العلمية :
٢٧٢.....	ب - عبادة الإمام الكاظم وتقواه :
٢٧٣.....	ج - زهد الإمام الكاظم :
٢٧٤.....	د - حلم الإمام الكاظم :

- ٢٧٥..... ٥ - جود الإمام وكرمه :
 ٢٧٥..... و - اغاثة الإمام للملهوفين :
 ٢٨٠..... عصر الإمام الرضا عليه السلام :
 ٢٨٠..... ١ - الحياة العلمية :
 ٢٨٠..... أ - المعاهد والمكتبات :
 ٢٨٠..... ب - بيت الحكمة :
 ٢٨١..... ج - الترجمة والتعريب :
 ٢٨٢..... د - قمر ابن المقنع :
 ٢٨٢..... هـ - الخرائط والمراسد :
 ٢٨٣..... ١ - التفسير :
 ٢٨٣..... الثاني التفسير بالرأي :
 ٢٨٣..... ٢ - علم الحديث :
 ٢٨٤..... ٣ - علم الفقه :
 ٢٨٥..... ٤ - علم الأصول :
 ٢٨٥..... ٥ - علم النحو :
 ٢٨٥..... ٦ - علم الكلام :
 ٢٨٦..... ٧ - علم الكيمياء :
 ٢٨٦..... ٨ - علوم الطب :
 ٢٨٦..... ٩ - العلوم الهندسية : المدينة والمعمارية :
 ٢٨٦..... ١٠ - علم الفلك :
 ٢٨٨..... ١١ - علم الصيدلة :
 ٢٨٩..... حواضر العصر العباسي :
 ٢٨٩..... ١ - بغداد :
 ٢٨٩..... ٢ - البصرة :
 ٢٩٠..... ٣ - يثرب، المدينة المنورة :
 ٢٩٠..... ٤ - الكوفة :
 ٢٩١..... ٥ - سامراء :

- ٢٩١..... الحياة الاقتصادية في العصر العباسي :
- ٢٩٢..... الطبقة الثانية :
- ٢٩٢..... واردات الدولة العباسية :
- ٢٩٢..... إسراف وتبذير :
- ٢٩٦..... تركة ملوك العباسيين :
- ٢٩٧..... كراهة المسلمين الأحرار للحكم العباسي الجائر :
- ٢٩٩..... الثورات الشعبية :
- ٣٠١..... التقاء أبي السرايا بمحمد بن إبراهيم :
- ٣٠١..... اعلان الثورة على الحكم العباسي :
- ٣٠٤..... التنكيل بالعلويين :
- ٣٠٦..... أسباب دعت المأمون للحقد على الإمام عليه السلام :
- ٣٠٦..... منها: دعاء الإمام للاستسقاء :
- ٣٠٦..... دعاء الإمام :
- ٣٠٧..... خطاب الإمام :
- ٣٠٨..... تحذير وتحريض :
- ٣١٠..... خشية المأمون من التفاف الجماهير حول الإمام :
- ٣١٠..... خلوة وحيرة :
- ٣١١..... ثانياً: مراقبة الإمام :
- ٣١١..... ثالثاً: منع جماهير الشيعة من الاتصال بالإمام :
- ٣١٢..... رابعاً: عرض الخلافة على الإمام عليه السلام :
- ٣١٣..... ولاية العهد :
- ٣١٤..... خطوات معادية رهيبية للإمام الرضا عليه السلام :
- ٣١٤..... غضب وغيط وحيرة :
- ٣١٥..... نصيحة خالصة مقابل عقوبة طالحة :
- ٣١٦..... ومن الحمام كان الحمام :
- ٣١٦..... مصرع الفضل :
- ٣١٧..... اعمل خيراً شراً تلقى :

- ٣١٧..... الجريمة الكبرى!!!
- ٣١٨..... تنصل مكشوف: وأقوال كاذبة!
- ٣٢٠..... إلى جنة المأوى
- ٣٢٠..... الإمام الرضا ينعي نفسه:
- ٣٢٤..... رياء ونفاق...!!
- ٣٢٤..... تشييع جمشان الإمام عليه السلام:
- ٣٢٦..... مشهد ومزاره عليه السلام
- ٣٢٧..... المأمون الخادع والمخدوع:
- ٣٢٨..... الإمام الرضا خالد في ضمير الأمة الإسلامية:
- ٣٣٣..... رثاء بعض الشعراء للإمام عليه السلام
- ٣٤٣..... فهرس الموضوعات